محمد العوني

الجزء الأول

تأليف

نهاد المبارك

تاريخ جيل في حياة رجل

محمد العوني

محمد العوني

المقدمـــــــة

الكتاب الذى بين يدى القارئ يضم بين دفتيه بعد هذه المقدمة الفصـــول الاتية :

الفصل الاول	:	الحياة الاجتماعية التي عاصرها العوني .
الفصل الثاني	:	نسب العوني وولادته وطفولته .
الفصل الثالث	:	نشأة العوني وصفاته واخلاقه .
الفصـــل ٤	:	ابن قضى العوني فترة فتوته .
الفصـــل ٥	:	العوني من امير البحرين الى امير مكة الى امير حائل .
الفصل ٦	:	وحد للعوني عند آل صباح المرتع الخصب الذى يسر ويسر فيه .
الفصـــل ٧	:	وحد العوني بعبد العزيز الفتى الذى يحقق احلامه .
الفصـــل ٨	:	محاولة العوني تنفيذ مخططه .
الفصل ٩	:	العوني في حائل ، لم يتأقلم .
الفصـــل ١٠	:	العوني ينطلق من صمته متأقلما .
الفصـــل ١١	:	لماذا حرض العوني القاتل على قتل ابن عمه .
الفصـــل ١٢	:	العوني في وسط خوف من الخارج ورعب من الداخل .
الفصـــل ١٣	:	قصة فتح حائل كما رويتها من مدبرها .
الفصـــل ١٤	:	آخر ايام العوني ونهاية حياته .
الفصـــل ١٥	:	العوني في الميزان .
الفصـــل ١٦	:	رأى العوني في نفسه ورأى [redacted] اصدقائه فيه .
الفصل ١٧	:	مختارات من شعر العوني في الحكمه ومن امثاله .

هذا وأنه ليسعدني بأن أكد للقارئ الكريم بأن مواد هذا الكتاب لم تكـــن وليدة وقتها بل سبق ان سودت جزءا منه في عام ١٣٧٣ هـ ١٩٥٣ م واطلعت على هـــذا الجزء الاخ الاستاذ عبد الله بن خميس ، وفي سنة ١٣٨٣ — ١٩٦٣ اعجبت بسلســـة كتب الفها الكتاب المعاصرون ، بعنوان " نوابغ الفكر العربي " وقد شعرت ان هذا العنوان اوحى الي بان اصدر كتابا أو اكثر عن نوابغ الجزيرة العربية الذين لم يسبق ان كتب عنهـم ،

وكان اول من دار في ذهني الكتابة عنه الشاعر " محمد العوني " فقد هبت اتنقب في تلك المسودة التي وان كانت وجيزة فان فيها ما هو صالح بان يكون رؤوس اقلام استعين بها على المضي في هذا المنشود . ولما لم اجد ما قررت ان ابدأ الكتابة من جديد ، الا انني بمجرد الصدفة ذهبت اتحدث مع الاخ الاستاذ عبد الله ابن خميس عن عزيمتي هذه بالكتابة عن العوني وعندما له اسفي على تلك المسودة التي فقدت مني ، فما كان منه الا ان طمأنني مشكورا ، مؤكدا ان المسودة محفوظة عنده .

وهكذا مضيت في الكتابة عن العوني الذي اعتقد جازما انه لم يكن بحاجة الى من يعرف عنه — خاصة عند جميع الاوساط الشعبية في جزيرتنا العربية ، ولا سيما الذين لهم أقل الم بمعرفة ادبنا الشعبي . فهو الشاعر الخنذيذ الذي لا يجارى ، وذو الرأي الصائب الذي قل ان يخطئ الهدف ، والذكي الموهوب ، والطموح المغامر والابي المحرض الذي لا يطيب لنفسه العيش الا بمصارعة الظلم والعدوان ، واثارة الفتن والمتاعب في وجوههم وتهييج الضعفاء الصغار ضد الزعماء المارزين والحكام الكبار كما سنرى توضيحا لذلك وهو المتواضع الشفيق على الضعفاء والشافع لهم عندما تدلهم رقابهم من حبل المشنقة عند سلطان ظالم بل وهو رقيق العاطفة حتى على الحيوان حينما يرى الموت منه قاب قوسين او ادنى[1] .

ليست بحاجة للدليل على ان المرء عندما يستعرض حياة العوني بدقة وعمق فانه لن يقرأ فصلا عن طفولته الا وسوف يحس بحافز يدفعه قدما الى قراءة الفصل الخاص بفترته — ولن ينتهي القارئ من قراءة هذا الفصل وذاك الا وسيجد في نفسه شوقا

---

(١) انظر الجزء الثاني من (شيم العرب) ص ٩٧

يعود به الى العلم عما بعد هذين الفصلين من تلك الفصول الطافحة بالعبر التاريخية .

واذا كنت ايها القارئ من النفر الذين لهم ولع وشوق بالاطلاع على تاريخ الجزيرة في الفترة التي عاشها العوني ، وعلى الشكل الذي قال عنه زعيم المانيا "ادولف هتلر" ((ليس المقصود من علم التاريخ معرفة مكانة الماضي ، وانما المقصود استخراج الدرس والعبرة من هذا الماضي))[1] .

واذا كنت محبا لمعرفة التاريخ العربي في جزيرتنا العربية منذ عام ١٣١٨ هـ وحتى عام ١٣٤٠ ، او اذا كنت هو من يهتم بتاريخ الجزيرة السياسي من والى التاريخ المشار اليه ، او مولعا بالحكمة او مشتاقا الى معرفة ادب ابناء الجزيرة القويم ، او طموحا الى المجد او شغوفا بمعرفة اسلوب التحرير والتهجيج ، او زاهدا بالدنيا ، اجل ان كنت من هؤلاء او اولئك فانك سوف تجد لنفسك مرتعا خصبا بين كل صفحة من صفحات هذا السفر .

وقد انجزت المسودة من هذا الكتاب في عام ١٤٧٦ هـ .

ولما كنت واثقا كل الثقة ان الرقابة في وزارة الاعلام لدينا سوف ترحب بطبع الكتاب بحكم وجود من يهتم ادبنا الشعبي ويتذوقه ، أمثال وكيل الوزارة الاستاذ فهد الدغالد المدير على اساس ان هذا الكتاب لم يكن وثيقة تاريخية وادبية فحسب ، بل فيه قسم كبير يصور به الشاعر بطولة موحد جزيرة العرب المغفور له الملك عبد العزيز تصويرا شيقا ، بل قدم لنا العوني ملحمة تاريخية يصف فيها المعارك والاحداث التي خاضها الملك عبد العزيز بشجاعة فذة ، وذلك منذ خروجه من الكويت واستعادته

---

(١) كفاحي لهتلر صفحة ٢٢٣ .

لحكم اباءه حتى توحيده لقسم كبير من نجد ، فانني لم اكن مخطئا في اعتقادي ، في وزارة الاعلام التي كانت موافقتها على طبع الكتاب منذ عام ١٣٨٥ .

وكان المفروض ان يكون الكتاب بين يدي القراء منذ تلك الفترة لولا ان اعمالا اشغلتني عنه ، الامر الذي جعلني اقدم الاهم على المهم .

وكتابي هذا الذي اسميته (تاريخ جميل وحياة رجل) سبق ان اعلنت عنه في هذا الاسم في صحف المملكة ، وفي مؤلفي الاجزاء الاربعة (من شيم العرب ، الذي طبعته في بيروت المطبعة الاهلية عام ١٩٦٥) .

وعندما اشير الى انني اعلنت عنه منذ ثمان سنوات ، فان الداعي الى اشارتي هذه هو انني سمعت ان كاتبا ما ، استعار هذا الاسم .. وجعله اسما لكتابه .

وعندما اسمي كتابنا بهذا الاسم ، فانني استهدف حقيقة اثبت من خلالها ان تاريخ ذلك الجيل الذي عاش بين ظهرني اهله العوني ، قد عبر عنه هذا الشاعر بقصائده ، تسجيلا تاريخيا وواقعيا جديرا ان يكون صحة تاريخية لا تقبل الجدل .

والشاعر يصف تلك الاحداث التاريخية الواقعة منذ ١٣١٨ الى ١٣٤٠ اي منذ خروج الملك عبد العزيز من الكويت الى ان وجد نجدا ، يصفها وصفا دقيقا .

ولا اعتقد ان كاتبا او مؤرخا اورد تلك الاحداث على الصورة الواقعية التي صورها الشاعر ، ولي بمعتقد شاهد عيان ، وليس معنى ذلك انني اتهم اولئك المؤرخين بالقصور وانما المشكلة هي ان تاريخ تلك الحقبة ، وما قبلها متصلا بأدب الجزيرة الشعبي اتصالا لا ينفصل ، وان كاتب يكتب عن التاريخ العسكري او السياسي لامة من الامم ، وهو لا يعرف

معاني الادب القومي لتلك الامة ، فانه مهما جد واجتهد في تحري الحقائق لم ولن يستطيع أن يصل الى الاعماق في مجهوده الذى يشكر عليه .

يبقى علينا الجواب لمن يقول مادام ان حياة العوني لها من المكانة التاريخية ما يجعلها جزءا من تاريخ جيل حافل بالاحداث ، فلماذا لا يكتب عنه الكتابة التي تنسجم مع واقع امره ، والتي يستحق ما حبها الخلود ؟ . . . الجواب بكل بساطة كما يلي :

لقد انتهت حياة العوني السياسية والعسكرية وهو بجانب المهزوم ، ولو قدر له ان تنتهي حياته بجانب المنتصر كما بدأت لوجدنا المؤلفات المتعددة التي يدبجها يراعات الكتاب عنه ، بل انتهت حياته سجينا مغضوبا عليه ، وكما قال الشاعر :

الناس اعوان من والته دولته

وهم عليه اذا عادته اعوان

وثمة ملاحظة اخرى ، لابد ان اشير اليها وهي ان الكاتب الذى يود ان يتصدى للكتابة عن شاعر كالعوني ، سوف يضطر الى ان يسلك طريقة باسلوبه تختلف عن طريقة الاسلوب الذى نهجه كثير من كتاب عصرنا الراهن ، كالذين كتبوا عن نوابغ الفكر العربي من الشعراء وغيرهم ، نعم تختلف كثيرا عن اولئك ، وذلك لاسباب منها : ان العوني لم تكن موهبته واتجاهه ونفسيته محدودة الميول ، على ان يكون شاعرا يقصد بشعره الجاه ، او اكتساب المادة بشتى الوسائل والاسباب ، كما هو مبدأ كثير من الشعراء الذين سخروا مواهبهم لكسب المادة .

لا .. لم يكن العوني من هؤلاء ، ولكن العوني سماشي اكثر من ان يكون شاعرا مرتزقا بشعره ، واكثر شاعر يشبه العوني من شعراء العربية هو المرحوم محمد سامي البارودي . فهذا يشبه بكثير من نزعاته وشعره الحماسي وطموحه ، كما انهما يتشابهان بالتشريد والسجن . فهو ان مصير العوني كان اسوأ من مصير سلفه كما ان الظروف والزمان والمكان والمجتمع الذي اتاح للبارودي ان يكون رئيس وزارة ، كان بلا شك يختلف كل الاختلاف عن الظرف والوقت والمحيط الذي عاش به العوني ، اضف الى ذلك ان الاحداث والخطوب والمعارك التي شاهدها العوني او التي كان الجهاز المحرك لاثارتها كانت اشد هولا واكثر عددا من المعارك التي خاض غمارها ووصفها البارودي بشعره ، كل هذه الامور الجمة التي مرت بحياة العوني والتيارات السياسية التي حدثت في الجزيرة العربية ابان عصر الشاعر المعاشر منذ عام ١٢١٨ هـ ١٨٩٠ م حتى عام ١٣٤٠ هـ — ١٩٢١ م كل تلك الحوادث الصاخبة والمعارك الطاحنة كلها تعتبر جزءا من حياة العوني ، والعوني جزء منها فالذي يود ان يتصدى للكتابة عن تاريخ تلك الانقلابات والفتن والحروب في ذلك العهد ، لا يستطيع اتقان هذه الناحية ، فيما اذا كان بعيدا ، الا ان يكون قد اقام بالبلاد اقامة طويلة المدى ، وامتزج بافراد الشعب ، ودرس ادبهم القومي الذي يعبر عن شعورهم من شتى النواحي السياسية والعسكرية والاجتماعية وهذا شيء ليس من السهولة بمكان ، بل قد يكون متعذرا مالم يكن الكاتب من ثلب البلاد .. اما الكاتب الذي يكتب عن أي وطن كان وهو غريب عن تقاليده وجاهل بعاداته ولا يفقه شيئا من ادبه القومي ، وكل ما في الامر ان هذا الغريب جاء للبلاد كمابر سبيل فاخذ ما تلقاه من اي مصدر كان سواء اكان هذا المصدر مطلعا

ام جاهلا ام انه مطلع ولكنه غير ثقة بنقله ، ولا يخلو من الهوى . أقول : هل يمكن لمؤرخ جاء غريبا وظل غريبا من معرفة ادب البلاد الشعبي ، ايمكن لهذا ان يبلغ طبا يجعله يميز بين هذا وذلك ؟ اويمكن ان يصل به طبه الى معرفة معاني شعرنا الشعبي كشعر العوني ؟ . . وغيره الذي هو الترجمان الامين للاحداث التي مرت في بلادنا .

اجل فلو عرف المؤرخون الغرباء ان العوني جزء من تاريخ جبل والجبل جزء من تاريخه لو علموا ذلك لما استطاع ان يكتب احد منهم عن تاريخ جزيرتنا من الناحية السياسية والعسكرية منذ ١٣١٨ - ١٨٩٠ م الى ١٣٤٠ هـ - ١٩٢١ م الا وسيضطر مرغما بأن يصطدم بالعوني لا محالة .

كما ان الذي يريد ان يكتب عن العوني كشاعر مطبوع وسياسي بارع ، لا يستطيع ان يكتب عنه بصورة مختصرة عن حياته ، وعن ادبه ، وعن نهوضه بشكل محدود ، على هذه الناحية مالم يصطدم بالحوادث السياسية والعسكرية ذات التاريخ الحافل بالعبر التي من صميم جزيرتنا ، تلك الاحداث التي كان للعوني دور عملي فيها .

ولهذا وجدتني مهما حاولت ان اكتب عن العوني بشكل مختصر عن حياته وادبه ، كما كتب اولئك الكتاب عن ادب وحياة بعض الشعراء ، فانني ما استطعت ان انجح لان حياة هذا الشاعر ، ودوره الذي لعبه يختلف كل الاختلاف عن حياة كثير من الشعراء الذين عاشوا وماتوا وهم شعراء فقط . وهناك ملاحظة ثانية وهي ان الكتاب الذين كتبوا عن حياة شعراء العرب وشعرهم لا يجدون صعوبة بذلك لانهم يكتبون عن رجال

كان شعرهم باللغة العربية الفصحى التي لا تحوج اى قارئ عربي للشرح ولا تكلفه قراءتها عناء ، اما كتابتي عن العوني حينما آتي لشعره ، فاني مضطر الى شرح كل بيت له صلة بالاحداث السياسية او العسكرية او الاجتماعية ، اما شعره الذي فيه طابع المدح والاطراء لحاكم ما ، فانني سوف اغفل شرحه لان غايتي من شرح المعاني التي لها صلة بالاحداث التاريخية هي ان يعرفها الغريب من فهم شعرنا الشعبي اما المدائح والاطراء ، فانني لا اعتقد ان الغريب حريص على معرفتها الا اذا كان ذلك متصلا باحداث التاريخ ، وصفوتي كتابتها يكتب باللغة العربية لا اود ان تكون كتابتي محصورة على القراء الذين يفهمون لهجتنا الشعبية ويتذوقون الشعر النبطي ، بل الفضل بان تكون هذه الكتابة واضحة جلية لكل من يقرأ اللغة العربية الفصحى هذا من ناحية ، والناحية الاخرى من يعلم او يضمن لنا ان لهجتنا الشعبية لن تدرس بعد جيل او جيلين ، ومن ثم يصعب على الجيل القادم معرفة ادبنا الشعبي حق ولو كان من صميم الشعب ، وهذا لا بد منه سيما اذا انتشر العلم واضمحلت اللهجة العامية وحل محلها اللغة العربية الاصيلة ، ولذلك تجدني سأشرح كل بعض من معاني بيوت العوني ذات الاتصال باحداث تلك الحقبة التاريخية قاصدا ان تكون كتابتي هذه واضحة لجميع ناطقي الضاد .

وبما ان شعر العوني عبارة عن وثيقة تاريخية يصف بها الشاعر الاحداث السياسية التي خاض معمعتها ، كما يصف المعارك الحربية التي اشترك وطيسها

يصفهما وصف من حاضرهما عطيا بجانب الشيخ مبارك الصباح تارة وبجانب الملك عبد العزيز بن سعود مرارا وتكرارا وبجانب امراء بريده آل مهنا فترة ، وبجانب شيخ مشايخ عشائر العراق سعدون بن سعدون وابنه عجمي حينا ، وبجانب امير حائل ابن رشيد اثناء مكوثه الطويل عندهم حتى النهاية ، مادام الامر كذلك فان عدم شرحي للابيات التي انشدها العوني في تلك الحقبة التاريخية ، تجعل القارئ الغريب عن ادبنا الشعبي عاجزا عن معرفة تلك الاحداث التاريخية التي صاغها العوني بصورة متسلسلة وواضحة لا تخفى الا لمن يجهل معرفة ادب بلادنا القومي .

وهكذا فعلت فان اصبت باجتهادي فهذا مأموله ، وان لم اجد شطحت فلا يلام المرء بعد الاجتهاد .

فهد المارك

الفصل الاول

الحياة الاجتماعية التي عاصرها العوني

قبل ان ندخل في صميم البحث عن الفصول ذات الصلة المباشرة في ولادة العونـــي وفي نسبه وطفولته وفتوته وعن مختلف مراحل حياته الخ . . . . قبل ذلك نود ان نتحدث عن العوامل الاساسية الفعالة التي من شأنها ان يكون لها الدور العملي المؤثر على تكويـــن شخصية اى انسان ،والمهيمنة على مجرى حياة المرء وسلوكه وطباعه ونزعته . وميوله واتجاهاته ومن المعلوم الذى لا جدل فيه ـ ان الشيء المؤثر على الانسان ليس الا عاملان عامل الوراثة وعامل البيئـــة .

وقد اختلف علماء الاجتماع في هذين العاملين ايهما اشد تأثيرا في تكوين حيـــاة الانسان ،فقسم يرى ان مايرثه المرء من ابيه وسلالته هو العامل الاساسي المتحكم في تكويـــن حياة الانسان ،وقسم آخر يرى ان عامل البيئة والمحيط والمجتمع الذى ينشأ فيه المرء . ويترعرع بين ظهراني اهله ـ هو وحده الذى له الحكم المطلق في حياة الانسان ،وتصرفاته . وميولـــه وهدوءه وانفعالاتـــه .

وعندما نقرأ الادلة والاراء اللتين اوردهما كل فريق من هؤلاء العلماء قاصدا ان يثبـــت بالدليل المحسوس ان حجته هي الاقوى والاصح والارجح بل والقول الفاصل ،عند ذلك نكـــون في متاهة من الحيرة غير قادرين من ترجيح رأى هذا العالم على رأى العالم الثاني المخالف له .

الحكمـــة ضالـــة المؤمـــن

واذا كان المثل العربي يقول : الحكمة ضالة المؤمن : فاننا حينما نعود الـــى الحكمة التي اوردها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ فاننا نميـــل الى جانـــب

من يرى البيئة أهم تأثيرا من الوراثة ـ يقول الخليفة عمر بهذا الصدد :

" الناس بزمانهم أشبه بهم من آبائهم "

هذه العبارة الوجيزة بلفظها جديرة ان تجعل علماء الاجتماع يؤلفون عنها اكثر من مجلد يبحثون من خلال معانيها تأثير البيئة والمحيط ، والمجتمع بصورة تعلو على تأثير الوراثة .

وهناك دليلان يعتبران امتدادا للفائدة التي قالها عمر ـ الدليل الاول والقريب العهد هو ما يحدثنا به الرواة الثقات عن حوار جرى بين الامير سالم الحمود الرشيد ـ وبين شخص من رفاقه ، فبينما سالم يرى ان تأثير البيئة أهم من تأثير الوراثة ـ بينما يرى الثاني عكس ذلك ، فما كان من سالم الا ان جاء بحجة ارغمت من يخالفه الرأى الى ان استلم له ويؤيده في رأيه ـ عندما قال : لو اخذنا احد ابناء امرنا عبد العزيز بن رشيد ـ (الشجاع المشهور) ووضعناه مذ كان طفلا في منزل القصاب فلان ، ومن ثم جئنا بطفل القصاب ووضعناه في قصر الامير عبد العزيز ـ ونشأ الطفل الاول لا يعرف له والدا الا هذا القصاب ثم نشأ ابن القصاب لا يعرف له ابا غير الامير ـ فهل يمكن ان يكون ابن الامير الذى نشأ في منزل القصاب فارسا كوالده وطامحا الى المجد ام سيكون قصابا مستهينا حرفة رب الاسرة الذى عاش في كنفه مقلدا له ؟ . . . وهل يمكن لابن القصاب الذى نشأ في قصر الامارة الا ان يعتبر نفسه اميرا فارسا طامحا بان يخلف الامير ويقلده بكل سلوكه وسيرته ؟ . . .

هذا الدليل الذى رويناه عن الشيوخ الثقاة الذين حضروا ذلك الحوار بين سالم بن رشيد وبين احد رجاله ـ اما الدليل الثاني فهو المشهور والمعروف في كتب الادب العربي التي حدثتنا عن قصيدة الشاعر المشهور علي بن الجهم التي انشدها بالخليفة المتوكل

. . / . .

عندما كان ابن الجهم بدويا عاشا حياته كلها في مجتمع بدوى - فذهب يمتدح المتوكـــل في قصيدة جاء منها قولـــه .

أنت كالكلب في حفظك الود وكالتيس في قراع الخطـوب

وعندما سخر من قصيدته الساخرون - قال احد جلساء المتوكل - لا لوم على هـــذا الشاعر لان بيئته فرضت عليه ان ينشد هذه الابيات ولو عاش في بيئة غير هذه البيئة لجـاء بمعان والفاظ جيدة رائعة - وعند ذلك جاء به الخليفة المتوكل من اهله بالبادية ، ووضعه في قصر الخلافة ، وما ان تأقلم في ذلك المجتمع الحضارى ، وسط قصر الخليفة العباسي سليل هارون الرشيد - حتى نظم قصيدته التي تعتبر من عيون قصائد الشعراء العرب تلـــــك التي كان مطلعها .

عيون المها بين الرصافة والجسر اخذنا بعقلي حيث ادرى ولا أدرى

الى ان قال مادحا الخليفة المتوكـل :

ولو جل عن شكر الصنيعة منعم لجل امير المؤمنين عن الشكـــــر

وهكذا نجد للبيئة وللمحيط وللحياة الاجتماعية التي نشأ العوني بين ظهراني اهلها أعظم الاثر على مجرى حياته اكثر ولا شك من تأثير الوراثة التي انحدر منها من أب مهنتـه معلم في بناء بيوت الطين - واكثر من ذلك كل من يعرف والد العوني يؤكد انه انســان ساذج ذكاؤه اقل من الوسط بل الى الغباء اقرب منه الى الفطنه والذكى .

../..

صورة موجزة عن الحياة الاجتماعية في ذلك العهد

كانت الجزيرة العربية او نجد بصورة خاصة في تلك الفترة ، تعاني البؤس والحرمان من شتى النواحي الاقتصادية والصحية والثقافية ،وتفكك الامن .

وقد كان ساكنو البلاد فقراء من جميع مقومات الحياة بشكل عام ، اللهم الا انهم اغنياء من ناحية رئيسية وهي الناحية الاخلاقية . تلك الناحية التي كان ساكنوا البلاد من ارسخ الامم تمسكا بها والفضل بتمسكهم هذا يعود الى عاملين الاول هو بعدهم عن زخارف وميوعة عالم المادة ،وتمسكهم بعاداتهم العربية الاصيلة منذ عهد الجاهلية حتى جاء الاسلام ، وايد ماكان حسنا من عادات العرب ، كالوفاء بالعهد ، واكرام الضيف واجارة المستجير وبذل المال في سبيل البر والاحسان والشجاعة الخ . . . . . كما نهى عن التطاول والتفاخر بالانساب والتناهد بالالقاب . فكل هذه العادات والشيم العريقة التي امر بها الاسلام كانت راسخة في كيان الامة العربية . فجاء الاسلام مؤيدا لهذه الخلاق ومؤكدا لها . ومما لاجدل فيه بان عهد الخلفاء الراشدين ولا سيما عهد ابي بكر وعمر يليو طال اجل هذين العهدين زمنا طويلا لكنا نجد اخلاق العرب سمت سموا ادبيا وروحيا واجتماعيا ،ابلغ مما هم عليه .

ولما كان اكثر اهل الجزيرة بالاصل بدوا ، بالاخص اهالي نجد . ولما كانت الخلافة الاسلامية لم يطل اجلها كما ذكرنا لهذا وذاك . فاننا نجد ان الاسلام لم يتمكن من نزع بعض العادات الجاهلية كالتعصب القبلي ،وكاحتقار صاحب الحرفة . وكالاعتزاز بالعرق والدم .

وهكذا كانت البلاد في ذلك العصر فقيرة من جميع النواحي الاقتصادية والصحية

والثقافية والصناعية والزراعية. ولنبدأ الآن بالناحية الاقتصادية وتكاليف المعيشة .

كانت المعيشة قاسية جدا فالقوت هو التمر اولا ثم البر ثانيا . اما الارز فهو قليل خاصة في جنوبي نجد وحتى البر غالبا لا يطبخ الا عشاء. واما القوت في الافطار وفي الغداء فهو التمر والموسرون يضعون مع التمر لبنا . ويأتي في بعض الاحيان ازمات ربما لا يتيسر للبعض حتى التمر وتبلغ المجاعة في حالة كهذه حدا يجعل البعض يأكل العشب. بل ربما تبلغ قسوة المجاعة في البعض الآخرين مما يجعلهم يحفرون بيوت النمل ليستحصلوا على حبيبات الشعير التي يدخرها النمل في ايام حصد الزرع كخزين يقتاته في وقت الشتاء .

اما من ناحية لانتاج الزراعي فانه اشبه مايكون بالمعدوم. حيث لا آلات زراعية ولا انهار ولا سدود وكل مافي الامر ان الماء يخرج من قعر الارض على " السواني " اى الجمال التي تخرج هذا الماء من الابار التي يبلغ عمقها مقدار ثلاثة عشر باعا واجرة العامل رخيصة للغاية .

واذا شئنا ان نتحدث عن الصناعة فلا نجد ما نستشهد به ، لان صاحب الحرفة كالنجار والحداد وما اشبه ذلك محتقر جدا . ماعدا حرفة البناء فانها لا مانع من ان يحترفها رجال من الطبقة الاولى .

اما الحرف الباقية ،فلا يحترفها الا رجال الطبقة الثانية والثالثة . وحتى الراقون من هاتين الطبقتين يترفعون عن امتهان بعض الحرف كالحجامة والقصابة وما الى ذلك .

ومن خصوص العناية الصحية فحدث عن عدم وجودها بلا حرج . فالملاريا وذات الـ والتهفوئيد كل هذه الاوبئة تفتك بالافراد والاسر فتكا ذريعا .

اى سيخ من حديد يكوى به هذا الوبيض ، وقل ان تجد فردا سالما جسده من اثر هـــذه الاسياخ النارية. اما الجدرى الذى يعبث بالاجساد ويشوه الخلقة ويعمي الابصـــــار ويزهق الانفس . فهذا ضرارة في جنوبي نجد اكثر منه في شمالها ـ لان اهالي الشمـال كانوا يكافحونه بفتاح الجدرى ،الشيء الذى لا يستعمل آنذاك في الجنوب . وعلى وجـــه العموم فقد كانت وفيات الاطفال بشكل خاص وعلى اقل تقدير بالمائة ستين . وهكذا كانـــت البلاد من الناحية الصحية لا اطباء ولا مستشفيات ولا علاجات مجدية .

هذا واني لا اعتقد ان اجد شيئا سارا حينما اتحدث عن مجتمع شاعرنا من الناحيـة الثقافية طبعا لم يوجد اى شيء اسمه مدرسة علمية من نوع مدارس عصرنا الحديث . بـــل ولا ماهو قريب من ذلك . وكل مافي الامر هو ان يتعلم الطفل قراءة القرآن فقط . فاذا اتم قراءة المصحف الشريف وختمه على شيخ من المختصين عند ذلك يكون الطالب انهى دراسته العالية ، سيما اذا اعاد قراءة المصحف مرة اخرى او مرتين . ومن يتخصص فيمابعد فانمـا يكون تخصصه بالفقه على مذهب احمد بن حنبل . اما القارئون للنحو فهم قليلون جدا . واما الصرف والبلاغة والبيان فلايوجد قارىء لها ، وكذلك علوم الرياضيات لا اثر لها ولا عين .

+++++++

وبعد فاننا اذا شئنا ان نعرف عصر العوني من الناحية الاجتماعية . فاننا لن نجـــد من يعبر لنا تعبيرا جليا واضحا كتعبير الشعراء الشعبيين بذلك العهد .

كقول : شاعر " بريده " الحربي المكنى بالصغير :

ياشاربه بحلقـه وجه الذليـل يا الله العنه وبن ماء

١- المحلقة عملة تساوى الطليم المصرى او القرش السورى او الهللة السعودية .

الذليل هو الجبان فيقول الشاعر : اني اجلب شرف الجبان ووجاهته " بمحلقة " فهل من مشترى ؟ وفي الشطر الاخير يقول : الا لعنة الله عليه اى الجبان فعلى هم يريد الحيـاة ؟

وخذ قول الشاعر الثانـــي :

يالعنهو مرة الذليل وشوله تكحل عينها لعاد مايروى السنين لوحسايف زينها

١- يقول : اللهم العن امرأة الجبان ،فلم ذا تكحل عينها تجملا له . وفي الشطر الثاني يقول : طالما انه لايسقي سيفه دما من دماء الاعداء فياللاسف على تجملها لهـــذا البعل الجبان الذل .

والثالث يقـــول :

يالبيض ياللـي تعشقنـــي العافـن قولـن مانبيـــه

خوذن صبي ما يذلـــي والموت مايطـرى عليـــه

الشـــرح :

ايتها الفتيات الناصعات البياض اللواتي تهفو اليكن نفوس الشباب عشقا وغراما ،اياكن ان تقبلن الجبان لكن بعلا بل ارفضن خطبته اذا جاء اليكن خاطبا "لعفن" هـــو " الذل" . ومهما شئنا ان نختصر البحث ونقلل الحديث عن عصر الشاعر من الناحية الاجتماعية فانه لايسعنا الا ان نقول : انه عصر ترتكز اسس الهيئة به ومجد الجماعات والافراد على ثلاثة عناصر وهذه العناصر قد لانجد للمادة بينهن منزلة بل كلها عناصر معنوية ،ومن المستحيل لاى فرد من افراد ذلك المجتمع ان ينال مكانة

نصيبا وافرا من الاتصاف بهذه الامور المعنوية التي يتلخص مجموعها بثلاث نقط رئيسيـــــة، الاولى اصالة الرأى . فكلما كان المرء ذا رأى حصيف بتدبيره وادبه وسلوكه ،كانت منزلتـــه بين مجتمعه محترمة مرموقة ثانيا : ان يكون ذا خلق كريم وسخاء منسجم مع اخلاقه كمـــا شخص ذلك ابو الطيب المتنبي بقوله :

وللنفس اخلاق تدل على الفتي اكان سخاء ما اتى ام تساخيـا

اما السخا الذى يكون في واد واخلاق صاحبه في واد من افساد واضرار ،فهذا سخـاء منبوذ بعرف المجتمع العربي .

ثالثا : الشجاعـــة :

ولما كان الشعراء الشعبيون هم اللسان الناطق لذلك المجتمع فاننا نجد الكثير منهم شخص لنا هذه المعاني الثلاثة تشخيصا بارزا كما جاء بقول حميدان الشويعر :

ابي اتمنى مايموت ثلاثة وباقي الجماعة موتهم حق تسرى

الكريم بماله والشجاع بفعله ومن هو بفك مشكل بين الورى

الشـــرح :

ان منتهى امنيتي هو الا يحيا من البشر الا واحدا من ثلاثة وماعدا ذلك فان الموت بهم اولـــى :

وهم الكريم والشجاع وذو الرأى السديد الذى بفضـــل ما اوتي من دهاء وحنكة يستطيع ان يسعى بالخير والاصلاح بين الناس ويحل مشاكل المتخاصمين :

ثم تجد الشاعر الثاني يأتي بنفس المعنى قائلا :

ثلاث جنائز يبكي طيهـــن ويأتي الناس تخفيف ورحمـــة
صليب الرأى والرجل الكريـــم ومن تنخاه اذا جـاك زحمة

الشـــرح :

الرجال الذين يستحقون ان يحزن عليهم اذا ماتوا ويبكى على جنائزهم هم ثلاثة اصناف واولهم الرجل ذو الرأى السديد والثاني الكريم . والثالث الشجاع اخو النخوة وما سوى ذلـــك فان موتهم يكون فيه رحمة للبشر لانهم عالة على المجتمع . وموتهم تخف وطأة هذه العالة وتذهب الى غير رجعـــة .

والامير الشاعر تركي بن حميد رئيس عشيرة برتا من قبيلة عتيبه يقول :

من لا يدوس الرأى من قبل مادبس عليه داسوه العيال القـــروم
ومن لا يقدم شذرة السيف والكيـس يصبح عليه من الليالي شلـــوم

الشـــرح :

من لم يكن حاضر البديهة وشجاعا برأيه وسريع الادراك وفهم الامور الفاجئة الطارئة . فان شجعان الرأى الصناديد من اعدائه المفكرين سوف يسبقونه بوضع خطة انقلابين يقضون بها على قواه فيحطمونه حالا .

ثم ينتقل بعد ذلك فيقول : بعد الرأى السديد يجب ان يقدم السيف وبعد السيف الكيس اى بذل المـــال .

وهكذا نجد عقلية ذلك المجتمع محصورة في هذه المعاني الثلاث . اصالة الرأى والشجاعة والكرم وما يتفرع منه من استقامة وسلوك حسن ومروءة جمة .

وبقدر ماينال المرء نصيبا وافرا من هذه المعاني الثلاثة بقدر ماتكون كرامته موفورة ، ومنزلته سامية بين رجال بيئته ومجتمع ذلك العصر. ولابد بان نشير الى ان علماء الدين مقدمون وهم يعتبرون من اهل الرأى اى من رجال الطبقة الاولى واعظم رجل برز بعصر الفترة التي نشير اليها من علماء الدين الذى طبعت نفسيته بطابع تلك المواهب الجوهرية الثلاثة هو الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ الذى قد اصدر عنه ان شاء الله بحثا خاصا او مؤلفا مستقلا بعنوان : " بطل الانقلاب الفكرى " اذ انه توفر في شخصيته سمو الفكر وشجاعة العقل وسجية الكرم. كما اكد لنا الرواة ذلك. وهذه المعاني التي اشار اليها الشعراء الذين هم ترجمان ذلك العصر ، لايشترط ان تكون كلها متوفرة بالمرء . وانما المطلوب الا يكون الفرد متجردا تجردا كاملا من جميع هذه المعاني ، فان تجرد احد من هذه المعاني فان المجتمع آنذاك لايعيره من معاني التقدير والاجلال أى شيء يذكر . اما اذا اجتمعت بشخص ما فقد حاز هذا الشخص المجد من طرفيه كما يقال .

ولعل الحوار الذى رواه لنا الثقاة بين شاب اعرفه من شباب عصرنا الحالي وبين شيخ هرم ايضا لنا به معرفة وهو شيخ اخنى عليه الدهر ، كان من بقية ماتبقى من مشيخة العصر الغابر الذى عاشه العوني . فاليك مادار بينهما من حوار بهذا الصدد .

قال الشاب : اذهب ايها الشيخ الهرم انت وعهدك البائد الى غير رجعة فانه لامقام لك بيننا ايها الشاب لأن البون بين عهدنا وعهدكم شاسع جدا .

الشيخ - تعتقد اى العهدين اجمل واطيب ؟ . . .

الشاب - لا اعتقد ان ذلك يحتاج الى سؤال وجواب ، اذ ان الفرق بين عصركم ايها الشيخ وعصرنا نحن الشباب كالفرق بين ركوب الجمل وبين ركوب الطائرة. وذلك من الناحية المادية ، اما من الناحية المعنوية فحدث ولا حرج . ثم ختم حديثه الشاب قائلا : الا تشاركني الاعتقاد بهم . . . ؟

. . / . .

الشيخ ـ اود بان اجيبك على كل جملة من حديثك هذا اما قولك ان الفرق بين عهدنا نحن الشيوخ وبين عهدكم ايها الشباب كالفرق بين ركوب الطائرة وبين ركوب الجمل . فهذا شيء لا اريد ان اطيل النقاش به خشية بان نبعد عن صميم البحث ولكني اجيبك على قولك .

واما من الناحية المعنوية فحدث ولا حرج ، لا لا يابني ،فقد نسلم جدلا بان عصركم خير من عصرنا من الناحية المادية ،ولكننا لا يمكن ان نعترف بان عصركم خير من عصرنا من الناحية المعنوية .

الشاب ـ ولماذا ،لا تعترف بالواقع ؟

الشيخ ـ الواقع هو ان زماننا كان زمانا معنويا محضا لا يحترم به المرء ولا ينظر له بعين الاعتبار ولا يمكن ان يقال له انعم به من رجل مالم يكن قد ادرك ثلاث خصال او اثنتين او على الاقل واحدة من هذه الثلاث اللواتي تتلخص بما هو آت اولا الشجاعة في الرأى الصائب السديد ، ثانيا شجاعة القلب في الحروب ،ثالثا المروءة الجمة . وواصل الشيخ الى ان قال : اما انتم جيل العصر الراهن ،فكم نرى بين ظهرانيكم ، من يحتل المناصب الكبيرة والمنازل السامية وهو مجرد من جميع هذه المعاني . بل ما اسهل كلمة انعم به من رجل عندكم وما ايسرها . تلك الكلمة التي تستعر كوسام عندنا لا يتوشح بها الا رجل اتصف بواحدة من الثلاث الخصال المذكورة . بينما نجد المرء في عصركم قد يدرك كلمة انعم به من رجل وهو ساقط الخلق معدوم المروءة ،لماذا لانه نال منزلة بشتى الوسائل الملتوية . اولانه احرز وظيفة او جاها بشتى وسائل التزلف والنفاق . وقد يبلغ اسمى منزلة من المنازل المرموقة لا بسبب ما اسداه لامته ووطنه من خدمات ملموسة ولكن بسبب ماتقرب به عند ذى سلطان من وشاية باعراض المواطنين الاباة الاحرار (١) .

---

(١) جواب الشيخ لهذا الشاب ذكرني بالجملة التي قالها الهر هتلر في كفاحه ض
ما آلمني في صباى مثل مجيء الى العالم في زمن لا يقيم هياكل لـ

من هذا الحوار نستطيع بان نعرف به ذلك العصر بانه عصر لا يعيش المرء به الا بمقدار ما يتمتع به من معاني الفضيلة والكمال .

الأمـــــن .

نود بان نختم هذا الفصل بالحديث عن وضع البلاد من ناحية الامن .

كان الامن مختلا للغاية ، خاصة في الصحراء ، فان المرء لا يستطيع ان يسافر مثلا من جنوب البلاد الى شمالها وبالعكس ، الا بحراسة افراد يضمنون سلامته . وهؤلاء الافراد من البدو . شرب ان يرافق هذا المسافر من كل قبيلة يمر بارضها فرد من افراد هذه القبيلة فان ماله ودمه يكونان مباحان . وهذا المرافق او الحارس يسمى " رفيق " ولكن هذا الرفيق يحرسه من عشيرته فقط حراسة ، لا يمكن ان يعتدى عليه احد من قبيلة هذا المرافق قطعيا ، فان شاء احد من رجال قبيلة المرافق ان يستهتر بالتقاليد ، وذهب يحاول ان يسلب شيئا من مال او متاع هذا المسافر الذى هو بعهد المرافق فعلى المرافق آنذاك ان يستعمل جميع وسائل الدفاع عن صاحبه ، حتى ولو ادى الامر الى قتل هذا المعتدى (١) ولو كان المعتدى اخا لهذا المرافق فانه يقتله ولا يعاب بقتله مايعاب بعدم حراسته وحفظه للمسافر الذى هو بعهدته .

هذه نماذج من الحياة الاجتماعية في جزيرتنا بعهد العوني .

وما لا شك فيه بان مجتمعا كهذا المجتمع خليق به ان يجعل شاعرا كالعوني متأثـــرا به تأثيرا بالغا وذلك لان الشاعر غالبا مايكون بطبيعته رقيق الاحساس ، سريع التأثر .

---

(١) راجع صفحة ٩٢ ـ الجزء الاول " من شيم العرب " للمؤلف .

الفصل الثاني

نسب العوني .. ولادته ـ نشأته وطفولته

من هو العوني ..؟

هو محمد بن عبد الله العوني ، وقد أجابني شيخ مسنّ اجتمعت به منذ مدة تزيد عن خمسة وعشرين عاما ـ وهو من قرية العوني " الربيعية " وينظم الشعر ، اجابني على سؤال استفسرت منه عن معنى كلمة العوني ، ومن اصل اشتقاقها . فقال الراوى : انها نسبة الى الفخذ الذى من قبيلة عتيبة الذين يقال لهم " العونة " كيف كانت هذه النسبة وما هو أصلها ؟ هذا شيء أجهله . فهل كانت نسبة ولاء او نسبة مجاورة او نسبة عرق من حيث الاصل ؟ ومن ثم طرأ على أجداد الشاعر حادث جعله يسقط نسبه عن القبيلة ـ ويصبح خضيريا كما يقال : لأنّ المعروف عن العوني أنه من اصل خضيرى ـ بل ينسب عنه مثلا يردده دائما على ماروّاه عنه الرواة بصورة متواترة ، هو الآتي : (نحن بني خضير أشبه ماتكون بالصفرتين صفرة المساء وصفرة الصباح وهي صفرة ليست بالليل الداجس المظلم ولا بالنهار الناصع البياض) يقصد انه لم يكن ينتسب الى قبيلة معروفة ، ولا هو الرقيق المملوك .

وهناك من يقول ان العوني ينتسب الى جماعة مجاورة لقبيلة مطير يقال لهم العونة او القونيين ، المقصود اننا لم نقف على النسب الذى ينتمي اليه الشاعر بصورة قاطعة ـ اما انه خضيرى فهذا لايحتاج الى دليل ـ ويكنى " أبو عبد العزيز " أما والده فهو رجل الى الغباء والسذاجة أقرب منه الى الذكاء ، ويمتهن والده حرفة بناء الطين .

تاريخ ولادة العوني :

يخطيء الصواب أى شخص يزعم أنه يستطيع أن يحدد اليوم او الشهر الذى ولد به اى مولد ولد في الفترة التي ولد فيها العوني ـ فان يكن شيء من ذلك فانما هو مجرد ظن وتخمين وقياس

وتلد بر يربط به بين وقوع الحوادث أو المعارك - فيقال مثلا فلان ولد بسنة الميلاد ١٣٠٨ ، أو بسنة الصريف (الطرفية) ١٣١٨ بنسبة الى الوقائع والسنين التي وقعت فيها الحروب - او يقال ولد بالسنة التي مات فيها الامير فلان - او حكم فيها الامير فلان الخ .. اما انه يوجد سجل احصاء للنفوس في تلك الفترة وما بعدها بحوالي سبعين سنة - فهذا شيء معدوم - بل ولا يوجد سجل احصاء وقيد نفوس في المملكة العربية السعودية - الا من خمسة عشر سنة ، وما دون ولذلك ليس غريبا أن لا نعرف العام الذي ولد فيه العوني ، غير أننا نستطيع أن نعرف ما بلغه من العمر على وجه التقدير الذي نستنتجه من بيت جاء ضمن قصيدة انشدها بأمير حائل محمد بن رشيد سوف نورد ها عند ما نصل الى مكانها المناسب . والبيت الذي في تلك القصيدة جاء على الوجه التالي :

هذا وأنا أبو ثمان وسبع مع عشر ما حيط بامر هذا به خاطري بالي

من هذا البيت يفهم أنه قال هذه القصيدة وعمره خمسة وعشرين سنة ، واذا كانت معركة المليدأ وقعت عام ١٣٠٨ هـ والعوني لم يقل قصيدته بمحمد بن رشيد الا بعد عدة سنوات من معركة المليدأ فقي بعض هذه السنين في بلاد بريدة ، ثم نزح عنها بعد أن نشد قصيدته بالامير عيسى بن خليفة امير البحرين تلك القصيدة العصماء التي جاء مطلعها :

دار تكور لنا عاف مشاربهـــا أقسمت باسوارهم ما نشاربهـــا

ومن مطلع قصيدته هذه يبدو لنا الامر واضحا أن العوني عزفت نفسه عن الجلوس في بلاد القصيم بصورة عامة ومن "بريدة" بتعبير خاص - أي أنه هاجر عن بلاده بعد معركة المليدأ التي نتج عنها زوال سلطة آل صهنا اولياء نعمة الشاعر ، ولكننا لا نستطيع أن نعرف مقدار المدة التي قضاها العوني في بريدة بعد معركة المليدأ - كما لا نستطيع أن نعرف المدة التي قضاها في البحرين عند آل خليفة ، ونحن اكثر عدم معرفة كذلك عن المدة التي قضاها في مكة ، عند ما نزح عن البحرين

وذهب الى الشريف عون أمير مكة وتتذاك ، كما سيأتي تفصيل ذلك في الفصل القادم .

والتقدير الذى يمكن أن نحصر به السنين التي عاشها العوني ، هو الآتي :

مادام أن معركة الملبدأ وقعت عام ١٣٠٨ والامير محمد بن رشيد توفي عام ١٣١٥ - وعلى هذا الاعتبار نقدر أن العوني جاء بقصيدته بالامير ابن رشيد في منتصف هذه الفترة اى في عام ١٣١٢ فيكون عمره في تلك السنة كما ذكر في قصيدته خمسا وعشرين سنة . وقد عاش بعد هذه القصيدة الى سنة ١٣٤٣ . فيكون بلغ من العمر حين وافته المنية ستا وخمسين سنة قد تزيد قليلا أو تنقص قليلا .

اما مسقط رأسه فهو في قرية تسمى " الربيعية " من قرى مدينة بريده القريبة لها .

نشأة العوني وطفولته :

لعدم صلتي بالشيخ الذى يعرفون عن الشاعر ما اذا كان الذكاء والنبوغ ملازمين له منذ كان طفلا ، ام انه في طفولته كان عاديا مثل الكثير من العباقرة والنوابغ الذين لم تبرز علامات النبوغ فيهم الا بعد ما يتجاوزون سن الطفولة أو بعد أن يتجاوز أحدهم سن الفتوة - بل وقد لا تبرز مواهب بعض البشر الا بعد أن يشرف على سن الكهولة ، كما قال الشاعر العربي :

وقد يخمل ذكر الفتى في شبابه وينبه من بعد النهى ويسود

لذلك لا أستطيع أن أثبت أو انفي ان شاعرنا كان النبوغ ملازما له منذ بداية طفولته ، اللهم الا أن القصيدة التي أنشدها وهو بحضانة خاله بالكويت تعطينا دليلا واضح المعالم بأن النبوغ مطبوع في نفسية هذا الشاعر منذ كان طفلا . وقصيدته التي انشدها وهو في الكويت تحمل معانيها لا يستطيع أن يغوص عليها الطفل العادى ، وهو تعبير ابلغ التعبير عن نبوغ العوني ، ولكن الشيء الذى أجهله هو هل كان العوني في آخر مرحلة الطفولة - عندما أنشد تلك القصيدة ام انه في بدايتها ؟ فان كان انشد قصيدته وهو في اول مراحل الطفولة اى بعد سن

التميز عاشرة فهذا معناه أن النبوغ ملازم له منذ طفولته بل معناه أنه منذ ولدته امه وهو نابغة اما اذا كان قال قصيدته تلك بعد بلوغه سن الرشد عاشرة اى بعد أن تجاوز سن الطفولة وبعد دخوله سن الفتوة وهذا ما أميل اليه — فان النبوغ في شخصيته وفي كيانه موجود منذ الاساس ، ولكنه لم يكن من نوع العباقرة الافذاذ الذين يكون نبوغهم سابقا لاوانه وقالما ان الطفل الذى يكون نبوغهم من هذا النوع فانه لا يعيش طويلا لانه سيكون استكمل مواهبه قبل الاوان — كما وقع ذلك مع الصبي الذى أفحم الشاعر المعرى عندما قال ابو العلاء :

واني وان كنت الاخير زمانه

فقال الصبي ان الاوائل جاءوا بتسع وعشرين حرفا من حروف الهجاء فأنت بحسرف واحد زائد عن هذا العدد . فقال المعرى ان هذا الصبي لن يعيش طويلا لانه استعمل ذكاءه وفعلا مات الصبي بعد ذلك قبل ان يبلغ سن الرشد .

رحلة العوني عن بلاده وعودته اليها :

تفيد الروايات المتواترة لدينا ان العوني عاش طفلا يتيما بحضانة خاله — الصبي طي ابن دعج ، والقصيدة الشعبية التي أنشدها العوني ابان بقائه بحضانة خاله بالكويت تثبت لنا صحة الرواية القائلة بأن للعوني خالا يدعى ابن دعج كان يمتهن حرفة التجارة في الكويت . وان هذا الخال دفعته عاطفة الرحم على ابن اخته فانتشله من قريته وجاء به الى الكويت ليعلمه القراءة والكتابة . فظل العوني بحضانة خاله مدة يتعلم بها . ولكنه لم يرق له البقاء في الكويت فذهب يلتمس الفرار من هذا البلد فوجد جماعة قاصدين بلاده القصيم فجاء الى هؤلاء الجماعة وهم على استعداد للسفر فقال :

الا تحتاجون الى صبي يخدمكم في طريقكم هذا ، ويرعى رواحلكم ، ويجيد حفظها اذا لزمتم بلا مقابل بل شريطة ان توصلوني والدي في القصيم ؟ أجابه رؤساء الركب بقبول طلبه بكل

بكل ترحيب .

ذهب العوني ليأتي ببقية المسته من بيت خاله ليرافق الركب. ولكنه وجد النوم تهدل رأيهم ذلك انه كان يسمع حديث شخص يعرف خاله ابن دعيج ،فنبه المسافرين بان هذا العبي يكون ابن اخت لفلان التاجر وباستطاعة خاله ان يرحله الى القصيم ، فيما لو كان خاله راضيا عن سفره بصفته ولوليا لامره ووكيلا شرعيا عليه .

وعلى اثر هذه الاخبارية عاد العوني فاشلا بخطته فجادت قريحته بقصيدة تبلغ سبعا وثلاثين بيتا نختار منها ماكان مناسبا وموئيدا لصحة الرواية ،اذ انه لم يكن لدينا مرجع نستعين به بحالة كهذه الحالة ، اصح واوثق من قصيدة الشاعر التي جاءت موئيدة للرواية ،حيث يصف بها الشاعر غربته عن وطنه وعدم الصديق الذي يناديه ويبث اليه شكواه كما يصف دمعه الفائض المنبعث بدافع الوله والوجد على بلاده القصيم . ثم يسترسل بالقصيدة ويلوم خاله الذي رضي بسكنى الكويت ومنعه عن السفر الى وطنه فيقول : لئن كنت ايها الخال معجبا بسكنك بلاد الكويت التي هي على ساحل البحر الطالح . فانه لم يعجبني هذا البلد ، بل الذي يسرني ويعجبني هو فراقها والرحيل عنها . لو صح لي ذلك برفق اولئك الركب المسافر الى القصيم ومن ثم يستغيث بالله ويسأله بان ينزل الغيث على بلاد القصيم وحدودها وقراها . وهو يستثني مدينة بريدة بالدعاء بصورة خاصة وسنبتدئ اولا بالابيات التي ابتهل بها الى الله كما جاء بقوله ،

العبد خاله بالقدر وزن مثقال	١	ما قدر المعبود للعبد ما حيل
اسأل جوده عالم السر والحال	٢	غفار زلاتي معين الرامل
يفرج هموم بالحشا تهجل هجال	٣	يجعل لنا حظ على الكنس الحيل
هذا وانا من هجر الايام مهتال	٤	عالي نديم يفهم العلم ويحيل
وانا على جال البحر قلل بحيال	٥	متنثر دمعي سوات الهطاميل

ثم ينتقل الشاعر فيخاطب خاله قائـــلا :

ياخال هو معجبك سمحات الادلال	٦	وشوفك يغال الهند مع طلة التميل
انكانه معجبك منساه باحـــال	٧	انا عجب صنعي هل الشعر الحميل
عسى عسى يحملتم بطرب المـــال	٨	متراكم مزنه بركنه فنادي ـــل
محن عون للرعـد فيه زلـــزال	٩	متربع بوعسر يسقيه مكانيـــل
يسقي من الراعم الى السيح ويثال	١٠	ويمطر على قصر الحويطي تنافيـــل
يسقي القصيم بمزنة عقب الاحـــال	١١	ويخص دار ضدها يسهر الليـــل
دار الهنا طعمة كل مشـــوال	١٢	دار الثنا دار السخا والمشاكيـــل
وجدي عليها والتوجد ردى الحـــال	١٣	وجد الخليل النوفة ابنه اسماعيـــل

الشـــرح :

١- الانسان لايملك من قضاء الله وقدره شيئا ، فالذي يقدره الباري على المرء لا فرار منه .

٢- وحيث ان العبد لايملك من امره شيئا . لذلك فاني اسأله لانه يعلم الغيب الخفية والمبينة . وارجو بان يغفر خطيئاتي فهو مغيث الارامل والبائسين .

٣- كما اسأله تعالى بان يفرج عني ما انا به من ضيق وكربه . وان يسهل لي السبيل الذي اتمكن به من ان اغادر هذا البلد على النجائب (الكنس الحمل) اي السفينات اللواتي لم ينجبن مولودا .

٤- انني من شدة الغربة والوحشة تجدني كثير الدهشة والذهول ولم اجد الصديق الذي يواسيني همومي ولا من اتخيله الفهم والنجابة .

٥- وانك لتجدني في هذا البلد الذي على ساحل البحر ، يقصد الكويت ، كاني بحبال وان والدمع مبتلتي يسكب باستمرار كما يسكب ماء المطر المنهمر .

٦- ينادى خاله قائلا : اعجبك ياخال منظر السفن البحرية ومنظر البغال التي تأتي من الهند مع التلفونات . وفي البيت الذى يلي هذا البيت يقول :

٧- فان تكن معجبا بمبنيان مدينة الكويت ياخالي ،فاني معجب باهل الصبر الجميل اى اصحاب النجائب الضامرات اللواتي سبق ان البحت البهم وهو يشير بذلك الى اصحابه القوم الذين تعاقد هو واياهم على اساس ان يرعى رواحلهم مقابل ان يوصلوه القصيم .

٨- ابتدأ من هذا البيت والذى يليه والبيت العاشر بكل هذه البيوت الثلاثة راح يسأل الله على ان ينزل الغيث على بلدان القصيم .

١١- وفي هذا البيت يسأل الله ان يسوق المطر الى القصيم . ولكنه في الشطر الثاني يشير بصورة خاصة على بلدة بريدة كما سيوضح ذلك .

١٢- يقصد بقوله : " دار المهنا " يقصد بريده اى بلدة آل مهنا وهم العائلة التي كانوا افرادها امراء لهذه البلدة بذلك العهد .

وفي شطر البيت يثني على هذه البلد ثناء المواطن المخلص لوطنه .

١٣- يقول ما اعظم شوقي ولهفي على بلادى كعظم شوق خليل الله - النبي ابراهيم على ابنه اسماعيل

٦- زوجاته واولاده واخوته :

اول زواجه كان في بلاده بريده - واحدى زوجاته لا زالت على قيد الحياة على حد ما رواه لنا الاخ الاستاذ فهد السعيد الذى يزعم ان زوجة العواني هذه تكون خالته - وتقطن حاليا الرياض كما تزوج في مدينة الزبير حينما كان مقيما هناك بصورة تشبه ما يسمى باللاجئ السياسي - عند الشيخ عجمي السعدون كما سيأتي بيان ذلك . وعندما جاء الى حائل . تزوج فتاة من اجمل الفتيات . ومن عائلة محترمه - وتدعى هذه الفتاة فهده ابنة عثمان بن لعلى . وتكون ابنة عم رشيد باشا بن لعلى وكيل الامير ابن رشيد بالاستانة ،ولم يثبت لدينا ان العوني انجب ذرية من الذكور .

اما زوجته التي في الزبير فانها انجبت منه انثى - وطبق ماروى لي الشيخ محمد الحمد الشبيلي انها كانت على قيد الحياة منذ مدة تقرب من عشرين سنة عندما كان الشبيلي قنصلا في البصره - كما ان الاخ حمد المنهل المولود في بريده يؤكد انه يعرف للعوني بنتا في بريده وذلك منذ مدة تزيد عن ثلاثين سنه .

اما اخوته فانني لا اعلم فيما اذا كان له اخوة غير اخيه حمد الذى يقال عنه بانه - فارس مغوار وهو الذى يشير اليه في بيت من قصيدته اللاميه فيقول :

انا ان دخلت البيت قزان مقصوم قصيدى اللي لا ثقل الحمل شيّال

وقد كان اخوه مجروحا باحد المعارك جرحا شديدا فيشير اليه بذلك ويمتدح اخاه بمؤازرته له وحسن اخوته ويقول كثير من الرواة انه قد جرى بين العوني وبين اخيه مفاخرة قال :

الاخ : انت يا اخي لا شك انه شاعر مطبوع وسياسي محنك وذو رأى صائب ولكن لا تنسى انسي الفرس منك خاصة عندما يحمى الوطيس وتشتد الهيجاء فان لي صولات وجولات على صهوات الخيل بشكل لا تستطيع ان تباريني به الا تعترف لي يا اخ بذلك .

العوني : ربما اعترف لك ،بانك فارس شجاع شأنك شأن مئات او الوف شجعان القلوب الذيـــن يقاتلون بقلوبهم فقط ،ولنسلم جدلا انك يا اخ بلا شك من هذا النوع. فمعناه انك اذا ظفرت بنفسك وظفرت باعدائك فانه لن يكن انتصارك الا بقتلك لفارس او فارسين .

ولذلك يا أخ يكون الهون شاسعا مابين شجاعتك القبلية المحدودة بانتصارك على فرد او فردين وبين شجاعتي الفكرية التي اذا تم النصر لي بها يكون بانتصار فيالق من الجيوش التـــي اسيرها بآرائي وتوجيهاتي على فيالق اخرى من جيوش اعدائي .

٦- رفاقه ومرافقوه :

لا اعلم شيئا عن معرفة اصدقائه في اول شبابه ولا حينما كان في بلاده القصيم والكويت ،

ولا حيطط كان ايضا عند عجمي السعدون . ولكني اجده دائما يعتز بصداقة رفيق له يدعى "حمود" ويكنيه تارة بابي هزاع ،فكثيرا ما اجد اسم حمود وابي هزاع في قصائده ،كقوله في قصيدته المسماة "بوليب" :

مني الى من لي رفيق يحنـــــن اذا جان من زلات الايام زلـــــة
زهني "حمود" اللي عن اللوم حامين ظل يلجي الى انتحن الا ظلـــــة

وقوله في قصيدة ثانيـــة :

الى زهني وشكاى ان نصيتـــه ابو هزاع زهن اللي يخافـــــي
تقولون له بوسط الصدر ضيقـه اكتها بالحشا ماله سلافـــــي
ادح بدارهم ياحمود كأنـــي خلوح وابنهـا خلـي خلافـــي

تجد الشاعر في البيتين الاولين وفي هذه البيوت الثلاثة الاخيرة تجده لا يختص احدا بشكواه التي يبثها الا لحمود وحمود ما استطعت ان اصل الى معرفته فمن قائل انه حمود بن سعيد اما انه من اهالي بريده فهو بلا شك . والذي اظنه ان حمودا هذا هو من اعز اصدقائه الا وهو ان انه يثني عليه بوفائه له كما يثني على حمود ايضا بانه من الرجال الذين يعتمد عليهم بالشد ومن الذين يقاسمونه همومه ويفضي اليه بشكواه . وعلى وجه العموم نجد العوني لا يصـــار احدا الا عن اعجاب وتقدير .

وعندما كان في العراق فانه صديقه الحميم الشيخ عجمي السعدون وله فيه قصائد كثيـ كلها تدلنا على تقديره لعجمي ووفائه واعجابه وولائه له . وعندما جاء الى "حائل" كان صديقه في بداية الامر زامل ابن سالم السمهان وهي الامير سعود الرشيد ، ولكننا لم نجد ان العو رثى زاملا بعد مصرعه كرثائه لعبيد الله الطلال الرشيد الذي رثاه بعد مصرعه رثاء حارا .

هذا وقد تجاوزنا ذكر من كان احب الناس على قلب العوني وهو عبد العزيز العبد الله بن معنا . ويجب ان نضع اسمه في مقدمة احبابه من اهله ،لان العوني يعتبر آل معنا له اهلا وعلى هذا الاساس يكون عبد العزيز من اخوانه لا من خلانه ،فعلاقة العوني بعبد العزيز تختلف صلته وصداقته بسائر الناس كزامل وعبد الله الطلال بن رشيد .

ومن جملة اصدقائه حينما كان بحائل شخص يدعى حمود السليمان العسعم ،قتل في حصار ابن سعود لحائل والشيخ عبد العزيز بن زيد السفير بدمشق سابقا .

اما مرافقوه القاطنان بخدمته حينما كان عند عجمي السعدون فهما اثنان من قبيلة مطير من نجد الجبلان ،احداهما يدعى "رقدان" والثاني يسمى "قويعان" ولقد ظلا يرافقانه وصحبته وخدمته الى ان ،استوطن بحائل وظل كلاهما مدة عنده في حائل . ولعل القارئ يعجب اذا قلت ان هذين اللذين يرافقان العوني ويخدمانه هما عريقي النسب بعروبتهما . واعجب من ذلك ان الاول منهما متزوج شقيقة الشيخ عجمي السعدون ،معناه انهما من الطبقة الاولى بلاشك . اذن فعلينا الا نستغرب من القارئ الغريب عن معرفة تقاليدنا فيما اذا تراءت علينا منه علامات الاستفهام سائلا ومستغربا من ان يكونا هذان العربيان اللذان من الطبقة الاولى خادمين للعوني الذي هو من الطبقة الثانية

فالجواب هو كما قد ذكرنا سابقا بان من يبرز بمواهبه فان المجتمع هناك لا يبخس هذا البارز درهما من حقه بل انه يتشبع بجميع الحزات والسلطات التي يتمتع بها صاحب المواهب البارزة من رجال الطبقة الاولى .

وعندما استقرا بحائل ذهب الى قبيلتهما "قويعان ورقدان" فحل محلهما اثنان آخران من بلد فحائل يدعى الاول عبد الله ابن شديد والثاني حمد بن شديد واعتقد انهما شقيقان ولكن الاول كان ملازما للعوني اكثر من الثاني .

الفصل الثالث

نشأة العوني وصفته واخلاقه

سبق ان ذكرت في الفصل الاول صورة عن الحياة الاجتماعية في العصر الذى خلق به العوني . ونشأ وترعرع بين ظهرانيي اهله . ولذلك لارى كما يدعو الى تكرار ما سلف ذكره .

فالعوني نشأ في ذلك المجتمع الذى كما ذكرت لا قيمة للمرء بين رجاله مالم يكن حائزا على واحدة من المعاني الاتية :

١- السخاء

٢- الذكاء والرأى السديد

٣- الفرسان

٤- الشجاعة بمختلف اسمائها وشتى معانيها .

وهذه السجية الاخيرة اذا توفرت في رجل ذلك العصر فانه سوف يحتل اعلى منزلة بين قومه مهما هبط نسبه او انخفض حسبه ، ومن المعلوم ان صاحب هذا الخلق موفور الكرامة لا في ذلك العهد القائم على احترام المعنويات والمثل اكثر من احترام اهله للماديات - بل نجد المرء الذى يتحلى في هذه الصفة موضع احترام في كل زمان ومكان .

واذا كانت الشجاعة بمفهومها الشامل لم تكن محصورة على شجاعة الحروب التي تسمى شجاعة القلب او شجاعة الساعد - بل أهم من هذه وتلك شجاعة الرأى الصائب وشجاعة العقل الموهوب الراجح - وشجاعة الثبات والجلد والصبر اذا اشتدت الاتاى واشتدت المحن ، فان لصاحب الترجمة حظا وافرا من الشجاعة التي من هذا الشكل .

اما حظه في البيان فهذا لا يحتاج الى دليل ـ فيكفي دليلا واضح المعالم انه اذا انشد قصيدة حماسية تحط طابع التهييج والتحريض ضد حاكم من حكام وقته نجده بقصيدته هذه يؤلب الرأى العام على ذلك الحاكم ويشحذ هم خصومة عليه . ويتلاعب بعواطف الجماهير ويثير النعرة فيهم بصورة لا يستطيع ابلغ الخطباء ولا افحل الشعراء ان يفعل اى منهما ما يفعله العوني .

وما قصيدته المسماة بـ (الخلوج) غريبة على اى مواطن له ادنى الم في معرفة تاريخ جزيرتنا العربية بصورة عامة . وتاريخ نجد بنوع خاص .

اما تصيده بالسخاء فان اوضح دليل يعبر لنا عن سخاء تلك الهبة العالية التي وهبها له عيسى بن خليفة امير البحرين ـ المتكونه من العملة الفضية (الربيات) التي ما استطاع العوني حملها لكثرة عددها وثقلها .

هذه الهبة الدسمة منحها الشاعر الى جماعة من البناء وطنه كانوا يقيمون في البحرين ، كما سوف نوضح ذلك .

صفة العونـــي

كأني اخاله ناحل الجسم غائر العينين ـ لا تخلو عيناه من الحور القليل عارية عضامه مـــن اللحم ـ بارزة وجنتا وجهه ـ حنطي البشرة ـ مسبل الشاربين ـ معتدل في طوله ، اذا تحدث يبدو على صوته شيء من (الخنه) اى كان جزءا من نبراته تخرج من أنفه . لا يشك مـن ينظر اليه للوهلة الاولى الا ان يحكم عليه بان مظهره يعبر عن فيلسوف ـ معتدل الانف واسع الجبين ـ واسع الفم ـ وسما اكثر من المعتاد . ولعل البيتين اللذين انشدهما شاب من سكان حائل يدعى (منيرة) يهجو بهما العوني الذى تزوج الفتاة نورة الليلى التي مولع بغرامها ذلك الشاب لعلهما يعبران بعض التعبير عن ملامح وجه العوني ـ وان كان مطلع

القصيدة ركيكا بل الابيات كلها ركيكات وانما نورد ما انشده ذلك الشاب لان فيهما معان تعبر عن فلاح شاعرنا تعبيرا قريبا للواقع وان كان منشد القصيدة موتورا ويقصد ان يصور العوني فيهما في نظر زوجته الفتاة الجميلة - في تلك الابيات التي كان مطلعها يهجو دعاء على والد الفتاة الذى زوج ابنته للعوني وحرم الشاب المغرم بها - ولم يجد ما يعزى نفسه الا بقوله .

الله يسلط على عثمان ... جوز قنيرة على العوني

شواربه سمق الغربان ... والوجه يا وجه مطوني

والفم يا مشرع الذيبان ... والجسم يا ريح ضربون (١)

اخلاق العوني

اى شخص يعرف العوني عن كثب بل او عن سماع لا يسعه الا ان يقول انه جم الذكاء مرهف الحس سريع الادراك هادئ المزاج رقيق الشعور سلس المعشر - لين العريكة - يستسيغ النكتة بل ويبتكرها . واسع الخيال . حاضر البديهة قوى الفريحة قوة يكاد لا يضارعه في عصره اى شاعر شعبي - راسخ العلم بالادب الشعبي واسع المعرفة بانساب القبائل بصورة يكاد يكون دائرة معارف في سعة علمه ومعرفته في انساب وعادات واعراف جميع قبائل الجزيرة العربية . يطونا وفخوذا ورؤسا ، حدثني صديقه الحميم المرحوم الشيخ عبد العزيز بن زيد حديثا قال فيه عن العوني انه اذا تحدث عن الدوشان رؤساء قبيلة مطير او اذا تحدث عن الشعلان رؤساء

(١) الضربون - دابة من الدواب العربية رائحته كريهة ، ويضرب برائحته المثل لكرهها - فيقال : فلان رائحته كرائحة الضربون .

قبيلة الرولة او اذا تحدث عن الجربان او عن ابن حثلين او عن الهذال الخ .. جاء بحديث يـــورد به الاسباب والعوامل التي جعلت جد رئيس هذه القبيلة وسلالته من بعده ترسخ زعامة هؤلاء او اولئك في قبيلته باسلوب شيق جذاب.

واذا شرع بالحديث ومن ثم جاء من يقطع حديثه فانه يصمت ولا يعود الى مواصلة حديثه الا بشرط الا يقطع حديثه مرة ثانية اى من كان مهما علت منزلته - والرواية التي ينقلها الرواة الذين عاصروه وجالسوه وهي رواية تكاد تكون متواترة - هذه الرواية يقول ناقلوها ان العونـــي اذا طلب منه رئيس النادى ان يتحدث باى حديث من الاحاديث الاجتماعية او الادبية او التاريخية فانه لا يستجيب لطلب رئيس ذلك النادى مهما علي شانه وارتفع سلطانه الا بعد ان يوفق رئيس هذا النادى على طلب العوني الذى يتلخص بمايلي :

١- ان لا يقاطع بحديثه مادام مسترسلا به .

٢- ان لا يأمر رئيس النادى بطلب القهوة لاى قادم كان مادام انه يواصل حديثه حتـــى ينتهي منه لئلا يكون تشويش على حديثه عندما تدار كؤوس القهوة . واذا شرع العونـــي بحديثه اصغى المستمعون له فكأن على رؤوسهم الطير .

اى مجلس يكون فيه العوني لا يستطيع اى اديب او مؤرخ او شاعر ان يتحدث في ذلـــك المجلس مادام العوني موجودا فيه - بل ولا يرضى الاديب او الشاعر الذى يرى لنفسه مكانـــة في المجتمع ان يجلس في النادى الذى يكون فيه العوني .

يوجد في حائل شاعر واديب واسع الاطلاع في التاريخ وفي الادب يدعى فهد الفويه - وكان الفويه يتصدر المجالس في حائل ،وذلك قبل مجيء العوني لهذا البلد ولكن ما ان جاء العوني الى تلك البلاد حتى غاب نجم الفويه ويحدثنا الرواة الثقات ان الفويه كان متصدرا لحفل في احدى اندية امراء حائل ،ومزهوا في سرده لحادثة من الاحداث الشيقة - وقبل ان ينتهي

من آخر مراحل الحادثة - فوجئ بدخول العوني الى ذلك النادي فما كان من الشاعر الفريه الا ان ترك النادي خارجا يجر سائقه . ولما كان الحاضرون مشتاقين لسماع بقية القصة فقد صاح به صاحب النادي قائلا اجلس يا ابا محمد (كنية) الفويه - واكمل حديثك ولكن ابا محمد خرج مطلقا ساقيه للريح بدون ان ينطق بكلمة يجيب بها صاحب الطلب - فما كان من العوني الا ان تولى الاجابة وقال : دعوا الفويه يذهب في سبيله ليجد مجلس رجال لم اكن موجودا فيه - اما اذا احضرت فانه لا يستطيع ان يجلس في النادي الذي اجلس فيه وخلاصة القول هو ان العوني دائرة معارف متحركة خاصة في سعة الباع واطلاعه بتاريخ جزيرتنا العربية وانساب قبائلها وادبها القومي .

والعوني مع ذلك شديد التعصب في رأيه - شديد الثقة بنفسه - لا يعرف اليأس او القنوط الى قلبه منفذا يتسلل اليه حتى ولو كان الامل في نجاح الهدف الذي يصبو اليه مستحيلا فانه لا يؤمن بشيء اسمه المستحيل - وسوف اورد في المكان المناسب اكثر من دليل يثبت صحة قولي هذا .

لا يضع السيف من يده الا في الحالات الاستثنائية .

قطرت نفسه على مصارعة الزعماء العظام الابطال والقادة الكبار - فيما اذا كان هذا الزعيم لم يكن طوع بنانه او آله صماء يوجهه هذا الانسان كيف يشاء - بصورة يكون هذا الحاكم

---

(١) سمعت من يقول ان نصف الاحداث التاريخية ونصف القصص والقصائد ذات الصلة بالجزيرة العربية وبالادب الشعبي كما مات موت الشاعر الراوي فهد الفويه .

عندما سمعت هذه الرواية ومن ثم سمعت ان الفويه لاشيء امام العوني - حينئذ قلت اذا كم مات في صدر العوني من حوادث وقصص وعلم بالانساب - كان سبب موته الاصابة بالسل موت هذه المعاني الادبية الضاربة اطنابها وقتذاك .

../..

او ذلك الزعيم ليس له من الزعامة الا الشكل والصورة والاسم - اما الرأي والفكر والتخطيط والتنفيذ فيكون بيده - واذا لم يكن الزعيم او الحاكم الذي يأتي عندما العرني على النهج الذي يريده هذا الشاعر فانه سوف يقلب له ظهر المجن - بصورة تجده وزعماءه لم يعرض عنده قريبا يتذكرونه كما راح يعرض آل بهذا عبد الرحيم الملك عبد العزيز - او كما راح يعرض المرحوم عبد الله الطلال ضد ابن عمه المرحوم سعود ابن رشيد كما سنوضح ذلك - عندما نصل البحث الخاص في كل من هذا وذاك .

وعند العرني هذا لا يجد ذلك الحاكم مطلقا يضع الرسن فيها او يريدها يضع العنان في فيه يقوده كيف يشاء وحيثما يريد - تجده مهما اكرمه ذلك الحاكم ومهما اعزه ومهما اغدق عليه من المال - بل ومهما امده فيه من القلائد الرنانة - فان ذلك لا يجدي به طالما انه لم يحقق من وراء امنيته التي يصبو اليها الا وهي ان يكون هو الحاكم المنفذ من وراء الستار - واذا لم يحقق ذلك فانك تجده لا يريده اي معنى من المعاني التي تسمى الاعتراف بالجميل لمن ولا يقيده دون حوك المؤامرة لهذا الزعيم اي شيء اسمه حرف العراقيب - بل ولا يؤلمه ضمير من ان يزعجه على هذا الحاكم من يقتله مؤملا ان يجد في القاتل ضالته المنشودة .

هذه صورة موجزة عن اخلاق العرني - وفي الفصول القادمة شرحا وتوضيحا لذلك - وادلة مستدلها ذلك الشرح - وهذا التوضيح - من صميم حياة هذا الرجل التي اجتازها في جميع مراحل حياته - بل مسجلا لها من قصائده التي تعتبر اوثق مصدر يركن اليه في كل ما هو سيء للعرني - وما هو عليه .

الفصل الرابع

اين قضى العوني فترة فتـــوته ؟ ..

سبق ان ذكرت ان العوني قضى قسما من فترة طفولته في الكويت بحضانة خاله ـ ابن دعيج ـ ولا بد لي الآن من ان اذكر البلاد التي قضى فيها فترة فتوته .

واذا كنا لا نملك من الادلة التاريخية على معرفة الاحداث السياسية والحربية والاجتماعية دليلا اوثق واصح من القصائد الشعبية وخاصة التي انشدها العوني ، فانه من المسلم به ان يكون معرفتنا للفترة التي قضاها العوني في فتوته مأخوذه من نفس قصائده التي نعتبرها اصدق مشاهـد دلى تاريخ حياته في فترة فتوته وعلى تاريخ بل وعلى حياته بصورة عامة ، تلك الحياة المضطربة التي لا يعرف صاحبها الاستكانة ، او الاستسلام للامر الواقع فيما اذا كان ذلك الواقع لا ينسجم مع ميول نفسه الابية الكبيرة التي عبر عن امثالها ابو الطيب المتنبي بقوله :

اذا كانت النفوس كبـــارا تعبت في مرادهـــا الاجســـام

وهكذا نرى نفس شاعرنا العوني لازمها الاباء والشموخ والانفه منذ كان طفلا بحضانـــة خاله ـ كما سلف ذكره ومن يكن ابيا في طفولته . فانه سيلازمه هذا الخلق في جميع مراحل حياته حتى بلفظ اخر نفس من انفاسه ـ كما وقع فعلا مع صاحب الترجمة الذى كان اباؤه وشممه او قـــل طموحه الى سلم الوجاهة والمجد ، من أهم العوامل التي قادته الى ان يموت سجينا مشردا مكفوف البصر ـ كما سيأتي ذكر ذلك ،

واذا كانت مواهب الانسان الجسدية تكون اشد مناعة وصلابة في فترة الفتوة وفي شرخ الشباب فان مواهبه الاخلاقية والنفسية كالشجاعة والاباء والسخاء تكون هي الاخرى اكثر اندفاعا ـ بســـل وتهورا وعدم مبالاة في تجشم الاخطار ، والعزم على النزوح عن الاهل ـ بل النزوح عن الوطن الذ

هو اعز واغلى من الاهل عند ذوى النفوس الابية فيما اذا بات الوطن مرتعا للذل والهوان ، حينئذ لا يسع الحر الكريم الابي الا فراقه وهجرانه كما فعل العوني - في نزوحه عن مسقط رأسه القصيم .

الاسباب التي دفعت العوني الى الهجرة

جاءت الاسباب التي دعت العوني الى الهجرة كما يلي :

عندما انتصر الامير محمد بن رشيد على اهل القصيم في معركة الطيدأ ١٣٠٨ هـ - واصبح القصيم بل ونجد جميعها خاضعة لسلطان ونفوذ وحكم محمد بن رشيد ، في تلك الفترة - اذعن الجميع للحاكم المنتصر - ومن لم يذعن له - هاجر وترك البلاد ، ومن عليها - والمهاجرون نسمان - قسم منهم هاجر ليقوم بهجوم على ابن رشيد عندما تتاح له الفرصة - ورهم هـذا القسم الامام عبد الرحمن الفيصل آل سعود - الذى هاجر الى الكويت بعائلته والقسم الثانـي هاجر الى سورية ومصر او الهند - قاصدا ان يمتهن حرفة التجارة تاركا السياسة. ومن سمح في بحرها . واذا كان القسم الاول عندما هاجر الى الكويت قاصدا ان يعيد الكرة بحـرب يشنها على ابن رشيد - واذا كان القسم الثاني عندما هاجر عن البلاد - لديه من المـال القدر الذى يخوله لامتهان حرفة التجارة - فان العوني نزح عن بلاده وابتعد عنها بدون ان يكون له الاسباب التي تشفع له بان يكون من رجال الفريق الاول - كما لا يوجد له من الاسباب التي توهله او يشتاق اليها بان يكون من رجال الفريق الثانـي .

ومن هنا يأتي السؤال التالي : اذن لماذا ذهب العوني عن بلاده وعزفت نفسه عن البقاء فيها - وهو في المرحلة الاولى من فتوته ؟ ..

الجـــواب ،،،

قدر للعوني ان ينشأ في رعاية آل مهنا وان يترعرع في عزهم .

وبعد ان استولى ابن رشيد على القصيم . وقتل في معركة الملبيدأ من قتله من آل مهنا ومن بين القتلى عبد العزيز العبد الله الذي لم يرث العوني ميتا بحرارة ومن قلبه كما رثى عبد العزيز ـ كما اسر ابن رشيد امير بريده وزعيمها حسن آل مهنا ابا الخيل الذي مات سجينا عند محمد بن رشيد في قصره بحائل .

بعد ما رأى العوني بعين رأسه انهيار زعامة اولياء نعمته ، ونظر الى رجال العـــدو وجنوده يعيثون الخيلاء في بلاده ، ونظر من ناحية اخرى الى ضعفاء النفوس من اهـــل بلاده الذين يعرفهم اذنابا ، نظر الى هؤلاء قد اصبحوا نادة يشار اليهم بالاصابع لماذا ؟ . . . لانهم ذهبوا يتطلقون للغازي المغتصب اي ابن رشيد ـ عندما رأى الفتى هذا المنظر هرظت نفسه من البقاء في بلاد يرى فيها تعالب الامس باتت اسودا ـ كما وصفهم بقصيدته التي جـــاء مطلعها يحمل معنى يقسم به على نفسه انه لا يمكن ان يقيم في بلاد تكدر فيها صفو عيشه .

وهكذا ذهب العوني عن بلاده نازحا عن اهله محاولا ان يطرد همومه ـ عند آل الخليفة امراء البحرين .

آل خليفة اول قوم يفد اليهم العوني

ذهب العوني في مطلع فتوته الى عيسى بن خليفة امير البحرين وقتذاك ، وقد انشـــد فيهم قصيدة كلها ثناء ونجده ، ابتدأ في مطلع قصيدته بمعان عبر فيها انه لم يغادر بلاده (بريدة) الا بدافع الاباء والشمم عندما رأى مايسوء من بروز رجال يعتقد انهم ليسوا اهلا لذلك .

وهكذا مضى الشاعر مسترسلا في قصيدته على هذا المنوال بأسلوب لبق جذاب ، حتى وصل بأسلوبه هذا الى معان طافحة بالاطراء والمدح لأمير البحرين ، الشيخ عيسى بن علي بن خليفة ..

والجدير بالملاحظة ، هو أن الشاعر أورد معنى في البيت الخامس عشر من قصيدته هذه أوضح في هذا البيت أنه لم يسبق له أن جاء وافدا بقصائده لاى زعيم كان . وفي عجز هذا البيت نفسه جاء بمعنى يؤكد فيه بأن نفسه أبيّة وعزولة عن الركون الى طلب المنزلة المنخفضة (وكأنه في هذا المعنى يقول لأمير البحرين انني لم افد اليك بقصيدتي مستجديا المادة كما يفعل الكثير من الشعراء) .

والقصيدة تبلغ أربعا وسبعين بيتا — وهي أروع قصيدة قالها العوني عندما كان فتيا . ربما كانت هذه القصيدة هي التي رفعت صيته كشعار بلغ منزلة من ذيوع الشهرة لا يضارعه بشهرته في عصره اى شاعر شعبي وفي جميع المحيط الذى عاش بين ظهراني أهله في تلك الحقبة من الزمان .

ولما كانت القصيدة طويلة كما سلف ذكره ، فانه ليطيب لي بأن أختصر منها المعاني ذات الصلة المباشرة بحياة هذا الشاعر الخاصة في فترة فتوّته التي نحن بصدد الحديث عنها — واختصارى لها لم يكن مخلا في جوهر القصيدة ولا مسقطا منها اى معنى من المعاني ذات الاتصال الجذرى ، في الاهداف التي تستحق الذكر في ما له صلة بحياة الشاعر في تلك الفترة .

واليك مطلع القصيدة :

دار تكدر لنا صافي مشاربها	١	اقسمت باسوارهم ما تشاربها
ولا تصافي في مصافيها وشانها	٢	تقريب الاضداد ومعادى قرايبها
يادام تنظر بها الفيوم يفتخر	٣	والبوم وابو حقب بدي مضاربها
صار الدجاج احرار تطلب العلا	٤	يركز لها الوكر باسحان قالبها
واللبث والنمر والسرحان والفهد	٥	خافوا السنانير وتراعي حواجبها
يادار عفناك من شغناك الجفاء	٦	تف لنفس تنزل قدر صاحبها
يادار لو بك جنان الخلد داوجه	٧	شمنا لنار العلى رفع لواجبها

الشرح :

١) هذه البلاد — يقصد بلاده التي تكدر بها صفو العيش اقسم بالسور القرآنية التي بجزء هم اني لن اسكنها .

٢) بل حتى الذى يركن الى هذه البلاد فاني لن اقبل مسالمته . لان شأنها هو اجلال الاعداء وابعاد المواطنين المخلصين .

٣) طال ماني انظر " الفيوم والبوم وابو حقب " مشيرا الى هذه الطيور الحقيرة بأنها اصبحت تزهو وتفتخر وتفترس .

٤) وقد امست هذه الدجاج بمنزلة الطيور الحرار فسبحان الله من هذا الانقلاب العظيم .

٥) واصبح الاسد والنمر والفهد ، هذه السباع المفترسة ، أصبحت تخاف وتخشى صولة الثعالب .

٦) يا أيتها البلاد لقد هاجرنا عنك وتركناك من حين ان رأينا بك الذل والمهانة . وفي المصراع الاخير يقول : قبحت نفس تقبل أن يعيش صاحبها ذليلا مهانا .

٧) وفي هذا البيت يأتي بالمعاني ذاتها التي جاء بها عنترة العبسي بقوله :

لا تسقني ماء الحياة بذلة ... بل اسقني بالعز ماء الحنظل

ماء الحياة بذلة .. كجهنم ... وجهنم بالعز .. أفخر منزل

.. لو أنك أيتها البلاد جنة من جنان الخلد تركتك وذهبنا للعلى ولو كان في العز والعلى نار محرقة . ثم انتقل بعد ذلك يشكو أمره الى الله بأنه لم يجد صديقا يبث اليه شكواه ويؤكد على أن صديقه الوفي هو امرؤ توفي ويشير اليه برثائه الحار بدون ان يذكر اسمه . ولكن المعتقد أنه عبد العزيز العبد الله بن مهنا ، اذ يقول :

شكواى لله .. لا حي يشيني ... ٨ ولا نديم نظر حالي وما بيها

هل كيف ابا عيش مرتاح وصاحبي ... ٩ زام على برزخه عالي نصابيها

لعل روح (١) بها روحي معلقة ... ١٠ تحشر مع ارواح اهل بدر غازيها

٨) البيت الثامن واضح .

٩) هل يمكن أن يطيب لي العيش وصديقي تحت الثرى .. ؟

(١) لعل هنا تستعمل بمعنى " عسى " أو أرجو ، فيقول : أرجو أن روح صاحبي المتعلقة بها روحي ارجو أن تحشر مع ارواح شهداء غزوة بدر . ثم ينتقل الى أن وصل الى امتداحه الخليفة . قائلا : ان كثيرا من الناس يقولون أنهك لن تجد صديقا وفيا لصاحبك ، ولكنه يجيب هؤلاء الناس قائلا : اني أظن ظنا اكيدا باني سوف اجد بآل خليفة رجالا اوفياء سيكونوا خلفا لي عن صاحبي الذى لا يحصي الحاسبون عدد خصاله وفضائله الجميلة ، كما جاء بقوله :

قالولي الناس وين تلقى بديل لمن ... ١١ زادت خصاله على عدات حاسبها

قلت ان للقلب باعذال ربعه ... ١٢ حزمت فيها على عالي مراتبها

فان قلت منهم اعطيت الشدة والعمى ١٣ هل تجهل الشمس او شيء بقاربها

هم الخليفة بلتد هل السبقات بالثنا ١٤ هم بدر من بالوطا ماهم كواكبها

١١) هذا البيت واضح . كلمة " وبش تلقى " بمعنى أين تجد صاحبا عوضا عن صاحبك الذى لا تحصى خصاله الطيبة .

١٢) يقول : اني أجبت هؤلاء العذال بأن عقلي الباطني دلني على من لهم مقامات رفيعة جدير بهم أن يكونوا خلفا لصاحبي .

١٣) فكأن سائلا يسأل العوني بهذا قائلا له : من هؤلاء القوم الافاضل الذين وجدت بهم من مكارم الاخلاق مايجعلك بأن تقنع بهم على أن يكونوا لك خلفا عن صاحبك . فيجيبهم قائلا : أيحتاج امثال هؤلاء الى سؤال ؟ فالذى يستفسر عن معرفة هؤلاء هو كالاعمى الذى لا يرى نور الشمس . لان منزلتهم بين العرب كمنزلة الشمس من سائر الكواكب . ظل العوني يسترسل ويطنب بالمدح لآل خليفة بقصيدته هذه ، ويسأل الله بأن ينزل الغيث على بلادهم .

وهو يخص بمدحه عيسى بن علي ابن خليفة . ويوضح بآخر القصيدة بأنه لم يأت للخليفة بقصيدته هذه قاصدا المال بل ان نفسه أرفع من أن يتسول بشعره كما ورد بقوله :

ذا قول من لا وفد بأحد من الملأ ١٥ كد طاش نفسه رفيعات مطالبها

واهدى لعيتشى بن علي فرائدي ١٦ كفوا نشائد الي بارت جلائبها

١٥) يشير الى نفسه بأنه لم يسبق أن تسول أحدا بشعره . وان نفسه أبية لا تطلب الا الامور المعنوية السامية .

ذكرنا ان آل الخليفة اعطوا العوني هبات من المال لوجئنا بذكر المبلغ الذى وهبه الخليفة له لسمعنا من يقول انه شيء مبالغ به . ولكن رغم ذلك كله نجد العوني لم يطب له

المقام عند الخليفة. لماذا ؟.. لأن آل خليفة قوم مسالمون لا مطمع لهم باكثر من امارة البحرين. فهذا شيء لا يحبب العوني ، او ربما أن الفتى الطموح لم يجد عند آل خليفة المنزلة التي يكون فيها هو الآمر الناهي .

أين يذهب هذا الفتى الابي الطموح المغامر ؟..

أيذهب الى امير حائل محمد بن رشيد ، فهذا شيء ثقيل على نفسه لامرين :

الامر الاول أنه يحمل بين جنبيه كرها وحقدا لابن رشيد لانه القاتل لعبد العزيز العبد الله بن مهنا الذى يسكب العوني الدمع الغزير حزنا عليه ، يضاف الى ذلك هـو أن العوني يكره ابن رشيد على اعتبار أنه الحاكم الذى قتل عددا وافرا من اهل بلاده القصيم فـي معركة الطيدأ سالفة الذكر ، كما نزع السلطة الى الابد من آل مهنا اولياء نعمة العوني الذيـن نشأ يافعا يعزهم وترعرع في مجدهم .

الامر الثاني الذى لا يقل عن الاول اهمية هو أن العوني على مايبدو انشد قصيـدة هجاء شنيعا يذم فيها محمد الرشيد بعد معركة الطيدأ . وان كنا لم نظفر ببيت واحد يثبـت ان العوني هجا الامير محمد كما نجده هجاء ابن اخيه الامير عبد العزيز المتعب بعدة أبيات. ولكن عدم وجودنا لهجاء العوني لمحمد لا يعني ذلك اننا ننفي نفيا قاطعا انه لم يهجـه . فقد يكون هجاءه هجاء بقصيدة لم تنتشر بصورة حاول العوني اخفائها .

اما الدليل الذى يثبت أن الشاعر هجا محمدا اكثر من الدليل الذى ينفي عدم هجائه ودليلنا على ذلك ، هو ان العوني عندما اضطرته الظروف الى أن يفد الى الامير محمد بحائل نجده استعمل الاسلوب الذى عادة لا يستعمله الا من ارتكب ذنبا كبيرا ، فجاء منكسرا يطلب العفو من ارتكب الخطيئة بحقه. وهكذا فعل العوني عندما وفد الى الامير محمد كما سيأتـي بيان ذلك .

الشاهد هنا أن العوني عندما قرر ان يغادر البحرين لم يخطر بباله ان يذهب لابن رشيد . ومن المعلوم أن لو خطر على باله هذا التفكير لما وجدناه يذهب الى حاكم مكـــــة الشريف عون .

الفصل الخامس

من اميرالبحرين الى اميرمكة ثم امير حائـــــل

ترك العوني أمراء البحرين آل خليفة الذين اغدقوا عليه المال الوافر الذى يقـال ان العوني لم يحتفظ بذلك المال ـ الا بالقدر الذى يؤمن له ثمن الراحلة التي توصله مكـــــة . وثمن المؤونة التي يقتاتها في طريقه اليها . اما الباقي فيؤكد الرواة الثقاة أن العوني وهـب مازاد عن حاجته الى اصدقائه المحتاجين من أهل بلاده الذين كانوا في البحرين .

لانستطيع أن نعرف مقدار المدة التي قضاها العوني عند آل خليفة ـ وانما الـذى نعرفه هو ان الفتى لم يطب له المقام في بلاد كالبحرين ، التي وان وجد عند اهلها حفـاوة واجلال واغداق المال ، فانه لم يجد الشيء الذى يملأ الفراغ الفسيح الارجاء الكامن في كيانه .

ركب عند الفتى راحلته وشخص نحو مكة لا ليسقط فريضة الحج على مايبدو ، وانما ذهـب ليجد عند شريف مكة الشيء الذى تصبو اليه نفسه الطموح ـ اما اسقاط فريضة الحج فانه قـد يكون ادى مناسك الحج لانه صادف جلوسه في مكة موسم الحج . ولكن الحج عند العوني لـم يكن غاية بحد ذاتها ، اكثر من كونه صدفة طيبة .

لم نجد مايثبت أن العوني أنشد قصيدة بأمير مكة الشريف عون . الا أن الثابت أنـه لم يرق له المقام عند الشريف ـ كما ان الشريف على مايبدو من الادلة لم ينظر الى العونـي بالعين التي نظر اليه بها آل خليفة ـ بل لم ينظر اليه الشريف بعين الاجلال التي ينظر بهـا

الى الشعراء الشعبيين هنا في مكة الذين يحتفظون باسلوبهم الذى ينشدون به الشعر عن الاسلوب الذى ينتهجه العوني والشعراء المجددون ، فهؤلاء الشعراء الحجازيون ينشدون الشعر بصورة مرتجلة على الطريقة الآتية :

يقام في بطحاء مكة اندية ادبية شعبية يحضرها احيانا امير مكة . ويكون في النادى صفان متقابلان فيأتي شاعر من احد هذين الصفين ببيت او بيتين من الشعر ويلقيهما نحو زمله ارتجالا ويكون زمله الواقف امامه في الصف المقابل ملزما بأن يرد عليه — وحينما ينشد الاول بيته الذى يلحنه هند ذلك يلحنه معه بصوت واحد جميع الواقفين بجانبه كما يلحن الواقفون في الصف المقابل البيت الذى ينشده الشاعر الثاني جوابا على الاول . واى شاعر من هؤلاء الشعراء تكون معانيه اقوى وبديهته اسرع تكون له الافضلية . اى أن الاسلوب المتبع في هذه الندوة الادبية اشبه مايكون بالمسابقة .

جاء العوني الى هذا الحفل كشاعر بأول شبابه معتزا بقوة قريحته ، ولكنه حينما جاء الى هؤلاء سخر منهم ومن اسلوبهم . كما انهم ايضا بادلوا العوني بسخرية سائلة . فهو يرى ان تعالقهم هذه المرتجلة قلما ماتكون طرية من المعاني الدسمة التي توجد بالقصيدة التي يقولها الشاعر بعد أن وتدبر بوقت فسيح يكون لديه من الفرصة مايجعل خيال الشاعر يسرح ويغدو ، حتى يختار ماهو حسنا وجميلا بمعانيه والفاظه . هذا رأى العوني . ولكن رأى الشعراء الحجازيين يخالف رأى صاحب الترجمة . فهم يرون أن عذره الذى ابداه لا يقصد منه الا ان يتخلص ويهرب من وطيس هذه المعركة الادبية التي يعتقدون جازمين بأن العوني عاجز من ان يجاريهم بهذا الميدان . وأخيرا صارح الشعراء الحجازيون العوني بذلك . وكان هذا الحوار بين العوني والشعراء بمحضر من الشريف بمحضر من الشريف حاكم مكة آنذاك .

وعند ذلك قال العوني : انا لا أعترف لكم بالعجز ، ولكني سوف امتحنكم بقصيدة سألقيها عليكم متحديا لكم جميعا ، فان استطعتم بأن تجاوبوني عليها فعند ذلك سوف أجرب بأن أدخل معكم (القلطة) ـ(هذا الاسلوب الذي نشير اليه يسمى عند بادية الحجاز قلطة) فان لم تستطيعوا ان تجاوبوني على قصيدتي هذه ، فمعناه انكم عاجزون انتم عن مباراتي في ميدان الشعر .

ولما كان هؤلاء الشعراء من بادية الحجاز . والبدوي من طبيعته لا يحرف القراءة ـ وخاصة بذلك العهد ، فقد انتهز العوني هذه الفرصة وذهب يلقي عليهم قصيدة كل حروفها من الصهيل ، كما أنها ايضا لم يكن فيها تلك المعاني ذات الاهمية . وكانت القصيدة كلهـــا تغزلا ، وبما كانت هذه اول قصيدة او ثاني قصيدة يتغزل بها العوني وهي الآتية :

هل الهلال وكامل الدمع مدرار	١	الى هلل وهطل كالمطر ماطره هسل
على مولد مالك الله ولا صـــــار	٢	لا هو ولد حوى ولا لآدم .. دل
كامل كماله ملح والـدل والكـار	٣	اسود على صدره كالمسك هســـل

القصيدة حسب مايبدو أنها طويلة . وليس فيها من المعاني ما يستوعي الانتباه . وقد ابتدأ يتغزل ، فيقول بالبيت الاول انه كلما يهل هلال الشهر وهو مفارق لمحبوبته فانه يهـــل دمعا مدرارا على محبوبته التي وصفها بقصيدته انها لم تخرج من صلب آدم ولا من رحم حوى ، اي انها من الحور العين اللاتي يرتعن في جنة الخلد ، وفي البيت الثالث يقول ان محبوبتـــه هذه معشوقة القوام كاملة الجمال والرشاقة ، كما انها مقبولة بخلقها ودلالها . ولها جسد ناصع البياض عبق الرائحة بصورة كأن رائحة المسك تفوح منه .

والقصيدة أكثر ابياتا مما أوردته . والخلاصة ان الشاعر فاز بلقب المسابقة حيث لم يجد بين الشعراء الذين تحداهم وتحداهم من يستطيع أن يباريه او يجيب على وزن وقافية وحـــروف قصيدته . ومن حسن حظ العوني أن منافسيه بقوا أسرى . والا فليس الجواب متعذرا على تلك القصيدة فيما لو لم يكن خصوم الشاعر أسرى .

ظل العوني في مكة قبل هذه القصيدة وبعدها مدة ـ لم يتوفر لدى الدليل الذي أركن اليه في مقدارها ، وكل ما نستطيع أن نفعله في تحديد هذه المدة التي قضاها العوني في مكة او تلك التي قضاها في البحرين ، هو أن نلجأ الى الحدس والتخمين اللذين قد يكونا مطابقين للواقع ، أو يكون الزيادة محصورة في سنة أو سنتين على أبعد حد كما يكون النقص في هـــذا التخمين محدودا ومحصورا في هذا العدد السالف الذكر ـ ويتلخص تخميننا على الوجه التالي :

ولنفترض ان العوني جاء الى أمير حائل قبل وفاته بثلاث سنوات اى بعد معركة الطوفا (١٣٠٨ هـ) بعدة مقدارها اربع سنوات. ولنفترض ايضا ـ انه أى العوني جلس في بلاده بريدة سنة بعد تلك المعركة ، وعلى هذا الاساس تكون المدة التي قضى أكثرها الشاعر في البحرين ، وقبلها في مكة ـ محصورة بثلاث سنوات . وكما ذكرت سابقا بأن هذا التقدير اذا لم يصـــب الهدف لأن زيادته ونقصه قليل .

رحلة العوني الاولى الى حـــائـــل

اذا كان العوني يرى أنه لم يجد عند أمير البحرين ما يملأ فراغه بالمائة خمسين ، فانه رأى في أمير مكة عدم الشيء الذي يملأ فراغه مائة بالمائة على اعتبار أنه وجد عند امراء البحرين من يقدره كشاعر موهوب ، كما وجد من يفهم شعره ويقدره الأمر الذي جعله ينشد بأمير البحرين تلك القصيدة الرائعة ـ اما امير مكة فاننا لم نجد ما يثبت أن العوني انشد فيه بيتا واحدا .

حينما شعر الفتى أنه لم يجد ضالته المنشودة عند أمير البحرين . كما رأى أن وجودها عند أمير مكة مستحيلا . عندئذ قرر أن يتأسى بضالته السابقة على أمير حائل ويتجاهل حقده الدفين القديم على محمد بن رشيد ولذلك عقد العزم على أن يذهب اليه لانه رأى ابن رشيد الحاكم الوحيد وفقط الذي يمكن أن يفهم معاني قصائده بل ويقدرها ويقدر ناظمها فيعـــا

اذا كان ناظم القصيدة شاعر فحل كالعوني .

وقد رأى شاعرنا أن لا يذهب الى ابن رشيد قبل أن يقوم بعملية التمهيد التي تضمن له السلامة اولا والوجاهة عند الامير فيما بعد .

ظل العوني فترة في مكة وهو في حيرة من أمره ، بلاده بريدة عزفت نفسه عن رؤيـــة اهلها الذين سبق أن وصف بعضا منهم بما وصفه في قصيدته التي انشدها في عرس آل خليفة ومكة لم يجد فيها الحاكم الذى يقدره كما لم يجد المجتمع الذى ينسجم معه - وذهابه الى أمير حائل ابن رشيد قد لا يكون محمود العاقبة مالم يجد الرجل صاحب المكانة المرموقة لدى ابـــن رشيد ليشفع له .

كان العوني يعرف أنه يأتي الى مكة كل عام في موسم الحج من أعز رجال ابن رشيـــد يقوم بمهمة ينتدبه لها الامير ، فذهب وهيأ قصيدة عصماء كلها ثناء وعطرا للأمير ، وجعلهـــا جاهزة ليطلع رجل ابن رشيد عليها وليأخذ منه وعدا يتعهد به له بأنه سوف يقبله رفيق سفـر الى أن يوصله حائل . كما يتعهد له بأن يبذل وجاهته للشاعر عند الامير ابن رشيد .

وما ان جاء موسم الحج حتى وفد الى مكه الرجل الذى كان العوني ينتظر مجيئـــه بفارغ الصـــــبر .

لم يخطىء العوني الصواب في حسن ظنـــه

من هو الرجل الذى ينتظر العوني مجيئه الى مكه ؟؟ وهل كان هذا الرجـــل عند حسن ظن العوني به ؟؟ هذا الرجل هو عبد الرحمن السعيد الذى وضع ابن رشـــيد

بيده أهم مورد اقتصادي يرد الى امارة الرشيد ألا وهو رسوم الحجاج الذين يأتون من ايران والعراق عن طريق حائل ذاهبين الى المدينة ومكة وعائدين منهما الى أهلهما عن طريق حائل أيضا .

ومهمة ابن سعيد هي قيادة الجيش الذي يبعثه ابن رشيد لتتولى حراسة أولئك الحجاج مقابل رسوم يدفعها كل فريق من الحجاج للقائد الحرس ابن سعيد — وهذا يعود بسلمها لابن رشيد — أو يسلم ما يطلب له أن يسلمه ويتصرف كيف يشاء بالاموال تسليمه للأمير لانه لم يكن هناك قيود وسجلات وضوابط تجعل ابن سعيد يتقيد بما يستلمه . وانما الموضوع موضع ثقة مطلقة من الامير بابن سعيد .

ذهب اللقيط الشاعر الى ابن سعيد في منزله في مكة وعرض عليه رغبته في ذهابه الى أمير حائل — كما عرض عليه القصيدة التي أعجب بها ابن سعيد أشد الاعجاب . وأبدى رأيه للعوني — بأن يستلمها منه ويتعهد له بأنه سوف يسلمها للأمير بدا بيد ، ولكن العوني رفض الا أن يسلمها هو بنفسه للامير وكل الذي طلبه الشاعر من ابن سعيد هو ان يسمح له بالسفر في معيته ، وأن يبذل جاهه لدى الامير — ولم يسع ابن سعيد الا أن وافق على طلب العوني كما تعهد له بأن يبذل كل جهده ووجاهته عند امير بلاده ، وانتا ابن سعيد الرجل العاقل البعيد النظر أن هذه القصيدة سوف تسجل لأميره ذكرى خالدة تسمو بفضلها ومجدها على أي عتاب يقوم به الامير تجاه الشاعر ، وهذا يعني أن العوني لم يخب ظنه بابن سعيد .

وهكذا صحب العوني قائد حرس الحجاج — معزوزا مكرما — حتى اذا وصل مكانا قريبا من مدينة حائل همس ابن سعيد باذن العوني بأن ينتظر في هذا المكان الى أن يأتيه

منه رسول يخبره عن نتائج مساعيه عند الامير .

وقد ظل العوني ينتظر الرسول على أحر من الجمر واثقا أن سروره وبؤسه محصوران بهذه الثواني التي ينتظر فيها عودة الرسول اليه .

كان الامير جالسا في القصر الجنوبي الذى كان يسمى قصر الشهوانيه - اشارة الى احدى زوجات الامير الذى أسكنها فيه ثم سمي فيما بعد قصر " الزهيريه " وهو القصر الذى كان يسكنه أمير حائل السابق عبد العزيز بن مساعد . ولا زال باقيا حتى الآن .

وقد جاء ابن سعيد الى الامير في هذا القصر - وبعد تبادل التحية المألوفة بين الامير وابن سعود - قال الاخير " لدى طلب عندك أود أن توافقني عليه يا طويل العمر " ويؤكد الرواة أن الامير الحاد الذكاء عرف على البديهة ماذا يقصد ابن سعيد ولذلك أجابه قائلا : لك الموافقة مني على ما تريد مالم يكن طلبك له صلة بالعفو عن العوني فانني لست أوافق عليه . فقال ابن سعيد : عفوك يا الامير أكبر من ذنب العوني . وأنت أعظم من أن تعاقب شخصا كهذا ، وبعد الالحاح المستمر الذى أبداه ابن سعيد تجاه أميره . بعد ذلك عفا الامير عن العوني ، وطلب الفور بعث ابن سعيد احد رجاله ليأتي به .

وقد تواترت الروايات من عدة مصادر كلها تفيد أن العوني عندما دنا من مجلس الامير انكب على وجهه وذهب يحبو ماشيا على يديه وقدميه ، ممثلا في عمله هذا الدور الذى يقوم به عادة مرتكب الجريمة الشنيعة الذى يطلب فاعلها العفو ، ويؤكد الرواة أن الامير لم يترك الفتى الشاعر يستمر في اذلاله ، بل بادره قائلا " قم فقد عفونا عنك " .

دخل العتوني ذليلا وخرج عزيـــــــزا :

بعد أن سمع العتوني كلمة العفو من الامير استعاد شجاعته . ووقف منتصبـــا يتلو قصيدته ــ وهو الذى لم يعرف عنه أنه وقف أمام أى حاكم يتلو قصيدته بنفسه بالاسلوب الذى وقف به أمام الامير بن رشيد ــ بل كان الشاعر يسلم قصيدته الى شخص جميل الصوت يلحنها فتحيها فيطا يثير الاشجان ويطرب السامعين .

اللهم الا أن الظروف وقتها حكم على العتوني بأن يلقي قصيدته هذه وانا ــ بأسلوب لم يألفه ــ أكثر من ذلك حكم ذلك الظرف القاسي على العتوني بأن يأتي الى الامير منحنيـــا ذليلا ــ ولكنه مالبث الا أن خرج من نادى الامير معزوزا ومحفوفا بعناية الامير واجلاله ــ له حتى ان الرواة يؤكدون ان العتوني ــ عندما خرج من الامير كان يمشي مشية خيـــــــلاء ويتبختر فكأنه يرقص بمشيته . وربما أراد في هذه المشية الطافحة بالاعتزاز والكبرياء أن يغطـــي مركب نقصه الذى بدر منه في دخوله على الامير . ذلك الدخول المصحوب بالخنوع والذلة ــ ولذلك أراد الشاعر بمشية الخيلاء والزهو ــ اللتين استعملهما بخروجه من الامير ــ أن يسترد ماهدره من كرامته في دخوله السابق عندما كان يطلب العفو من الامير .

ويرى العتوني أن له الحق بأن يخرج من الامير بمشية اعتزاز وتعال . ولذلك انه جـاء اليه وهو لا يعلم ماذا يكون مصيره ــ وخرج منه مغمورا بالنشوة بعد أن ألقى قصيدته العصماء التي جعلت الامير يفقد اتزانه وهو الرجل الوقور ، لأن الاطراء والثناء اللذين سمعهمـــا من العتوني لم يسبق له أن سمعهما من أى شاعر ، كما لم يسمع مثلهما بعد ذلك ، ولما كـان الشعر يؤثر في معطفيه على نفسية العربي اكثر مما يؤثر النثر فقد طرب الامير من معانـــي

القصيدة التي أنشدها العوني طربا ونشوة جعلاه بأمر رئيس تشريفاته " المغايلي " بأن يمنح العوني على الفور مبلغا وافرا من المال كما يوهب حلة تشريفة . ويسكن في منزل مجاور لقصر الامير - وأسلوب كهذا لم يسبق للامير أن فعله مع أي شاعر آخر .

واذا كان الامير أخذ بنشوة عندما أسمعه العوني قصيدته - فان العوني هو الآخر كما ذكرت أصيب بنشوة وكبرياء عندما وجد نفسه استطاع ببيانه أن يسيطر على عواطف الامير - بتلك القصيدة التي تبلغ خمسين بيتا - ابتدأ الشاعر مطلعها بوصفه لسلامه على الامير ، وقد استرسل في نعته لسلامه هذا حتى صوره أنه أنفر من رائحة المسك والعنبر كما جعله ألذ من الماء البارد على قلب الرجل الظمآن المستهلك الذي وجد ماء بعد ما اشرف على الهلاك . ثم انتقل بفخر بقوة قريحته الشعرية ويعلمها بانها جاءت تتدفق كالبحر الزاخر المتلاطم الامواج . ثم يذهب به الزهو الى أبعد من ذلك فيقول أن قريحته هذه التي أشبه ما تكون بالبحر الهائج يوشك أن تطغى على قرائح جميع الشعراء بلحظة سريعة . ثم يتغزل ، فيصف النجائب التي أرسل راكبيها ليبلغوا سلامه للأمير فينعت نجائبه بجمل أجمل ما ينعت به النجائب الاصيلة فكأنه أرسل هؤلاء الركب من مكة التي كان مقيما فيها الى حائل مستراسارة الرشيد وبعد انتهائه من وصفه الرحائل ذهب يمتدح الامير مدحا شيقا حتى أن الامير ، كما اسلفت ، طرب من مدائح العوني طربا اوشك ان يفقد به وقاره على حد ما نقله لنا الشيوخ الرواة الموثوقون . وقد سبق أن قلت بأنني لا أرغب سرد القصيدة بكاملها خاصة اذا كانت القصيدة كلها مدحا واطراء ، مالم يكن فيها كم من المعاني ذات الصلة بالاحداث التاريخية التي تحسن بصدد الحديث عنها وخاصة المتصلة بحياة العوني ، أو أن يكون فيها معان من الحكمة والقصيدة تبلغ خمسين بيتا ، واليك مطلعها :

ماناض بسرق وهل هلا الا سهال	١	وناض نوه توجه صوب الاوال
الرمل بلا عدد والاشجار والحجر	٢	وما شاهد البدر من انثى ورجال
وما كتب باللوح من آدم وما محس	٣	وجرى القلم به الى ان يبعث البال
سلام احلى من الماء ساعة الظما	٤	في طافح اللالي والبارح له اذيال
بريق درك هوى به غير خابسره	٥	ماء بنقر من اللاهوب باطـــلال

وقد استرسل الشاعر بقصيدته المطولة التي لا ارى داعيا لسردها اذ اني ذكرت ماجاء في بعض معانيها في مقدمة هذا البحث. وقد مضى الشاعر يمتدح الامير محمدا حتى وصل الى قوله :

في سورة النحل آيات مفصلة	اوفى بالعهد من مفروض الاعمال
ومن لا يرد الثناء للاول لو هفى	لابد مايتضح عيبه مع التـــال

اود بان ازيد وضوحا بالشرح ،خاصة في البيت الرابع والخامس ، اذ ان معناهما قوي ودقيق .

يصف في هذين البيتين سلامه فيقول : انه الذ واحلى من الماء البارد القراح الزلال ، على كبد الرجل الذي اهلكه الظمأ في لهيب القيظ الشديد الحر والسموم المحرق .

فلما وجد نفسه هالكا من الظمأ لا محالة ،عند ذلك راح ينقب عن موضع يرتشي به حلقه توافيه المنية . وبينما هو هائم في سبيله بهذه الصحراء الخالية عند ذلك شخص نصب عينيه جبل فقصده فوجد به كهفا فراح لهذا الكهف قاصدا ان يتخذه قبرا ليوضع جثمانه به حتى يأتيه الاجل . ولكن هذا المستميت عندما دخل هذا الكهف وجد في قلبه ماء باردا قراحا عذبا .

فيقول الشاعر : ان سلامه هذا الذى يقدمه للامير الذ من الماء الذى كهذا الماء على

كبد الظمآن الذى كوصف صاحبنا هذا .

اما البيتان الاخيران فان بهما اعتذار من الشاعر للامير بشكل ادبي . وهذا الاعتذار اشبه مايكون باعتذار معن بن زائدة للمنصور العباسي .

كان معن فيما سبق واليا مخلصا للامويين وقصته المشهورة طويلة ومعروفة في كتب الادب وانما نختصر القول بجواب معن للخليفة المنصور حينما عاتبه المنصور قائلا له :

" اراك يامعن لا زلت مخلصا ووفيا لدولة بني امية المنقرضة " . فقال معن : ان من يفي لمن لا يرجى يا امير المؤمنين حرى به ان يفي لمن يرجى " .

وهكذا نرى المعنى قد جاء بنص هذا المعنى بهذين البيتين ويستشهد بالاية الكريمة التي جاءت في سورة النحل اذ يقول تعالى :

" واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا " ،هذا المعنى الذى اشار اليه الشاعر في البيت الاول من البيتين الاخيرين . اما البيت الاخير فيقول بمعناه ان من لم يف مع صاحب العهد الاول . فلابد بان يبر ولا يفي مع صاحب العهد الثاني .

لم يكن هدف العوني طلب العفو ولا المال

ظفر العوني من ابن رشيد بالعفو وبالمال الوافر الذي افقده عليه الاخير ، ولكن الاثر لم تكن غايته الاساسية من مجيئه الى امير حائل محصورة على طلب العفو ولا على الرغبة بالمال الهائل الذي جاء به من الامير - بل ولم يكن هدفه محصورا على الوجاهة فيما اذا كانت حدود الوجاهة لا تتجاوز حدودا معينة - لماذا ؟ لان هذا الفتى الشاعر طموح لا يقف به طموحه عند حدود وجاهة لم يكن فيها صاحب الكلمة النافذة والناطق له - او على الاقل يكون عند ذلك الحاكم هو الوزير المفضل والمستشار الذي لا يضارعه في منزلته عند الحاكم ان من كان .

يقول الاخ محمود ابراهيم المشاري نقلا عن والده الذي كان موجودا في حائل - عندما قدم العوني الى الامير محمد ابن رشيد يقول : - ان العوني عندما جاء الى الامير محمد يطلب منه الاذن بالسفر ليغادر حائلا بلاد الامير - يؤكد الراوي عن والده ان الامير قال للعوني دعك عندنا ولماذا تذهب عنا ؟ .. فكان جواب العوني بما يلي :

انت اطال الله عمرك لست قابلا بان تخصني عندك وزيرا . وانا لا ارضى لنفسي ان اكون خادما " .

هذه الجملة التي اجاب بها العوني الامير تعبر لنا ابلغ التعبير عن نفسية صاحب الترجمة وتعطينا صورة واضحة المعالم عما تنطوي عليه نفسية العوني من طموح لا يقف صاحب هذه النفس الكبيرة دون حدود الوجاهة الوسط - او المنزلة الوسط ، اذ لو كانت همته تقف عند هذا الحد - لكان بامكانه ان يصل الى ما يريد عند الامير محمد الرشيد الذي كان لا يضارعه في علو الجاه والسلطان اي حاكم في تلك البقعة من الارض ، يضاف الى ذلك ان المنزل

في نفسه رواسب عداوة وحقد على امير حائل ، وليس من السهل ان تزول هذه العداوة - او هذا الحقد بيوم او شهر او بهبة مالية مهما كثرت .

الفصل السادس

وجد العوني المرتع الخصب الذى يسرح ويمرح فيه

ذهب العوني من حائل واتجه نحو امير الكويت الشيخ مبارك الصباح الذى كانت بلاده - مركزا اساسيا لجميع الساخطين على ابن رشيد والمتمردين عليه ، بل والناقمين عليه من اغتصب ابن رشيد الزعامة منهم وظلوا يتحينون الفرصة المواتية التي ينقضون بها عليه .

وعلى رأس هؤلاء الناقمين والمطالبين بالثأر الامام عبد الرحمن آل فيصل آل سعود ، ونجله عبد العزيز الذى وان كان يافعا حينذاك الا ان ادلة النبوغ ، وعلامات العبقرية . واضحة على محياه كوضوح الشمس في رابعة النهار ، وضوحا لا يخفى معلمها على اى ذكي منحه الله ادنى موهبة من الفراسة التي تمكنه من معرفة جوهر الرجال " انظر صفحة ٢٩٢ - من شهم العرب - الجزء الرابع للمؤلف) .

ولما كان العوني ذكي موهوب ، فقد توسم في هذا الفتى النجابة بل ينسب عنه انه بات لديه يقين قاطع بان هذا الفتى سيكون له شأن ، وقد اضمر هذه الفراسة في نفسه على اعتبار ان الذى كان لا زال يافعا ، ومن ثم راح العوني يدنو من الشيخ مبارك الصباح الشخص الذى سنحت له جميع الظروف المواتية ليكون الزعيم البارز في تلك الفترة بروزا يجعله ينافس ابن رشيد على الزعامة خاصة بعد ان توفي الامير محمد الرشيد وتولى الامارة ابن اخيه عبد العزيز المتعب ابن رشيد .

وجد ابن صباح بالعوني جهاز اعلام ناطق

اذا كان الشيخ مبارك الصباح بضرورة ماسة الى اجهزة اعلام تمهد له السبيل بالدعاية - ليقوم بمحاربة ابن رشيد واذا كان ابن صباح وجد بالعوني خير من يقوم بهذه المهمة ،فان العوني هو الاخر بامس الحاجة الى حاكم كامبارك الصباح - لا ليقوم بالدعاية له كما يقوم بها بعض من الصحافيين او الشعراء المأجورين - بل يقوم بها العوني بحافز صدره العوامل الاتية :

اولا - ان العوني خلقه الله بان يكون محرضا ومهيجا - فسجيته التحريض والتهييج مزجت بدمه ولحمه . ومن يدرس حياة هذا الانسان بعمق يجد انه لو لم يجد مغلوبا يحرضه على الغالب. او مستضعفا يحرضه على من استضعفه او مقهورا يثيره على من قهره ،لخلق من نفسه لنفسه مقهورا يحرضه ويهيجه على من قهره .

ثانيا - جميع البراهين والادلة التي تعبر لنا عن حياة العوني كلها تثبت انه لا يعبأ بالمادة بقدر مايعبأ بالوجاهة التي تمكنه بان يكون هو الجهاز المحرك في سياسة هذا الحاكم ، والدماغ المفكر في تدبير شؤون وحكم هذا الامير او ذاك الحاكم واللسان الناطق عن هذا القائد او ذاك الحاكم .

ثالثا - البغض والحقد اللذين في نفسه على آل رشيد لم يطرأ عليهما مايزيلهما عن نفسه ولا مايزعزعهما عن قلبه . وخاصة اذا كان العوني ممن حضر معركة الملهد سالفة الذكر - وذاق مرارة الهزيمة التي مرارتها على المرء الابي اشد مفعولا من مرارة الحنظل - بل هي السم الزعاف ،والعوني على ما اعتقد حضر وقعت الملهد لأن سنة وقتها لا يحول دون مشاركته لقومه بمعركة كتلك .

../..

ولما كان اهل القصيم اشد ساكني نجد حقدا وعداء على ابن رشيد ذلك العـــداء الوراثي الذى نشأ مع نشوء امارة آل رشيد ابتداء من معركة ـ بقعا ـ سنة ١٢٥٨ هـ او الواقعة العنيفة التي وقعت على يد محمد بن الامام فيصل بموقعة عبيد ابن رشيد او خاتمتها معركـــة الطيدأ ١٣٠٨ ـ ولما كان العوني نفسه من اهالي القصيم ـ فقد كان على اتم الاستعـــداد لا ليلبي طلب الشيخ مبارك الصباح ، بل لينشد القصيدة الحماسية تلو القصيدة التي فيهـــا من معاني الحماسة والتهييج مايتجاوب وسجيته من ناحية ـ كما يتجاوب مع عدائه وحقده علـــى ابن رشيد . ويتجاوب من ناحية ثالثة مع احساس وشعور كل مواطن من اهالي القصيم ويثير فيهم النخوة هو ويشعذ هممهم . ويشعل جذوة الثأر والاحقاد المزمنة التي كانت متوارية في نفـــس كل فرد من (اولاد علي) كنية لاهل القصيم توارثها اشبه مايكون بالنار التي خامدة تحت الرماد فجاء العوني ينفخ هذه النار . ويزجرها ويجعلها تستعر وتتأجج ـ وذلك بفضل المعانـــي التي جاءت بقصيدته الشعبية التي ذهب العوني في معانيها مذهبا جعله يحور نفسه في مطلع تلك القصيدة التاريخية التي قل ان تجد فردا من اهالي نجد الا ويحفظها او يحفظ ابيات منهـــا او على الاقل يحفظ معانيها ـ اجل راح ذلك الشاعر البارع بالتهييج والتحريض يجعل نفسه بانه الرجل المفجوع على وطنه المغتصب بفاجعة ومصيبة اسوأ واشد وقعا من فاجعة الخنســـاء باخيها صخر حين قالت :

فما عجـول على بو تطيـف بـه ... لها حنينان اصغـار واكبـــار

يوما بأوجد منى يـوم فارقنـــي ... صخر وللدهـــر احلال وامـرار

وهكذا ذهب العوني يصف نفسه في مطلع قصيدته المسماة بـ "الخلوج" اى "عجـول" باللغة العربية . ذهب الشاعر يصف نفسه بشكل يقارب بمعناه نفس المعنى الذى تناولته الخنساء

حيث وضعت نفسها من الوجد والوله على اخيها صخر بصورة افجع من هذه الناقة الفاقدة لابنها ، ولكن العوني وصف حزنه ومصيبته وفاجعته على وطنه المغتصب وصفا كان ابرز وابلغ من المعنى الذى جاءت به الخنساء . فالعوني يصف هذه الناقة التي فارقت ابنها وظلت تحن وتصيح عليه حنينا مفزعا مبكيا . ثم بعد ان يصف عظمة لوعتها وشدة فاجعتها يرجع ويستهتر بها قائلا : تبا لك من ناقة تحنين وتصيحين على شيء تافه لا قيمة له بجانب مصيبتي وكارثتي التي جدير ان ابكي من اجلها وانتحب دمعا يتلو الدمع حتى تكف عيناي وينضب ماؤهما من كثرة البكاء والدمع المنهمر ، وها هو العوني يصف الناقة بمطلع قصيدته الآتية :

خلوح تجذ الكلب باتلا عوالها	١	تكسر بعبرات تحطمن اسلالها

الى ان قال :

لا تفجعين الكلب بالله هودى	٢	واللي خلوح خمث العين بالها

١- كأنه شاهد ناقة فارقها ابنها فظلت تتابع الحنين والعويل .

٢- بشكل مفجع يثير الشجون ويذكر المحزون والولهان حزنه ، وكأنه بهذا البيت يقول : فماذا يفيد البكاء ايتها الناقة ؟ فاذا كان لابد من البكاء فانني احق منك بالبكاء والعويل :

لو البكاء يا ناق يرجع الغائب	٣	بكيت حتى العين يبيس شالها
ابكي على دار ربينا بعزها	٤	معلومها خشم الرعن من شمالها
هي امنا وحلو مطعوم دارها	٥	فذقنا وربتنا وحنا عيالها
برو ربنا ما مثلها بكرم الضنا	٦	وصول بنا لكن نسينا وصالها
ولا احد جزع من صيحته يوم سلمت	٧	ولا حد نشد من بعد ذاوش جرالها
قلت آه واويلاه يا خيبة الرجا	٨	كيف امنا تهضم وحنا عيالها

٣- لو ان البكاء يفيد الباكي او يرجع الغائب لكنت ابكي واسكب الدمع من عيني حتى ينفذ ماء العينين .

٤- انني حينما ابكي فانما ابكي على وطني ، يقصد بذلك مدينة " بريدة " التي هي الآن عاصمة القصيم. وهو يصف موقعها الاستراتيجي بقوله " معلومها خشم الرمن من شمالها " .

٥-٦ ويقول في البيت الخامس والسادس ان بلاده يقصد القصيم بصورة عامة . ويخص مدينة (بريده) بشكل خاص يقول انها كالام الحنون التي لا يوجد لها مثيل في حسن تربية البنين وعطفها على ابنائها وتانينها بهم ورعايتها لهم ، ولكننا لم نكن اولئك الابناء الاوفياء المبررة بها . بل انها نسينا برها بنا وعطفها وشفقتها علينا .

٧- ان والدتنا هذه الحنون ، قد سلبت البستها وبكت ومع ذلك لم تجد من يغضب ويثار على حرمتها التي مزقت وهتكت كما انها لم تجد من ابنائها من يسأل عن سبب بكائها .

٨- اه واحسرتاه ، كيف نترك هذه الام الحنون يهضم العدو حقوقها ويمزق حرمتها ونحن - ابناؤها - ننظرها رؤية العين وجها لوجه : ثم يأتي بعد ذلك ويقول مهيجا في البيت الاتي : واعظم من ذلك ان مشايخ وطنكم من آبائكم واجدادكم يهين العدو كرامتهم ويضربهم بالسياط بدون ذنب اقترفوه فاصغ اليه يقول :

شبّا بكم تضرب على غير موجب ٩ من عقب كبر الجاه تنتف سبالها

٩- ان مشايخ البلاد يضربهم العدو المحتل لبلادكم بدون اى سبب ويهين كرامتهم ويسلب شرفهم ، ويجز شعر ذقونهم ((واهالي نجد اذا شاء الحاكم ان يهين الفرد اهانة مابعدها اهانة ،يحلق شعر لحيته)) . ويقصد بالعدو عبد العزيز بن رشيد ، وبعد ذلك تجده يستحث همة قومه ويندبهم مستغيثا بشهامتهم فيستصرخهم بالكنية التي تثير

حماسة الافراد والجماعة من اهالي القصيم كقوله :

اولاد علي ان الليالي قصيرة ١٠ ولا للفتى غير الثنا من نوالهـــا

اولاد علي اليوم ماهو باكـر ١١ قوموا بعزم الليث ماض فعالهـــا

١٠- هنا نجد العوني يستثير هم بني اقليه اهالي القصيم بقولـه : "اولاد علي" هذه لغة يكنى بها جمع ساكني القصيم . ان الحياة كلها قصيرة المدى وكل شيء يملكـه المرء منها فان مصيره الفناء ،اللهم الا الثناء العاطر فهذا هو الشيء الخالد .

١١- فلا تتأنوا بل اهتموا في انقاذ بلادكم اليوم قبل الغد . ولتكن وثبتكم وثبة الليث المجرب الفاتك .

وحيث ان اغلب سكان القصيم في ذلك العهد كانوا قد هاجروا من بلادهم وتعاطوا مهنة التجارة وتركوا الحروب والامور السياسية . لهذا نجد الشاعر يقول في البيـــت الاتي ان هذه الفرصة احوج مايكون به الوطن لمساعدتكم اياه وانتفاعه بكهولهـــذا يقول :

اولاد علي اليوم ذا وقت نفعكم ١٢ لا رحم ابو نفس تتاجر بمالهـا

١٢- يقول : ان يوما كهذا اليوم هو الذي ينتظر الوطن منكم به النفع والنجدة . ثم يعـود ويقول في المصراع الاخير : قبح الله النفس التي لا هم لها في الحياة الا التجـــارة ونسية المال .

والقصيدة تبلغ ستة وسبعين بيتا . وقد اوردت منها اهم الابيات ذات الصلـة المباشرة بتاريخ الاحداث التي كان العوني الجهاز المحرك لها

ولما كان الكثير من اهالي القصيم يمتهنون حرفة التجارة ذهابا وايابا من والى الجزيرة فقد تعمد العوني ان يأتي بمعان في قصيدته يكون لها الاثر الفعال بتزهيده بني قومه بالاعمال

التجارية رائها ان يجعلهم جميعا رجال حرب . ولذلك تجده يقول لرسوله الذى بعث معه القصيدة المتجه من الكويت الى الشام .

الى جيت (سوق العصر) تأتيك فلمه	١٣	تخضع بزهنات الحرير تعالهـــا
يقولون ياصاح حطنا حلومـــــك	١٤	بلدان نجد بعدنا وش جرالهـا
فقل كل بلدان نجد وغيرهـــا	١٥	كل زما من دون جالها رجـالها
" الا كم " من عليكم تندب الثرى	١٦	تبكي على الماضين واعز تالهـا
لعبوا بها الاجناب لو لا رحم حيكم	١٧	والعيش بالبلدان شتت شمالهـا

١٣ـ اذا وصلت ايها الرسول (سوق العصر) فسوف تجد فتيانا يتوشحون بالحلل القشيبة المنسوجة من الحرير ، ستجدهم يتبخترون في هذه الحلل تبخترا باطنا بانعالهم اطرافها . " المعنى الذى في البيت مطابقا لمعنى البيت الذى جاء به حسان ابن ثابت مادحا ملوك دمشق وقتها عندما قال :

يمشون بالحلل الضافي نسجها مشي الجمال كالجمال المـزل

واذا كان حسان بن ثابت قال هذا البيت في الغساسنه الساكنين دمشق ـ فان العوني قال بيته هذا باهل القصيم الذين نزحوا من بلادهم واستوطنوا الشام ـ (سوق العصر) الذى اشار اليه الشاعر . فانه يقصد حي ـ الجزماتية ـ الكائن في حي الميدان الوسطاني الذى الآن اصبح ـ موقفا للسيارات العمومية ـ وهذا المكان هو الذى كان (القصمان) او (العقيلات) يقطنون فيه . ويتجمعون في قهوة هناك .

١٤ـ سوف يسألك ايها الرسول هؤلاء الغلمان عن اوطانهم قائلين لك ماذا جرى لبلادنا نجد بعد ان نزحنا عنها ؟ . . اذا سألك هؤلاء هذا السؤال .

١٥- فقل لهم جمع مدن نجد وقراها - تولي صيانتها وحراستها سكانها الرجال الابطال .

١٦- ماعدا (امكم) يقصد القصيم بصورة عامة . كما يعني مدينة بريده - بمفهوم اخص واشمل- فيقول ان وطنكم ايها الفتيان يندب الويل والثبور . ويبكي ناعيا اباءكم الذين مضوا وانقضوا .

١٧- لقد هتك الاعداء الاجانب حرمة الوطن وهدروا كرامة المواطنين - وشتتوا شمل نسائكم

قوموا بهدى الله واقضوا دينكم	١٨	انتم هلل القالات منتم رذالهـــا
مادام ابو جابر على العز والبنا	١٩	هنا ثقيلات الحمول ارتكالهـــــا
اذا احترك سمع القبائل تحركت	٢٠	واذا رس ترس رواسي جمالهـــا
دعونا براعيكم ابو ثامـــر	٢١	ابو كلمة يافي بها حين قالهـــا
عرق السخا بحر الندى مرهق العدا	٢٢	اذا اشتدت الهيجا تعرفه رجالهـــا

١٨- يقول مستحثا قومه : قوموا وخذوا بثأركم فانتم خير من يأخذ بثأره لانكم لستم قوما جبناء .

١٩- وما دام ابو جابر عزيزا وباقيا ،فانه سوف يساعدنا ويحملهناء العبء الثقيل في مجادمة العدو . وقوله "ابو جابر" يقصد به امير الكويت آنذاك " مبارك الصباح " الا تراه يستطرد بمدحه فيقول :

٢٠- ان " مبارك الصباح " اذا قام في امر يقوم لقيامه سمع من القبائل في جزيرة العرب . واذا أخلد الى السلم اذعنت لاخلاده هذه القبائل وسكنت كسكون الجمال الراسيات .

٢١- ينتقل هنا في هذا البيت والذي يليه فيذهب يمتدح "سعدون بن سعدون" الذي يكون ابرز رئيس من رؤساء عشائر العراق آنذاك . وهو المكنى بابي ثامر فيقول لقومه : دعونا نتمسك باهداب ابي ثامر بالاضافة الى تمسكنا واعتصامنا بقوة مبارك الصباح .

٠٠/٠٠

٢٢- وفي هذا البيت الاخير يختتم مدحه لسعدون فيثني عليه ثناء عاطرا ويصفه بانه عريق في كرمه .

وانه بحر الندى ومرهب الجانب عند الاعداء . وقد كان آخر القصيدة كلها ثناء ومدح لسعدون على اعتبار انه زعيم قبيلة المنتفق في العراق ذات الحول والطول حينذاك .

كانت قصيدة العوني هذه من اهم العوامل الرئيسية التي اججت نار الاحقاد الكامنة في نفوس اعداء ابن رشيد والهبت جذوة الضغائن الراسخ جذورها بين جنبي كل مواطن من اهالي القصيم - الذين تركوا تجارتهم، وجاءوا جماعة وافرادا قاصدين الكويت. وملتفين تحت راية وقيادة الزعيم الطموح الشيخ مبارك الصباح الذي تجمع عنده نخبة قادة الجزيرة العربية من الحضر والبدو - ويكفي دليلا على ذلك وجود زعيم الجزيرة العربي الاصيل بزعامته الا وهو الامام عبد الرحمن الفيصل آل سعود مضاف اليه آل مهنا زعماء مدينة بريدة وقسم من آل سليم زعماء مدينة عنيزه - هؤلاء الحضر اما الزعماء البدو فهم ابن هذال زعيم العمارات وابن حثلين وابن منيخر رئيسا قبيلة العجمان والدوشان رؤساء قبيلة مطير ويضاف الى هؤلاء واولئك الشيخ سعدون بن سعدون رئيس قبيلة المنتفق ومن تبعها من قبائل العراق - وكل من ابن حثلين وابن منيخر والدوشان موجود قبائلهم معهم - زد على ذلك ان الاقليمية الساحقة من اهالي نجد وان لم ينضموا الى جيش ابن صباح - فان قلوبهم مع ابن صباح بما في ذلك الذين تحت حكم ابن رشيد - بل حتى الذين يحملون السلاح بجانبه فان قلوبهم مع ابن صباح بل مع زعيمهم الاسبق الامام عبد الرحمن آل فيصل آل سعود - اللهم شعر قبيلة ابن رشيد حضرا وبدوا فهؤلاء بطبيعة حالهم مع رئيسهم بصفته ابن عمهم ولا محيص من ان يقاتلوا بجانبه - بل

يقاتلون حما بالمدا ٠

يقاتلون حما بالمدا (اعتقد الشيخ مبارك انه منصور لا محالة) ٠

كان الشيخ مبارك الصباح واثقا وثوقا راسخا ان النصر سوف يكون بجانبه- بل اوشك فعلا ان يكون هو المنتصر - لولا ان رحى المعركة اخلفت ظنه . والحرب دائما كالقمار ٠

ومن الادلة التي تثبت ان الشيخ مبارك ومن تبعه من المحاربين كانوا جميعا واثقين بالنصر ،الدليل على ذلك - ما انشده احد الفرسان الذين تحت قيادة مبارك حيث قال

يالابتي توى شربت الكيف من يوم ابو متعب طهر

نبغي نطارد مكرمين الضيف شعر هلال لهوش العفر

يقول هذا الشاعر في البيت الاول - الآن طاب لي ان اسر واطرب من حين ان بلغني الخبر ان (ابو متعب) خرج من بلاده حائل واصبح سهلا علينا محاربته ،يقصد بابو متعب الامير عبد العزيز الرشيد - وفي البيت الثاني يقول نود ان نطارد ونحارب قبيلة شعر الذين عرفوا باكرام الضيف - وهذا مما يدل ان العربي اذا اراد ان يحارب عنده العربي فانه غالبا ما يمدحه - كما يدل ان قوم ابن صباح كانوا متعطشين لمنازلة ابن رشيد على اعتبار انهم واثقون من النصر - اكثر من ذلك الرواية المتواتره التي يقول رواتها - ان هناك فارسين ركبا خيلهما وجاء كل واحد منهما يضرب فرسه بالسياط ليكون السابق الاول ليخبر مبارك الصباح ان ابن رشيد خرج من بلاده وبات في الصحراء التي تمكن الشيخ مبارك من سحقه سحقا نهائيا اضمن ما اذا كان في بلاده محاطا بانصارها يقول الرواة ان هذين الفارسين وصلا خيمة الشيخ مبارك متطيين جوادين بهما بصورة اصطدم جواد احدهما بالآخر الامر الذي تعذر ان يفوز احدهما بالبشرى التي ينالها من الشيخ مبارك - عندما يبلغه البشير منهما بان ابن رشيد خرج من بلاده ٠

٠٠/٠٠

ومما يجعلني لا استبعد صحة هذه الرواية المتواتره - هو ما سمعته من ذلك الشيخ الطاعن بالسن الذي من قبيلة - المرة - سمعت ذلك الشيخ الخفيف الدم والحركة - يقول انه من الجنود الذين حاربوا بجانب الشيخ مبارك الصباح - بمعركة الصريف ويقال لها الطرفية قلت ان ذلك الشيخ خفيف دم وحركة لانه كان ينتضي سيفه ويرقص امام المغفور له الامير فهد بن سعد . ونحن بالمقناص - الغنى في الحراء ويلحن ذلك الشيخ في رقصته الارجوزه الاتية :

يا مبارك وين اتودينـــا عس شعر حوالينـــــا

نكسرو الجبار مبارك الخ . . .

كل هذه الادلة تعطينا دليلا لا يقبل الشك بان الشيخ مبارك كان ضامنا لنفسه النصر - وذلك بفضل وجود تلك القوى التي تكتلت عنده - واذا كانت الدعاية في كل زمان ومكان من اكبر عوامل النصر . فان وجود الصوتي عند الصباح يقوم مقام اعظم وزارة اعلام في وقتنا الراهن .

وهكذا ظرب فرحا وسرورا الشيخ مبارك الصباح عندما ثبت لديه ان ابن رشيد خرج من حائل - قاعد العدة لمنازلته كما ان ابن رشيد هو الاخر جمع كل ما باستطاعته من القوة هو وابناء عمه الاداني من آل رشيد بصورة خاصة ومن قبيلته حضرا وبدوا بصورة عامة وكان كل من ابن رشيد وابن صباح يدرك جيدا ان الرابح لهذه المعركة سوف تتم له زعامة نجد - بل كان مبارك الصباح واثقا انه اذا تم له النصر في هذه المعركة فان السيادة سوف تتم له لا على نجد فحسب - بل وعلى الخليج العربي بكامله .

وفي عام ١٣١٨ هـ التقا الجمعان وحمي الوطيس وعلا صوت المنادي فترة من الوقـــت ثم خمد هذا الصوت - ولم يسمع صوت الا صوت اسنة الرماح - ونقع حوافر الخيل - ثم صمت ايضا صوت الاسنة بعد ان اختلط الجمع بالجمع - وبعد ان اصبح القتال العنيف الشديد يدور حول

الرايات التي هجم شجعان ابن صباح لمأخذوا رايات ابن رشيد — كما هجم فرسان ابن رشيد ولي مقدمتهم فرسان اسرة آل رشيد انفسهم ماجد وسالم ومهنا وسعود وسلطان وفيصل كل هؤلاء كان مقسم كل واحد منهم عهدا على نفسه بأن لا تقف جواده دون راية ابن صباح فاما ان يختطفها ويستولي عليها واما ان يقتل بجانبها وقد وفوا جميعا بعهدهم فقتل منهم الفرسان المشهوران سالم ومهنا قتلا عند راية آل صباح — كما جرح ماجد وسعود ، واما سلطان فقد استولى على احدى رايات ابن صباح — اما الامير عبد العزيز الرشيد فكان مستظهرا جواده يصول ويجول تارة يهجم على مبيرة اعدائه وتارة على الميمنة وطورا على القلب واحيانا " يلتفي " قومه — ويبث فيهم الحماس متقدما صفوفهم .

كانت تلك المعركة من أعنف وأشد تلك المعارك التي شاهدتها الجزيرة ، لقد أغبرت فيها الآفاق . وهلا في بداية المعركة دوى الرصاص بصورة تشبه المواعق — ثم صمت صوت البنادق ولم يسمع الا نقع حوافر الخيل — وحس أسنة الرماح — وصوت صليل السيوف — ثم سكت ايضا اصوات الاسنة وصوت سيوف الهند — ولم يسمع الا صوت الخنجر والمدية . وأخيرا ، انكتم هذا الحس . بعد ان اشتبك الفريقان بعضهما ببعض لكما بالايدي " ورفسا " بالارجل . وطوق كل فرد من المقاتلين خصر عدوه ، وحلت شجاعة الساعد وقوة العضلات والمناعة الجسدية محل شجاعة العقل ، وغشى الارض ماغشاها من غبار حوافر الخيل التي حرثتها حتى جعلت اسفلها اعلاها — ومن دخان الذخيرة التي جعلت الارض كالليل الدامس — وبلغ الامر من شدة ظلمة الارض درجة جعلت المقاتل من الطرفين عندما يجد صديقه مشتبكا مع احد الاعداء — لا يستطيع أن يميز عدوه من صديقه .

وكم قتل الصديق صديقه خطأ ، كما فعل محمد المرجان الذي وجد ابن خالته ((" صالح الخلف)) متشابكا مع احد جنود ابن صباح — وقد طعن المرجان ابن خالته ظانا انه العدو فاردماه قتيلا .

هذه صورة واقعية تعبر أصدق التعبير عن شدة وعنف تلك المعركة الحاسمة الشديدة الهول .

وهكذا بعد أن صمتت الألسنة وتوقف نقع حوافر الخيل — وسكت صوت صليل السيوف ، وخمدت اصوات الخناجر والمدى ات وتلاشت القوى الجسدية من كلا الجانبين .

بعد ذلك علت اصوات لها دوى مفجع ، ما هذه الاصوات ؟ انها اصوات انين الجرحى وهدير دم القتلى — ويصور لنا شهود الاعيان الذين شاركوا في تلك المعركة قائلين : انه عندما نزل المطر فوق أرض المعركة ومن ثم سال الوادى . عندئذ طغى دم القتلى والجرحى على ماء الوادى — بصورة لا تنظر العين لاى أثر من الماء وانما الشيء الواضح في ذلك الوادى هو زبد الدم الاحمر الهادر . وبعد هذه المعركة التي كان العوني المشعل لجذوتها والمسعر للهيبها — بعد ذلك انتصر ابن رشيد وهزم ابن صباح هزيمة ساحقة .

ومن أراد أن يطلع على تفاصيل هذه المعركة بصورة واضحة فما عليه الا أن يعود الى ما انشده شعراء ذلك الوقت وفي مقدمته الشعراء الذين وصفوا هذه المعركة وصفا دقيقا كأن المرء ينظر اليها الأمير حمود العبيد الرشيد وناصر العتيق وحمود بن جمهور — وساكن قرية " البره " وغيرهم من الشعراء الكثيرين الذين كانوا بمثابة الصحافة في ذلك الوقت بل هم السجل التاريخي الموثوق .

وحتى العوني انشد قصيدة وصف فيها هذه المعركة ، وصفا أراد أن يجعل النصر لابن رشيد مجرد قضاء الله وقدره ولكنه رغم ذلك لم يسعه الا أن وصف هول المعركة وصفا واقعيا كما سيرى القارئ بعد قليل قصيدة العوني .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو الآتي – هل يئس الشيخ مبارك الصباح من منازلة ابن رشيد بعد هذه المعركة ؟ وهل يئس العوني من التحريض على ابن رشيد واثارة الفتن في وجهه ونفخه للنار التي وان كان لهيبها أحرق امارة الرشيد على طول المدى – فانه في نهاية المطاف أحرق ايضا مشعل النار نفسه الذى هو العوني كما سيأتي توضيحا لذلك .

اذا كان الشيخ مبارك يئس فان العوني لم ييئس

يلتقي الشيخ مبارك الصباح والعوني على صعيد واحد من حيث الطموح ، ولكنهما يختلفان اختلافا كليا من حيث الوسيلة – فالأول طموحه يجعل خياله وفكره يسرحان بأن يكون الحاكم المهيمن على نجد وعلى الخليج العربي ، فيما لو قدر له أن ينتصر على ابن رشيد – اما وقد هزم فان طموحه تحطم نهائيا ، وبات لا يفكر الا ببذل الوسائل الناجحة التي تضمن له البقاء اميرا على بلده الكويت الذى يبتدىء بالكويت وينتهي اليها .

اما الثاني فان طموحه الذى لا حصر له واحلامه وافكاره اللذين يورقانه تارة ويسليانه تارة أخرى ، فانها تسرح وتغدو حول امنيته في تحقيق الاهداف التالية :

اولا) منتهى ماتصبو اليه همة العوني وأقصى مايتمناه – أن يجد الحاكم الذى ليس له من الحكم الا الصورة ، والاسم ، اما الادارة والتنفيذ والرأى والحل والعقد فيجب أن تكون هذه المعاني كلها بيده .

ثانيا) همه ومبتدئه ان يظفر بالحاكم الذى يقوض صرح امارة الرشيد . اولئك القوم الذين رضع هداوتهم طفلا ونمت في كيانه وتمكنت في دمه بكل مقوماتها .

ثالثا) أسس لتأسيسه ومنتهى سعادته التي لا يعادلها عند العوني أية سعادة هي في أن يرى بلاده بريده ، هي العاصمة لنجد — او على الاقل تكون بريده بصورة خاصة ، والتقسيم بالمفهوم العام مستقلا استقلالا كاملا غير خاضع لنفوذ وسيطرة اى حاكم — وان يكون هذا الاستقلال — مقيدا بالنسبة للعوني بشرطين : شرط مهم وشرط اهم . فاما المهم هو ان يكون الحاكم للتقسيم من سلالة عبد الله بن مهنا — ابا لخيل — واما الشرط الاهم ، بل والرئيسي والاساسي والاول والتالي هو ان يكون الحاكم آلة صماء بيد العوني لا يبرم أمرا — الا بمشورته ولا ينفذ اى شيء طالم يكن العوني آمرا به او ناهيا عنه .

وهكذا يقدر ما نجد الشيخ مبارك بعد أن دخل بلاده مهزوما (١) — يئس وقنط ، ولم يخطر له ببال أن ينازل ابن رشيد — بقدر ما نجد العوني رفض الاستسلام متمردا على المنتصر متحديا له غير معترف له بأن انتصاره هذا سيكون هو الانتصار النهائي كما أنه رافض أن يعترف بأن هذه الهزيمة هزيمة لا كرة بعدها .

وهكذا نجد العوني ذهب ينشد قصيدة بعد تلك المعركة — بصورة مباشرة — وفي قصيدته هذه معان يقول فيها ان الفرار في الحروب ليس عارا ولا عيبا ، ولكن العيب بالفرار

---

(١) هناك مثل دارج ومشهور عند رجال نجد القدامى ، وهذا المثل هو الآتي :

" دخلت مبارك الكويت " ، يؤتى في هذا المثل في المناسبات المشابهة للاسلوب الذى انتهجه الشيخ مبارك في دخوله الكويت بعد تلك الهزيمة التي لم يفكر أن يخرج من بلاده محاربا .

او الهزيمة التي لا يحاول بعدها المهزوم ان يكر على عدوه :

اخذا الثار منه ـ ثم يمضي قائلا : ان النصر بيد الله يؤتيه من يشاء ، وها هـو يورد دليلا من صميم تاريخنا العربي والاسلامي . فيقول : ان الله قد ينصر الظالم استدراجا له . وقد لا ينصر صاحب الحق امتحانا لايمانه . ويؤكد صحة قوله هذا ، في وقوع المعـركـة التاريخية التي انتصر بها المشركون على النبي محمد (ص) وهي معركة " أحد " .

وانك لتجد العوني يصف هول معركة الطرفية وصفا تاريخيا كان القارىء يشاهد هـا رؤية العين . والقصيدة تبلغ اربعة وثلاثين بيتا أغلب معانيها او كلها تدور حول ما يريـد الشاعر من شحذ هم قومه المهزومين . واستعادة الشجاعة الى نفوسهم ، وطرد اليأس والبـأس والقنوط والاستسلام منهم .

ولما كانت القصيدة من أصدق المراجع التاريخية التي نستند اليها في حالة كهذه ، فانه ليطيب لي أن أورد بعضا منها ، وخاصة الابيات التي تعتبر ترجمانا ناطقا في وصـف الشاعر لتلك المعركة ـ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تعبر لنا عما ذكرته سابقا من عـدم قنوط العوني ، وقوة شكيمته ، وهذ مطلع القصيدة :

بديت بشكر رزاق البرايـا (١) طيم الحال غفار الخطايـا

وقد استطرد في سرد قصيدته هذه حتى وصل الى تصويره ووصفه لتلك المعركة التـي تسمى بمعركة الطرفية ، ومنهم من يسميها " معركة الصريف " نسبة الى الارض التي وقعت فيها المعركة ، فيذهب العوني بوصفه لهذه المعركة فيقول :

وحل الموت بالعروق الصريف (٢) يشيب الطفل زلزال الصبايا

١) البيت الاول لا أعتقد أنه يحتاج الى شرح اذ أن كل ما فيه هو أنه يوضح لنا بأنه ابتدأ بشكر الله ومعونته وحمده والثناء عليه تعالى .

٢) اما في البيت الثاني الذى بينه وبين مطلع القصيدة ما يقارب خمسة عشر بيتا ولكني لفتت به لبعد الابيات التي قبله من علاقة البحث ولقربه لصميم ما نحن بصدده من بعد فهو في هذا البيت يصف لنا مكان المعركة اى أنها بموقع يقال له " العريف " فيقول ان هذا المكان دنا منه الموت على الخصمين . ويوضح أنها معركة يشيب الطفل من هولها ومن زلزلة وصوت خيول الخصمين كلمة " السهايا " يقصد بذلك الخيل ثم ينتقل ويصف المعركة في البيت الذى يلي هذا بصورة لأن القارىء يشاهد دوى المنادق ويسمع اصواتها ويؤكد العوني بأنها كقعقعة الرعود والصواعق كما وصف ذلك بقوله :

وحس الصمع مثل ارعود صيف (٣) وحوش الموت وردوه الطنايا

٣) ينعت الشاعر المعركة فيقول ان ازيز الرصاص ودوى المنادق اشبه ما يكون بحس رعود الصيف . وفي المصراع الاخير يصف خصمه قبيلة ابن رشيد فيقول انهم هجموا على حياض الموت وانهم استماتوا ، وكلمة " الطنايا " اسم من الاسماء التي تكنى بها قبيلة ابن رشيد وهم " شمر " والعوني يثني على شجاعة هذه القبيلة ويكنيهم بأحسن الكناية التي يكنون بها " الطنايا " وهذا الاسم ينتخي به رجال شمر في الشدائد فمعناه " الابية " والعوني يسلك بشعره الثناء على شجاعة وبطولة خصمه وينسب عنه انه يقول من الخطأ ان يهزم الانسان من قناة خصمه ويصمه — بالجبن ، ويقول : اذا وصفت خصمك بالجبن فان انتصرت عليه فلا فضل لك على انتصارك هذا .. وان انتصر عليك وهجوته بالجبن فمعناه انك اجبن منه ، ثم انتقل وقال :

وحل الضرب بأرقاب الرشيد (٤) وعرفوا مالهم فيها بقايا

وعمّا الله وله في أمره مراد (٥) تعالى الله عن قول الزرايا

فلا نصره دليل على رضاه (٦) يكون "ماجد" كسر سيد البرايا

ومن عقب زاد هم ضده بجند (٧) اخذ هم عنوة ما به عطايا

٤) يقول العوني "وحل الضرب بأعناق الرشيد" اى اننا في تلك المعركة لم يكن قتلنا محدودا على الطبقة الوسطى من القوم بل اننا لم نضرب الا اعناق آل الرشيد ، وهو يشير بذلك الى من قتل وجرح من نفس اسرة آل الرشيد في ذلك اليوم . فقد قتل كما اسلفت اثنان من أبرز وأشجع وأفرس امراء آل رشيد وهم "سالم ومهنا" ، وقد رثاهما والدهما حمود العبيد بقصائد شعبية مفجعة ، وليس هنا موضع لسردها فهي محفوظة في دواوين الشعر الشعبي خطيا . كما انه في تلك المعركة جرح ايضا "ماجد" الذى هو من انبل واذهى وأعقل الامراء الرشيديين ، كما جرح أخوه "سعود الحمود" وكل هؤلاء الخمسة الجرحى والقتلى كل منهم ابناء رجل واحد ، وقد سبق أن ذكرت بأنه السبب الذى جعلهم يكونون وقودا لتلك المعركة ، هو انهم اعطوا على انفسهم عهدا فيما بينهم بأن يهجم كل منهم على راية العدو وينزعها من يد صاحب الراية او يقتل عندها . وأخذ الراية من يد صاحبها لم يكن بالامر السهل اولا ؛ ان الراية هي عنوان العز ، فاذا اخذت معناه انهارت جبهة الخصم الذى اخذته رايته . ثانيا ؛ ان الراية عادة لا توضع الا بيد أشجع القوم كما انه يختار بجانب صاحب الراية كتيبة من البواسل الافذاذ ليكونوا صفا واحدا من اجل ان يقاتلوا ويدافعوا بجانب صاحب الراية لئلا تؤخذ منه . ولذلك قتل من قتل وجرح من جرح من بيت الامارة ، وذلك ثمنا لاخذ هذه الراية التي تم الامر بالنهاية بأخذها . وفي المصراع الاخير من هذا البيت يقول العوني ؛ ان العدو أيقن وعرف بألا نصر له بعد أن رآنا صددنا هجومه وقتلنا

صناديد رجاله وفرسان اسرته ، ولكنه يستدرك ويقول ان الامر امر الهي فوق مقدرتنا وارادتنا لان الله شاء ان ينصر ابن رشيد في النهاية ، رغم ثباتنا وما أبديناه من بطولة امام العدو المهاجم .

٥) رغم هذا كله أراد الله أن ينصر العدو علينا فيقول : ان لله بذلك حكمة فلا علينا الا ان نؤمن بقضائه وقدره ونستسلم لمشيئته فهو تعالى أجل قدرا من أن نظن به السوء .

٦) ثم يأتي في البيت الذى يليه ويقول : يجب أن نعلم ان المنتصر لا يدل نصره على أن الله راض عنه ، ويستشهد على ذلك في وقعة " أحد " وهي المعركة المشهورة التي حدثت بين النبي صلاة الله وسلامه عليه وبين مشركي قريش . وذلك في يوم السبت في النصف من شهر شوال في العام الثالث للهجرة ، حيث انتصر بها المسلمون في بداية المعركة . ولكن كانت النهاية ان انتصر المشركون بسبب اهمال الاولين للخطة الحربية التي رسمها لهم النبي (ص) فانتهز هذا الاهمال خالد بن الوليد الذى كان قائدا على خيل المشركين قبل اسلامه . انتهز فرصة اهمال المسلمين لهذه الثغرة فهجم بخيله . وكان هجوم خالد سببا لانتصار المشركين وهزيمته على المسلمين الذين طوقهم خالد بخيله من الخلف .

فالعوني يستشهد بهذه المعركة في هذا البيت قائلا لو أن الخصم المنتصر يدل نصره هذا على رضاء الله عنه ، لو كان الامر حقا بهذه الصفة لما انتصر مشركو قريش الوثنيون على المسلمين الموحدين المؤمنين .

٧) اما في البيت السابع الذى يليه فيؤكد بأن النبي (ص) بعدما هزم في أحد لم تخر قواه ويستسلم للعجز ، والجبن ، والهزيمة . بل يقول : انه على الفور قام بتجهيز جنوده ثم واصل الحرب فورا واقتفى أثر العدو والمنتصر في عقر داره غزوة تلو الغزوة ، حتى كانت الغلبة

والنهاية للنبي (ص) ويؤكد أن غلبة النبي كانت غلبة المنتصر الفاتح بدون معاهدات ولا قيود ، مشيرا الى غزوة النبي لمكة وفتحه لها بدون قيد ولا شرط. وهذا معنى قوله " أخذهم عنـــوة " ، اى استولى عليهم بالقوة بشكل لم يجعل للمغلوب مجالا لاخذ العهد على دمه وماله.

٨) ويقول في البيت الآتي ان من يحاول أن يقوم بمعادمة خصم قوى ببأسه ورجالـه ، فعليه أن يثبت ويتحمل جميع الصدمات فيضرب مثلا بقوله :

من حاول هـــدم جدار دار (٨) صبر اذا صابه منه شظايـــا

يقول اذا شئت أن تهدم قصرا منيعا يجب أن تصبر اذا أصابك من أنقاضه أثر. وكأنه يقول اذن فكيف بمن يحاول هدم مجد امارة آل الرشيد المبني القائمة على أساس وطيد مـــن التعصب القبلي والحمية العصبية القوية الراسخة . ثم يقول بالبيت الذى يليه مايؤكد به بـأن انتصار العدو لم يكن عبثا لان النصر بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء . ومادامت الحالـة هذه فلاعيب على الفتى اذا غلب بساحة الحرب . كما جاء بقولـه :

ولا عيب للفتى غلـب الحريب (٩) امور بأيـد غفـار الخطايا

ولكن عيب الفتى دون العيوب (١٠) وترك الثار من بعد الرزايا

وتطنيب الرفاه من بعد الهدير (١١) وطلب الصلح من بعد الهوايا

٩) يقول في البيت الذى مطلعه ولا عيب .. كما سلف شرحه بألا عيب في غلبة الحرب.

١٠) وفي البيت الذى يليه يقول : ولكن العيب على المرء والخزى هو ارتكاب العـــار وخنوعه واستسلامه لمن يغلبه بدون أن يفكر بأخذ الثأر من عدوه.

١١) ويذهب في البيت التالي بالمعاني ذاتها ، فيقول والعيب ايضا والعار هـــو ابداء الضجر والملل والتذلل بعد الاعتزاز بالنفس والشموخ بالانف . وفي المصراع الاخير مـــن البيت الحادى عشر يشير الى الشيء الذى يخشى أن يفعله الشيخ مبارك الصباح بشكل وضيع

فيقول : ان العار هو طلب مصالحة العدو ومسالمته بعد أن ضربنا العدو ضربته القاسية[1] . وجميع الابيات الاخيرة ملمئة بهذه المعاني التي تشير الى الجلد والمثابرة والكرة على العدو . ولكن يبدو أن الشيخ مبارك الصباح والشيخ سعدون لم يكن لديه اى تفكير في منازلة ابن رشيد او محاربته وجها لوجه وان كان لا يدخر وسعا من حوك الفتن في وجهه سرا ومن وراء الستار ..

شتان بين مغامر لا يخسر شيئا ومغامر يخسر كل شيء

أراد العوني بقصيدته هذه أن ~~يستثير~~ يستثير همة الشيخ مبارك آل صباح ليعيد الكرة تلو الكرة في منازلته لابن رشيد ، لعله ينتصر على هذا العدو اللدود الجبار ، ولكن الشيخ مبارك رجل دولة ينظر الى نتائج الامور وعواقب الاحداث بعين تختلف عن العين التي ينظر بها العوني .

واذا التقى الشيخ مبارك والعوني على صعيد واحد من حيث الوسيلة التي جمعتهما في بداية الامر وجعلت الاول يقدم على تلك المغامرة الخاسرة فانهما يختلفان في الغاية ، ويختلفان في المنزلة الاجتماعية — ويختلفان اكثر وأكثر في ضخامة المسؤولية وجسامتها . فشتان بين مغامر صعلوك مشرد كالعوني — لم يكن بين يديه ولا من خلفه اى شيء يخسره . فيما اذا غامر وفشلت مغامرته حتى ولو سقطت الكويت بيد الامير ابن رشيد — وبين حاكم مسؤول وسياسي محنك وعاقل يأخذ بالحكمة القائلة : لا يلدغ المؤمن من جحره مرتين .

وشتان بين الاول الذى اذا غامر وفشلت مغامرته فان هذا الفشل لا يؤثر عليه اكثر من ان يسقط من الارض الى الارض ، وبين من فشله بمغامرته يجعله اذا فشل وسقط فان سقوطه

---

(١) ليت العوني حيا لينظر بعينيه جبناء العرب الذين يحيون خانعين طالبين مسالمة اليهود والذين مرغوا كرامة العرب وشرفهم بالتراب .

سوف يتدحرج به من أعلى القمة الى أسفل السافلين .

وبالتالي هناك بون شاسع لا حد له بين العوني الذى اذا خاض غمار معركة ضد ابن رشيد ومن ثم كانت النتيجة فشل مغامرته هذه وانتصار العدو ـ فانه باستطاعته أن يذهب الى هذا المنتصر اى عبد العزيز بن رشيد وينشد به قصيدة كلها ثناء واطراء وسبك معان تحمل طابع الاعتذار فهو الذى يبرر ما اقترفه من أخطاء وان كان ذلك الاعتذار فيه معان تحمل منتهى الخنوع والذلة ، كما فعل باعتذاره من الامام عبد الرحمن الفيصل في قصيدته الدالية ، تلك التي سوف نورد ها في مكانها المناسب ، ومطلعها :

لا بأس ياعين بدت تنكر النوم عافت سواهيج الكرى يابن هذال

الى أن جاء بمعنى يحمل اعتذار فيه ذلة لا بعدها ذلة عندما قال :

انا لكم عبد عليك وماسوم ابغا ولا تلقي نواكم بالابدال

لا شك طبع العبد لو جاد ماشوم العبد به بوقه ولو صار رجال

بل باستطاعة العوني عندما تفشل مغامرته ويخسر المعركة ويكون الرابح لها ابن رشيد بامكانه أن يذهب الى عبد العزيز ابن رشيد ويدخل طيه ماشيا حبوا على يديه ورجليه ـ كما فعل ذلك مع عم الامير محمد العبد الله الرشيد .

ترى هل يمكن للشيخ مبارك الصباح أن يمثل دورا من هذه الادوار التي يقوم بها العوني عندما يلجأ الى ذلك .

نعم ان الشيخ مبارك من دهاة العرب البارعين بالسياسة والراسخين الباع بها ، ومن طراز الساسة الذين يأخذون بالمبدأ ـ الميكافيلي ـ أى الذى يرى أن الغاية عند الضرورة تبرر الوسيلة وهو المبدأ الذى لا يتورع العوني من الاخذ به عندما يطغى طيه هواه وطموحه كما

سنورد ما يثبت ذلك . أقول أن الشيخ مبارك كرجل دولة ربما تضطره الظروف المحرجة الى الاخذ بهذا المبدأ — بل جرب أن يأخذ به وانما انه غيره وتراجع عما كان ينوي فعله . جرب ذلك عندما كتب رسالة للأمير عبد العزيز المتعب ابن رشيد بعد هزيمته بمعركة الطرفية السالفة الذكر . وقد كان يطلب من ابن رشيد في تلك الرسالة عقد صلح وسلم دائم . وراح — يملي على رئيس ديوانه عبارات تحمل طابع الرقة او الدبلوماسية ، كما يقال الى درجة جعلته هذه الرقة يملي على كاتبه الجملة الآتية : " اعتبرني واحدا من رجالك المخلصين " . ولكنه عندما تدبر هذه الكلمة تراجع عنها (خشية أن يكون رجالك — تعني الخدام — ولذلك اتب الشيخ مبارك غيره وأبت نفسه أن يسجل عند التاريخ هذه الكلمة . فسرعان ما أمر كاتبه أن يمحوا هذه الكلمة ويضع مكانها " اعتبرني مثل سبهان " يعني وزير المال والرأى للأمير ابن رشيد وصهره

وهكذا يبدو لنا اليوم شاسعا وبعيدا بين مغامر لا يخسر شيئا اذا فشل في مغامرته وبين مغامر يخسر كل شيء اذا خانه الحظ ، وبين صعلوك طموح يحاول أن يبني من نفسه لنفسه مجدا من لا شيء ، وبين حاكم بنى له أهله مجدا يريد أن يحافظ على هذا المجد بشتى الوسائل ومختلف السبل ، لا التي تعرض هذا المجد وتلك الزعامة لمغامرة يقوده اليها شاعر متمرد كالعوني .

كأنه في سهات صعق وجاءه من يوقظه

حينما رأى العوني أن الشيخ مبارك أكثر عقلا ، وأشد حذرا من أن يغامر في مستهل امارته بمغامرة مجهولة المصير ، عند ذلك تفلت العوني يده منه وذهب ينقب عن وجود الزعيم ، الذى يملي طيه آماله في قناعة بمغامرة ضد ابن رشيد ، وفي اللحظة التي يقول الرواة عن العوني بأنه سابح في خياله يسرح ذهنه هنا وهناك ، طارقا في همومه التي تحدوه وتؤرقه ، محاولا أن يجد ضالته المنشودة ، في تلك اللحظة شعر كأن شخصا يوقظه من سباته العميق ،

مرضاً على ذاكرته شبح ذلك الفتى الثائر الذى كان همه دائما وأبدا التفكير في اعادة مجد اباءه ، او بالاحرى — كانت همته القعساء منصبة حول طموحه الذى يحدوه بأن يبني مجدا اثيلا وطيد الاساس شامخ البنيان يعلو سموا وارتفاعا وعنقا على مجد آباءه .

من هو هذا الفتى الذى وجد فيه العوني من وفرة الطموح ومن مؤهلات الزعامة . ومن رسوخ العداء والحقد على العدو المشترك ، القدر الذى اذا وضعه العوني في كفه ووضع في الكفة الأخرى الآمال التي كان يبنيها على الشيخ مبارك الصباح ، بدا له الفرق البعيد المدى واضحا كما يلي :

اولا) ان طموح الشيخ مبارك جاء نتيجة لفرصة طارئة . وعندما رأى التوفيق لم يحالفه في تلك الفرصة ، عاد نادما على عطية متراجعا عما قام به ، بينما طموح هذا الفتى يحدوه الى ان يعيد مجد آباءه الموروث — أو أن يموت قرير العين في سبيل مايصبو اليه في طموحه هذا وهمته .

ثانيا) بالنسبة للتباين الشاسع البون بين عداء الشيخ مبارك وبين عداء الفتى لابن رشيد يتضح ذلك بما يلي : في الحين الذى يرى الشيخ مبارك ان ابن رشيد لم يسلب منه شيئا يشعل نيران الحقد عليه — بينما الفتى يرى أن ابن رشيد اعتدى على سلبه الزعامة آباءه وأجداده .

ثالثا) من حيث رسوخ الزعامة ووفرتها بين الفتى وبين الشيخ مبارك — فبينما الاخير زعامته وزعامة أهله محصورة من والى الكويت تبدأ من هذا البلد وتنتهي فيه ، بينما زعامة أسرة الفتى راسخة الجذور فسيحة الارجاء ، شملت نجدا بكاملها وتسامر الخليج والحجاز وعسيرا حتى حدود [illegible]

ترى من هو هذا الفتى الذى وجد فيه العوني جميع أسباب الزعامة ومؤهلاتها ـ كما وجده خير من يوصله الى شاطئ السلامة ويسموبه الى قمة المجد مادام أنه ملتزم باهدابه ووفيا له بالعهد ؟

ان هذا الفتى الغني عن التعريف ـ هو الملك الراحل عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود موحد جزيرة العرب ـ ذلك العبقرى الذى سبق للعوني أن توسم فيه النجابة وطلب القيادة وذلك منذ أول يوم رآه العوني ، في الحين الذى كان ذلك الفتى لا زال يافعا ـ أجل رأى الشاعر على محيى عبد العزيز جميع مؤهلات الزعامة وعلامات النبوغ وأدلة العبقرية ..

وقد أضمر العوني فراسته هذه في نفسه محتفظا بها الى أن نمت مواهب الفتى الفكرية والاخلاقية كما نمت خلاله الجسدية .

لقد وثق العوني أن فراسته لم تخطئ الهدف في ذلك الفتى الفارع الطول الذى زاده الله بسطة بالجسم كما زاده بسطة بالعقل والسخاء والشجاعة ، وجميع الصفات التي يحبها الله لمن يختاره ويصطفيه لقيادة البشر .

واذا كانت أواصر الصلات والصداقة والالفة بين بني الانسان ـ لم تأت بصورة مرتجلة لا مقدمات لها ، فقد رأى العوني ان يقوم تجاه الفتى بعمل تمهيدى مؤملا أن يكون ذلك العمل النواة الاولى التي سوف تنمو بذرتها وتتناسق غصونها وتتسع ثمرتها ، فتكون أواصر الصداقة الرابطة بينه وبين الفتى راسخة متينة .

الفصل السابع
وجد العوني الفتى يحقق أهدافه

وهكذا جاء العوني الى الفتى مقدما اليه هدية تتجاوب مع الافكار التي تدور في ذهن الفتى وتسبح في خياله . وتداعب آماله ، وتدغدغ أمانيه

واذا كانت الاغذية وحقن الفيتامين تزيد الجسم قوة صحية ومناعة وحيوية ، فان في البيان والحكمة ما يصقلان المواهب ويشحذان الذهن ويذكيان شعلة الطموح .

واذا كان هذا البيان أو تلك الحكمة ، اذا جاءتا نظما يكون تأثيرهما في النفس أكثر من تأثير ومفعول النثر . فقد كانت هدية العوني للفتى الطموح عبارة عن قصيدة طافحة بحسان الحكمة والبيان المصحوبان بالحماسة والتحريض . ولما كانت القصيدة او الهدية تبلغ ثمانية عشر بيتا فان العوني قد تعمد أن يحصر خلاصتها في ثلاث معان فقط ، واليك خلاصة هدية العوني للفتى :

ثلاث معان يزرع المجد بينهن (٢) ويجنى الى راد الاله سليم
اولهن الرأى السديد بجزمه (٣) تودع بواليد الحديد رميم
والثانية صك الجباه بصارم (٤) يغشم اذا صار الحريب غشيم
والثالثة بذل النوال على الفداء (٥) وصبر على صعب الامور جسيم
ولا غير ذولى مسلك بوجب الثناء (٦) راجيه من دون الثلاث غشيم
ولا تدرك الطولات والمجد والمنى (٧) قوله عسى تدليه قلب فطيم

الشرح :

١) من أراد العلى فان سبيله مقيم غير مسفر . ولكن سبيل العلى لا يكون الا بالسيوف البواتر القاطعات " اى الماضيات " .

٢) يرى العوني أن المجد لا يبذر ولا تنبع ثمرته الا بين وجود ثلاث من المعاني يوردها في الابيات التاليات .

٣) المعنى الاول : الرأى السديد المصحوب بقوة الارادة التي تفل الحديد .

٤) والثاني مناجزة جبهات العدو بسلاح ماض فاتك ، وبضربة قاضية تقضي على قواه سيما اذا كان هذا العدو شديد البأس والبطش قوى الشكيمة والمراس .

٥) والثالث : بذل المال بشكل لا اسراف فيه ولا تقتير . ثم أضاف في المصراع جملة رابعة وان لم يذكرها وهو الصبر على صعاب الامور الجسام .

٦) لا يرى العوني أن ثمة مسلكا فيه سبيل للثناء والمجد الا هذه المعاني التي جاء بها . والذى يرجو الحصول على الثناء بدون هذه الامور فهو امرؤ أبله . وكلمة " فشيم " في البيت السادس لها معنى غير معناها في البيت الرابع ، فمعناها في الرابع بطاش . أما هنا فمعناها غبي أو أبله .

٧) ان العلى والمجد والاماني لا يمكن أن يصل الى ذروتها المرء بالتسويف والاماني الفارغة . فهذه الامور اشبه ماتكون بالالعاب التي يسكت بها الطفل أيام فطامه عن الثدي (الثدى) .

واذا كان المثل العربي يقول : يعرف المرء بهديته ولسانه ورسوله ، فقد وجد الفتى بهدية العوني الثمينة من المعاني المليئة بالحكمة والبيان والحماسة الشيء الذى جعله ينظر

اليه بعين ملؤها التقدير والاعجاب . فادناه منه وجعله من اقرب المقربين اليه .

نحن الآن في عام ١٣١٨هـ . واذا كان هذا العام هو الذى انتصر فيه عبد العزيز ابن رشيد على الشيخ مبارك الصباح ومن دار بفلكه ، ذلك الانتصار الذى يعتبر بداية النهاية لانتصاراته . فان هذا العام نفسه هو بداية انتصارات الفتى عبد العزيز تلك الانتصارات التي ابتدأت في استيلائه على الرياض وقتله لعجلان رئيس سرية ابن رشيد المرابط في الرياض . ثم استيلائه على القصيم بكامله ، ثم قتله للأمير الفارس المرحوم عبد العزيز بن متعب الرشيد ، ثم في عام ١٣٢٣ ـ ثم احتلاله لامارة آل رشيد وفتح حائل في عام ١٣٤٠ .

لا أريد أن ادخل في ذكر التفاصيل ذات الصلة في شرح تلك الحادثة عن فتح الرياض ، وعدم رغبتي في شرحها جاء نتيجة لبعض الأسباب التالية :

اولا) ان عشرات الكتاب والمؤرخين كتبوا عن هذه الحادثة كتابة مستفيضة ، ولا أعني الكتاب الذين من صميم بيئتنا فحسب بل حتى اخواننا الكتاب الذين جاءوا من الخارج ـ ويجهلون معرفة أدبنا الشعبي الذى هو عبارة عن الترجمان الامين الصادق في حديثه عن تفاصيل تلك الحادثة بصورة خاصة . وعن جميع الاحداث التي وقعت في تلك الحقبة التاريخية بصورة أعم وأشمل حتى هؤلاء ساهموا بالكتابة مساهمة وافرة .

ومادام أن تلك الحادثة اشبعت بحثا حتى طفح الكيل لذلك فانني أرى ان الكتابة في هذا الموضوع عبارة عن تكرار الاحداث والمعاني التي أشبعها المؤرخون بحثا .

ثانيا) بما أنني أكتب عن الاحداث ذات الصلة بحياة العوني والتي نجده ينشد فيها من شعره عندما يكون شاهد عيان لاية معركة عسكرية او سياسية معاصرا يركن اليها المؤرخ او المحقق بصفته يتحدث حديث من شاهد ورأى لا حديث من سمع . زد على ذلك أن العوني

يعطينا في شعره صورة واقعية للاحداث بعيدة عن التنطع والتنسق ، صورة منبثقة من صميم مجرى الحادثة السياسية التي عاشها ومعبرة اوضح التعبير وأصدقه عن تفاصيل المعركة السياسية التي خاض غمارها ، ولما كان فتوح الرياض لم يثبت لنا التاريخ قطعيا أن العوني ساهم فيه عمليا وان كان ولا شك ساهم فكريا ، فانني أرى من مستلزمات البحث الذى أجدني بصدده أن اتجاوز الكتابة المفصلة في تلك الحادثة ، اى فتوح الرياض ، مادام أن صاحب الترجمة لا صلة له مباشرة في تلك الحادثة .

ثالثا) وان كان العوني لم يساهم في فتوح الرياض بنفسه بصورة مباشرة فانه قدم لنا ملحمة تاريخية باستطاعة المؤلف أن يركن اليها كوثيقة من أصح وأصدق الوثائق التاريخية — وهذه الوثيقة سوف أضعها بين يدى القارىء بعد قليل .

مقابلة العوني للفاتح والحوار الذى دار بينهما قبل السلام

جاء العوني لعبد العزيز السعود بعد فتوحه الرياض مباشرة . وكان الفاتح وقتذاك فاتحا فالتقى به العوني معسكرا جنوب الرياض .

لم تسنح للعوني الفرصة بمقابلة الفاتح حال وصوله مباشرة بل جاء صباحا وظل في خيمة الضيافة اى كمالون الانتظار ينتظر بأن يؤذن له بالمقابلة ، ظل على هذه الحالة حتى قرب المساء بعد هذا الانتظار الطويل سمح له بالمقابلة .

تقابل كل من قائد الجحافل المغامر وقائد الفكر والعواطف . وقبل أن يتبادلا تحية اللقاء صاح القائد ، قائلا : قف يالعوني لا سلام بيننا الآن حتى تجيبني على السؤال الآتي :

العوني : هات سؤالك يا طويل العمر .

عبد العزيز : ناشدتك الله يا العوني ماذا كان يدور في نفسك من حديث خلال هذه المدة الطويلة التي تركتك بها بدون أن أسح لك بالمقابلة .

العوني : لم يخطر ببالي الا أن اصالك اصبحت كثيرة كفاتح جديد بحاجة على أن تؤلف الناس البعيدين الذين يحتاجون بأن تكسب صداقتهم وتضع معهم لك صداقة وطيدة . أما الصديق الحميم والوفي القديم كأمثالي فهذا لا يحتاج الى مجاملة من شأنها أن تضيع بها وقتك لاعتقادي انك واثق بأن اهمالك لي هذا لن يؤثر على الهادئ الأساسية التي تلتقي واياك بها على صعيد واحد .

عبد العزيز : سألتك الله ثانية ، أما خطر ببالك او دار في ذهنك أو تحدثت في نفسك بحديث غير هذا .

العوني : أقسم لك بالله أنه لم يخطر ببالي شيء سوى ما ذكرته لك ولكن . وسكت العوني —

عبد العزيز : افدني عما ذا تقصد بقولك ولكن ؟

العوني : ولكن أريدك تصارحني ، ما الداعي لهذا السؤال الذي القيته علي ؟ فسؤالك هذا يعني أنه خطر ببالك شيء خلال اهمالك لي هذا الاهمال الطويل . ولابد أنك ظننت أنه دار في ذهني حديث خلافا لما صارحتك به . أليس كذلك ياعبد العزيز؟

عبد العزيز : بلى . لقد خطر في ذهني بأنك تحدثت ونفسك خلال مدة الانتظار حديثا خلاف هذا الحديث الذي صارحتني به الآن .

العوني : ما هو الحديث الذي تظن اني اناجي نفسي به تلك الفترة ؟

عبد العزيز : كنت أظن أنه ذهب بك خيالك الى حديث تسر به لنفسك قائلا : ما أسرع مايتبدل الانسان وينسى اصدقاءه القدماء السابقين وذلك حينما يبلغ من الجاه والمنزلة الرفيعة

قدرا عاليا كعلو المقام الذى بلغه صاحبي الذى كان بالامس القريب لا يفارقني لحظة واحدة حينما كنا في الكويت . وعندما كان بحاجة الى محادثتي ومنادمتي . اما الآن فقد استغنى عني ولا حاجة له بي . ولهذا تركني أنتظر رحمته حتى يأذن لي بالسلام عليه بعد انتظار طويل ممل .

العوني : لا .. لا .. أطال الله عمرك ، ان هذه الخواطر لم تحدثني نفسي بها ولم تخطر لي ببال ، وذلك لثقتي أنك محتاج الي اليوم اكثر من حاجتك لي بالامس . ولعلمي ان امثالي من الرجال من النوع الذى لا يستغني عنهم زعيم مغامر وفاتح جديد كحضرتك يا عبد العزيز (١) .

عبد العزيز : مادامت هذه آمالك ، اذن ادن مني لنتسالم من جديد .

تعانق البطلان .. بطل المغامرات والسيف ، وبطل الادب والسياسة ، بل قل والسيف معا ...

---

(١) هذه المحاورة بين المرحوم الملك عبد العزيز والمرحوم الشاعر العوني رويتها من الشيخ عبد العزيز بن زيد الذى يؤكد لي أنه رواها عن العوني مباشرة .

* اذا كان الشعر الجاهلي مرجعا فان شعرنا القومي أوثق المراجع *

اذا كان الحقبة الزمانية التي يقال لها العصر الجاهلي يكاد تاريخهـــا أن يدرس ويضمحل بحكم الأمية لولا وجود الشعر الجاهلي ـ الذى هو خير مرجع يركن اليه ، فان الفترة التي سبقت توحيد الملك عبد العزيز لجزيرة العرب ، هذه الفترة . وان تصدى قسم من المؤرخين للكتابة عن جزء من تاريخها فان الجزء المهم منها ظل مسجلا ومحفوظـا في الشعر الشعبي الذى قل أن يتناوله بصورة مفصلة وعلمية أى واحد من المؤرخـــين .

أما اذا أردنا أن نتحدث عن تاريخ الجزيرة منذ مطلع عام ١٣٠٨ هـ الى مطلـع عام ١٣٤٠ .. فاننا وان وجدنا قسما من تاريخ هذه الفترة محفوظا في القصائد الـــتي أنشدها الشعراء الشعبيون ـ فاننا لن نجد شاعرا من شعراء تلك السنين قدم لنا فـــي شعره صورة حية ومستوفية الشرح والتفاصيل كصاحب الترجمة .

والواقع ان للعوني الفضل الكبير في نشائده التي ذهب يصور لنا الاحداث الـتي عاشها وشاهدها بل الذى كان فيها الجهاز المحرك لها ـ واللسان الناطق المعبر عنها بصورة لا تختلف عما يسمى الآن بوكالة الانباء أو وزارة الاعلام .

والشيء الذى يجعلنا نكون أكثر اهتماما بشعر العوني مما سواه من الشعـــراء الآخرين الذين عاصروا ذلك العهد . وأنشد كل منهم اكثر من قصيدة ذات طابـــع تاريخي ـ هو ان العوني مثل أدوار التاريخ السياسي والعسكرى في مطلع قرننا الهجرى الحالي ـ وحتى نهاية العقد الرابع منه وعاشه عند جميع حكام الجزيرة ابتداء من فـــترة فتوته التي قضى بدايتها عند آل مهنا أمراء بلاده بريده وشرقا تلك الرحلة الى رحلتـــه

التي قضاها عند أمراء البحرين آل خليفه — الى رحلته مغربا في إتجاهه نحو أمير مكـــه الشريف عون الى مسقره مشـملا ذاهبا الى امير حائل محمد بن رشيد — الى مغادرتـــه حائل وعودته مشرقا قاصدا امير الكويت مبارك الصباح وجلوسه عنده محرضا له — الـــى انتقاله مجنبا متيمما الرياض وملازما موحد جزيرة العرب الملك عبد العزيز — أوحينمـــا تنكر على عبد العزيز آل سعود . وجاء الى آل مهنا محرضا لهم ضد حاكم الريـــــاض عبد العزيز — أوعندما اتجه مشملا الى العراق واستقر عند شيخ مشايخ قبائل العـــــراق الشيخ سعدون وابنه عجمي السعدون — أوعندما حكم عليه القدر وعاد مشملا قاصدا عـدوه اللدود ابن رشيد الذى انتهت حياته السياسية عنده .

واذا كان للعوني أثرا أدبيا تاريخيا عند جميع أولئك الامراء والحكام سواء الذين جاءهم زائرا ، ولم تطب له الاقامة عندهم — أوالذين رغب الاقامة عندهم وذهب يحرضهـــم ضد خصومهم ثم عاد يحرض خصومهم عليهم — فان الأثر الأدبي الذى تركه هذا الشاعـــر في ملحمته التاريخية عندما كان بجانب الفقي عبد العزيز بن سعود جديرة أن تكون مـــن أصدق وأهم المراجع التاريخية . وملحمة العوني هذه تبلغ مائة وخمسا وثمانين بيتـــا ولا أرى مايدعو الى سرد القصيدة وقد طاب لي أن أختصرها على الوجه الآتي :

من أصدق الوثائق التاريخيـــــــة

على عليزة بالمبارق وردنـــا	١	ماخاب أبوتركي ولا أخلف وعدنا
جينا وحنا واثقين بلدنـــا	٢	نظن ظن الخير والضد مكـــار
بوم أتحملن اجمرعنا في دجى الليل	٣	والى غوى الحرب مثل القناديل
والطوب بيضرب دون رجال الوطن قبل	٤	شالوا شراع الشرعسين الافكار

ماجاء الضحى والنفس له ماتريده ٥ ماجد نما جائل وجلبهربـــــده

واقبل شبيه الليث والسيف بايده ٦ واضفى على الديره حسانيه ماجـــار

الشـــــرح :

١ — يقول فزونا مدينة عنيزة ونشرنا الرايات قاصدين فتحها وكان قائدنا ابوتركي أى عبد العزيز عند حسن ظننا به .

٢ — نحن عندما غزونا كنا واثقين بالنصر ، لان البلاد بلادنا ولا نظن الا الخير وان كان عدونا ماكرا .

٣ — كان هجومنا على بلدة عنيزة ليلا . ومن هول المعركة ترى اشتعال النيران البنادقيات في ظلام الليل كأنها اشعة كهرباء .

٤ — كما انك تسمع دوى المدافع بقوة شديدة . ولعدم توفيق العدو لم يستسلم بل كان عنيدا شريرا وذلك لضيق افقه .

٥ — ولكن لم يأت ضحى الغد الا وقد بلغت نفوسنا مناها بالظفر الذى تم لنا باستيلائنا على بلدة عنيزة . أما امير السرية الذى جاء ليحافظ على مدينة عنيزة وهو ابن عـــم عبد العزيز بن رشيد الامير " ماجد " هذا قد انهزم وقصد بلدته حائلا ولم يحرج على مدينة بريده التي لا زالت تحت قبضة ابن عم رشيد .

٦ — وقد جاء من يتصف بصفات الاسد وهو شاهر سيفه بيمينه جاءنا فاتحا لمدينة عنيـــزة . ولم يعاقب مسيئا بل كان عاد لا محسنا ولم يظلم احدا . يشير بوصفه هذا الـــى الملك عبد العزيز .

من هذه الابيات يوضح لنا العوني فتوح بلدة عنيزة وتخليصها من قبضة ابن رشـــيد . وذلك في الخامس من شهر محرم عام ١٣٢٢ هـ ثلاثة آذار ١٩٠٤ م ثم بعد ذلك ينتقـــل بنا الى فتوح بريده فيقول :

قال ابو تركي داركم منتوينـــا	٦	برايه واسبابه بليل ســـــــربنا
والصبح صبحنا ديار تبينـــا	٧	دسنا بهم معنا على الموسم الحار
جئنا وابن ضبعان بالقصرحارب	٨	والشيخ جانا قال كوده يحـــارب
أبـى وعـيا لاهس بالتجـارب	٩	والله له شان بحكمه وتدبـــــار
قمنا بحربه فوق تسعين ليلـــه	١٠	ولا قدرنا له بالاسباب حيـــــله
أغواه عرضه والمباني الطويـــله	١١	واللي يقول بكلمته نار وجـــــدار

٧ — لقد اكد لنا ابو تركي " يقصد الملك عبد العزيز " بأنه عقد العزيمة على أن يذهب لفتح بلدتنا " بريده " .

٨ — وقد وجدنا ابن ضبعان " أى الذى كان اميرا للسرية من قبل ابن رشيد " وجدناه محاصرا بالقلعة .

٩ — ولكن قائدنا عبد العزيز بن سعود تصدى لمحاربته وحصاره .

١٠ — لانه قد مارس الحروب وأصبح مجربا ومحنكا .

١١ — وهنا يوضح لنا العوني بأنه تم الحصار ودام الحرب مدة تزيد على ثلاثة أشهر كما يؤكد الشاعر بانهم بذلوا شتى الاسباب الحربية من أجل ان يستولوا على قائد القلعة ولكنهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا بل ان العدو ثبت ثبوت الجبال الراسيات — كان والد المؤلف مع المحاصرين .

١٢ — كان العدو معتمدا على قوة القلعة لانها حصينة ومنيعة " والحقيقة ان المحاصرين الذين يشير اليهم العوني كان ثباتهم وصبرهم وجلدهم مضربا للمثل . ولقد اكد لنا الرواة بانهم قد بلغ الجوع بهم حدا جعلهم يذبحون الخيل الاصيلة التي عندهم في

القلعة ليأكلوا لحومها . وعندما نفدت لحوم الخيل ذهبوا يحرقون " الفصـــــم " ويقتاتون به أي نواة التمر . ولاعجب اذ أن الجلد والصبر والمثابرة ، كل هـــــذه المعاني تعتبر طبعا أصيلا راسخا في كيان ساكني الجزيرة بصورة عامة . وفي كيـان ساكني نجد بصورة خاصة . فهم مشتركون بالبطولة والثبات ، لافرق بين شمال الجزيرة من جنوبها خاصة بمثل هذه الصفات وبجميع العادات والتقاليد " .

قمنا ومدينا عليه السراديـب ١٢ واختل وايقن بالردى فاني الشـــعيب

نادى بعفو شيخنا له تجاريب ١٣ مايقطع الداني ولاهو بغـــــــدار

الشـــــرح :

١٣ ــ في آخر الامر قمنا وحفرنا تحت الارض من اجل ان نلغم القلعة ونقضها ، ولما رأى قائد القصر اننا فعلنا ذلك اختل وايقن بالموت .

١٤ ــ ثم بعد ذلك طلب التسليم وسلم ــ ونجا بعفو ــ من قائدنا المحنك المجرب ــ الذى لاينقض العهد ولا يعرف الغدر ــ " يشير بذلك الى الملك عبد العزيز بن سعود " .

وفي ربيع ثاني من السنة نفسها تم الاستيلاء على بريده .

ثم انتقل بنا العوني بملحمته الى وقعة البكيرية الكائنة بين عبد العزيز بن سعود وبين عبد العزيز ابن رشيد وذلك في أول يوم من ربيع الاول عام ١٣٢٢ هـ تلـــــك المعركة التي كانت من اعنف المعارك وهذا العوني يتحدث عنها :

مشى وحنا بالمبارق مشينا ١٥ والامر لله والشيب به مضينـــا

يبغي البكيريه وحنا بغينا ١٦ هدمه ولطمه قبل مايا هل الدار

نزل وحنا عند حشمه نزلنا ١٧ من دون دبرتنا تهين جهلنـــا

والطير ظلل فوقنا يوم صلنا ١٨ يبغي بمانينا وعدلات الانظـــار

سرنا عليه وسار بين الصلاتين ١٩ والشمس غابت من قتام الخمسين

والعين ناح أوصاح بين الخصمين ٢٠ واغبرت الآفاق واشتعلت النـــار

تخاطبوا من بينهم بالهنـادى ٢١ والترك ترطن والعرب له انـــلادى

لكن نطل الروس جدع الهوادى ٢٢ يهوم عبوس الشر بوجيه الاشـــرار

١٥ — يقول سار العدو بجيوشه نحونا ونحن سرنا بجيوشنا وراياتنا نحوه ايضا .

١٦ — العدو يريد البكيريه اى البلدة التي حدثت فيها المعركة ونحن ايضا نريد هـــذه البلدة ونود بأن نهزمه قبل ان يصل البلاد ويبني حصونه بها .

١٧ — حال مانزل ابن رشيد بجنوده نزلنا نحن امامه وجها لوجه وفي الشطر الاخير يقول معنى كمعنى عمرو بن كلثوم :

ألا لايجـهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينـــا

وهنا العوني يقول : امام أوطاننا سوف يرى العدو منا جهلا شبيها بالجنـون .

١٨ — يصف الشاعر الطيور التي اعتادت على اكل لحوم القتلي فيقول :

انها ظلت في الجو صافات فوق رؤوسنا ينتظرنا بأن نقدم لهن من لحوم الخصم والنفر الذين شاهدوا المعارك الطاحنة كهذه المعركة ، يؤكدون لنا بأن الطيـور

يسرن مع الجيوش محلقات في الجو يترقبن حدوث المعركة .

١٩ — لقد اصطدمنا والعدو في ساعة كانت بين صلاتي الظهر والعصر . وقد حمي الوطيس بيننا بشكل جعلنا لا نرى نور الشمس من دخان البنادق وغبار الخيل اللذين حبسا الفضاء .

٢٠ — وكل منا ومن جنودنا وجنود الخصم الجميع رأى الموت نصب عينه وضاقت بنا الارض بما رحبت ، واغبرت الآفاق من هول المعركة واشتعلت الارض نارا من الرصاص والمدافع .

٢١ — وقد وصلت المعركة الى الحد الذى استعمل به السلاح الابيض وسكت دوى البنادق ، فلا تسمع من الاصوات الا صليل السيوف ، فكان هذا هو الحديث بين الجيشين ، لا حديث الا حديث السيوف وصوته .

٢٢ — كان رؤوس الرجال من الخصمين أشبه ما تكون بالحجارة المبعثرة ، هذه المعركة التي وصفها لنا العوني لم يكن مبالغا بوصفه لها . فهو بطل من ابطالها . والرواة الثقاة من الطرفين يؤكدون لنا صحة رواية العوني هذه . والواقع الذى لا جدل به هو انه من المستحيل ان يلتقي الجيشان وخاصة الحضر أى حضر نجد فيما بينهم بمعركة تتعادل بها قوة الخصمين كهذه المعركة ، أقول مؤكدا بأنه من المستحيل أن يهزم احدهما الآخر مالم يتبادلا بالسيوف وبالخناجر ، مع كل أسف ، فيالهم من أبطال ، ويالهم من شجعان جلودين محاربين ، يندر أن نجد قوما يحاربون بكل جلد وبباطة جأش كساكني الجزيرة . ولكن مع الاسف الشديد هو ان تلك الشجاعة ، كانت سلاحا حادا ذا حدين يقطع نفسه بنفسه ، وأعني بذلك العهد البائد الى غير رجعة — الذى طغت به العادات الجاهلية والتقاليد البالية .

انتقل العوني الآن يصف لنا معركة الشنانة — الواقعة في ١٨ من رجب ١٣٢٢ سبتمبر ٢٩ — ١٩٠٤ :

يوم ولي العرش به تم شانه	٢٣	شاله من " الخبرأ " لرجال " الشنانه "
فنهو جمع والعنا هو مكانه	٢٤	والجار اذا اجرم شريك مع الجار
يوم استقر بمنزله واختبرنا	٢٥	من البكيره صباح ظهرنا
سرنا مع الوادى تطارح شهرنا	٢٦	في راى " ابو تركي " حمدنا للاثوار
جينا كما مزن فطى الجو بغيوم	٢٧	فطى " الشنانه " عجنا وارهق القوم
بنى خيامه بـ " الرفيعة قباله "	٢٨	ولا زل يوم مانهبنا لمالـه
ولا حل كون ماذ بحنا رجاله	٢٩	نصر من الباري على دورهم دار

٢٣ — عندما أراد أن ينفذ الله مشيئته بالعدو رحل من موقع قرية تسمى " الخبرأ " ونزل في قرية تسمى بـ " الشنانه " وهذه القرية تكبد بن رشيد بها خسائر كثيرة من خيله وجنوده .

٢٥ — عندما تأكدنا بأن العدو نزل واستقر بموضعه عند ذلك سرنا صباحا قاصدينه بالذات .

٢٦ — معنى هذا البيت قريبا من المعنى الذى قبله فلادامي للتكرار .

٢٧ — كانت قوتنا من خيل ونجائب اشبه ماتكون بسواد الغيم المدلهم بشكل جعل ضبابنا وعجاج خيولنا يسد الفضاء . وقد انطمست معالم " الشنانه " يقصد القرية التي وقعت فيها المعركة . يقول انها انطمست معالم هذه القرية من اثر عجاج وغبار جيشنا العرمرم الجرار بصورة ارهقنا بها العدو وادخلنا الرعب في قلبه . وذلك قبل أن تدور رحى الحرب بيننا .

٢٨ - جاء العدو ونزل بموضع يقال له " الرفيعة " وفي هذا الموضع لم بات يوم ما صبحنا الغارة تلو الغارة عليه ونهبنا امواله .

٢٩ - وما من معركة وقعت بيننا وبين العدو الا كنا القاتلين لرجاله والمنتصرين عليه . وما ذلك الا أنه نصر من الله تبارك وتعالى :

ثلاثة اشهر ما خفى بينهنه ٣٠ والخيل تكظم بيننا بالاعنه

والكون تحتم صار فرض وسنه ٣١ مازل يوم ما الدخن بيننا ثار

يوم امر ، الله وتمم حسابه ٣٢ اضحى لنا بالعز واسرع ذهابه

عمر شديده يوم ربي دعا به ٣٣ رجل من القويعي يسمي دفع الاشرار

٣٠ - في هذا البيت يؤكد ان خيلهم وخيل خصمهم اخذن ثلاثة أشهر والاعنة لم تطرح من رؤوس خيل الطرفين .

٣١ - المعارك اصبحت بيننا وبين خصمنا يوميا كأنها فرض من فروض العبادة .

٣٢ - عندما أراد الله ان يقضي على عدونا سهل لنا سبيل الفوز وأسرع بالقضاء على العدو .

٣٣ - هذا البيت لا يحتاج الى تعليق لان معناه ومعنى الذى قبله متقاربان ، بعد ما وصف العوني هذه المعارك بملحمته الواقعية التي يتحدث عن كل معركة من هذه المعارك كشاهد عيان . بعد ذلك انتقل الى المعركة الفاصلة أى الهجوم الذى وقع ليلا من عبد العزيز بن سعود على عبد العزيز ابن رشيد وانتهى بمصرع الاخير . فيقول العوني :

جاء أجرد ماينقل الحال عارى ٣٤ نيم ولد متعب وهو جاء ســـارى

وثب عليه من الحدب تقل ضارى ٣٥ صكه بمخلاب جلا كل الاســـرار

٣٤ — بهذا البيت والذى يليه حسب مايشير العوني الى المعركة التي قتل فيها عبد العزيز بن رشيد الكائنة في المحرم ١٣٢٤ — ١٩٠٦ .

ونجده يصف عبد العزيز ابن سعود انه كان شابا نحيفا ثم يصف كيف كان هجومه فيقول : ان عبد العزيز بن رشيد كان نائما بينما كان عبد العزيز بن سعود يقظـــا فباغته بالهجوم الفاجي ليلا .

٣٥ — ثم وثب عليه وثوب الاسد المفترس وضربه بمخلابه ضربة أزاحت كل مافي نفوسنا من هم وكدر . وحقد . بعد ذلك يذهب العوني ويؤكد على انه بعد هذه المعركة ساد الامن في الوطن وذلك حسب مايقصد بسبب الكفاح الذى ابدوه حتى أعلوا بلادهـــم ورفعوا من شأنها . وهذا هو يقول :

واستاملت بلدان حمنا ذراها ٣٧ بالله ولاغيره سكنا ذراهـــــا

ثم ابوتركي الشيخ معفى حماها ٣٨ حيد على صعبات الاحوال صمار

صنيرسن مابعد تم عشريـــن ٣٩ شال الحمول المثقلة نصرة الديـن

وظهر سنان الحرب دون المقلين ٤٠ لما زمن عند الخلايق باذكـــار

٣٧ — الآن توطد الامن في بلادنا التي كنا حماة لها ، وذلك بمعونة الله استطعنا أن نكون حصنا منيعا للوطن .

٣٨ — وبالاضافة الى كفاحنا فاننا معتمدون بعد الله على ((أبو تركي))

٣٩ - وهو الذى حمى بلادنا وهو البطل الجلود الذى تحمل من الشدائد والمعضلات كتحمل الجبال الراسيات .

٤٠ - ويقول ان عبد العزيز تولى شؤون القيادة وهو لا زال تحت سن العشرين . ثم يذهب بعد ذلك ويواصل امتداحه للملك عبد العزيز ويؤكد بأن آماله باءت بالفشل بجميع الزعماء الذين كان يبني عليهم آماله لمقاومة ابن رشيد . ولم يصدق ظنه الا بعبد العزيز فقط . فأصغى اليه يقول :

عين تزوله والله اليوم كاف	٤١	اخلف وعدنا كل من كان وافي
يومنها فخت وكانت هوافي	٤٢	واللي نظن به الصداقة بنا بار
هك الجمال اللي قبل هدرات	٤٣	اللي نظن لحمولنا شايلات
غرنا شحمهن والعضا وافيات	٤٤	والكل في راسه زعانيف وسطار
قلنا الي شافن علينا ثقل شيل	٤٥	جمالنا هذه بهن قوة الحيل
نلصف عليهن شيلنا بالمحاويل	٤٦	الي اشتدت الشده وطالن الاسفار
يوم احوج الحاجة لهن وقفني	٤٧	سلط عليهم كلهن بهرني
ما واحد بهن زكا فيه ظني	٤٨	وهن سمان ماقون يشيل الا وثار

٤١ - هذا البيت هو والذى يليه قريبان بالمعنى من بعضهما فيقول / انه لم يظل له صديق من النفر الذين كان يظن بهم الصداقة الا وجاء خلاف ماكان يظنه به من ظن جميل .

٤٢ - وهذا البيت ايضا والذى يليه قريبان الشبه من بعضهما فيقول : هناء ان اولئك الرجال الذين كالجمال آل البزل والذين كنا نظن بهم اننا سوف نحمل عليها جميع ثوائبنا

الثقيلة في حالات الشدائد . ولكنهن عند الحاجة لم يبتغد منهن بشيء قطعيا المقصود انه من ٤٢ و ٤٣ الى ٤٨ كل هذه الابيات يتشابهان بالمعنى التي تفيد أن جميع الزعماء الذين كان يظن العوني انهم باستطاعتهم ان يتصدوا لمهاجمة ابن رشيد ومقاتلته كلهم على رأيه لم يثبتوا ولم يصدق ظنه بواحد منهم . بالرغم من ان لدى كل فرد منهم الامكانيات والقوة والمقدرة ما يؤهله للزعامة ومنازلة ابن رشيد ومصارعته . ولكنهم جبنوا جبنا مخجلا ثم يعود بعد ذلك يوصف أولئك لزعماء بأنه احتار في أمرهم واغتر بهم سابقا غرورا بالغا ويؤكد بانه لا زال مغترا بهؤلاء الزعماء حتى جاء الوقت الذى يحتاج لهم به عند ذلك بان له انهم ليسوا اهلا أن يظن بهم النجابة . ويزيد وضوحا بانهم لم يجبنوا الا في الحالة التي كان الوطن بأمس الحاجة والضرورة اليهم . وبعد ذلك ينتقل بالبيت الآتي وما بعده مادحا الملك الراحل عبد العزيز آل سعود ويقول كدنا أن نهلك لولا فتوة عبد العزيز ونجدته لنا كما جاء في قوله :

خلنا بالال لولا جملنا	٤٩	شلنا عليه حمولنا وارتحلنا
واف الخصايل جابها من وحانا	٥٠	يوم طنب بالرغا كل هدار
تراه ابوتركي وذمي لغيره	٥١	صبر على حرب الدول والجزيرة
وفيه واختصه وربي نصيره	٥٢	يد برا فعاله صغيرات واكبار

٤٩ — يقول ان اعتمادنا السابق على اولئك الزعماء اوشك ان يكون سببا لهلاكنا لولا وجود عبد العزيز الذى نشلنا من هذه الورطة .

٥٠ - لما كان عبد العزيز وافيا بجميع خصائله فقد استطاع أن يثبت بالشدائد واللحظات التي حارت بها قوى الرجال الذين يرون انفسهم فيما سبق انهم ابطال زعماء صناديد ، وذلك قبل ان تتأزم الامور وتبلغ الروح الحلقوم . ولكن بعد أن تأزمت الامور وضاقت بنا الارض بما رحبت في تلك اللحظات الحاسمة ذهب هؤلاء الابطال بالامس ذهبوا هاربين لائذين بالفرار بدون ان يفكر واحد منهم بالكرة ثم نجده يقول بشكل واضح في البيت ٤٩ : كادوا ان يتركونا فريسة بيد العدو لولا وجود " جملنا " ، يقصد عبد العزيز كما أعلن اسمه بصراحة في البيت الواحد والخمسين اذ يقول / ان ثنائي اقصد به " ابا تركي " أي عبدالعزيز - ثم يستدرك قائلا بنفس البيت والذي يليه ان ماقلته بوصفي للمتخاذلين الجبناء بصورة مبهمة يقول : انني انزه عبدالعزيز عن ذلك وانما اقصد بذلك قوما غيره . أما هو فحشاه ذلك

العوني ووصفه للمعركة التي قتل فيها ابن رشيد

لاأعتقد أن العوني طرب ودخل الى قلبه السرور والفرح كسروره وفرحه عندما رأى بعيني رأسه جثمان الامير عبد العزيز المتعب بن رشيد ممزقا بالرصاص بل لاأظن أنه شمت بموت أي انسان كشماتته بمصرع هذا الامير العنيد الذي حرض العوني عليه سكان القصيم وبارك آل صباح وسعدون بن سعدون بل حرض العوني عليه جميع سكان نجد بدوا وحضرا - ثم وجد ضالته بالفتى عبد العزيز آل سعود . وذهب يهدي اليه قصيدته تلك السينية الملهبة بالحماسة والتحريض واذا كان العوني حينما يأتي بجانب هذا الحاكم محرضا له وهاجيا خصومه ، أوعندما يطلب ظهر المجن لصديقه الحاكم السابق ومن ثم يحرض عليه بل ويهجوه فاننا قل أن نجد حاكما سلم من هجائه من هؤلاء وأولئك بمافي ذلك الفتى عبدالعزيز الذي حقق للعوني آماله في قتله لعدوه ابن رشيد والذي رفع العوني من الحضيض الى القمة ، الى درجة يقول سليمان بني خضير : انه في كثير من الاحيان اذا وفد الوافدون على الامام عبد العزيز وقدموا هدية له سواء أكانت الهدية فرسا أصيلا أو راحلة نجيبة أوسيفا أوماشابه ذلك . فان الامام يدعو العوني ويعرض عليه هذه الهدية فيما اذا كان يروق له شيئا منها ليأخذه - ولكنه مع ذلك لم يسلم الامام من هجاء العوني وان كان هجاؤه لعبد العزيز آل سعود - كما يقال هجاء " بالصوف " اما هجاؤه لعبدالعزيز المتعب ابن رشيد . فانه يحمل معانيا مترعات بالحقد والشماته والتشفي ، هذا بالنسبة للمعاني التي جاءت بقصيدته المرسمة التي أشبه ماتكون بالملحمة التاريخية تلك التي سبق أن أوردتها من قليل - وقد أغفلت منها المعاني ذات الصلة بالهجاء كما سأغفل المعاني التي جاءت في قصيدته الحربية الطافحه بالهجاء والسخرية . وهي التي أورد منها الآن القسم ذا التاريخ كقوله في مطلع القصيدة :

يالنديجي فوق طوع الراس حامـل	١	حرة منوة الطارش معنـــا
خبر اللي ساكن بقصور حابـــل	٢	لالفيت حمود رد العلم علـــا
قل لهو متعب الحاجته الرسائـــل	٣	كان تبغي الحرب جاك اللي تتمنى
قل نذير مايجي ملكم جمايـــل	٤	الهرب ياتايهين الراى عنـــا
نطلب اللي عادل ماهو بمايـــل	٥	يهلك اللي ظالم ملكم ومنـــا

تحلل هذه القصيدة أبيات طافحة بالسخرية والهجاء الشنيع ، الامر الذى جعلني أفضل أسلوب الهجاء لخلوه من الفائدة التي نستهدفها التي تأتي اما مليئة بالحكمة واما بالموعظـــة واما فيها معان ذات صلة بالاحداث التاريخية التي لايسعنا الا أن نقول ؛ ان العوني خـــير من يعطينا أروع وأصدق صورة حية عن جميع الحوادث السياسية . والمعارك الحربية التي كـــان هذا الشاعر عبارة عن المحور المحرك لهذه وتلك فانصت اليه كيف يصف المعركة التي قتل فيهـــا الامير عبد العزيز بن رشيد . فهو في وصفه لتلك المعركة عبارة عن مسجل ناطق يصف تفاصيـــل تلك الوقعة كما يصف الزمان والمكان اللذين دارت فيهما رحى المعركة ولاعجب فقد كان هـــذا الشاعر واحد من الرجال الذين ساهموا عمليا وفكريا في خوض غمار تلك المعركة . فهكون والحالـــة هذه يتحدث حديث شاهد عيان وانيك ما أنشده العوني بعد تلك المعركة بصورة مباشرة وهـــي قصيدة حربية أوردها كمايلي :

ساعتين يشهن اللي حضرهـــا	١	تطلع الجدى من روضة سهنـــا
كن ربي هل الدنيا حشرهـــا	٢	يوم ثار الدخن منهم ومنـــا
والسناصيص لقونا خطرهـــا	٣	ظنهم الى ارتكوا نزاح هنـــا

وارتكبنا كما طامي بحرهـــــا ٤ واعتزينا اوسابقنا دبخلهـــــا

وارعدت وأبرقت واسهل مطرهـــا ٥ تالي الليل غاب البدر علـــــا

لاتجي يوم ابو تركي نهرهـــــا ٦ سهلوا ماتنسو اللي تونـــــا

طاح ابوشعب بول شهرهـــــا ٧ راح ماكن بالدنيا تهنـــــا

طيروه العوارض من ظهرهـــا ٨ فوقه الطير والسرحان فنـــــا

ارسى بالفرس واشرب من نهرهـــا ٩ كان يرضيك منا يا ولنـــــا

كله العين من هلت عبرهـــــا ١٠ جادل خضبت بالكفـــين خطـــنا

---

١ — يقول الشاعر لقد داهمت المعركة التي قتل فيها عبد العزيز بن رشيد ساقتين ولكـــن هاتين الساقتين يجعلان المرء الذى خاض غمار المعركة ينقلب شعره الاسود الى شعيب ابيض لشدة هول المعركة — هذا ماقاله الشاعر بصدر البيت اما وصفه بالعجز فانه يحدد مكان المعركة مؤكدا انها وقعت في موقع يكون جنوبها عن المكان الذى يطلق عليه اســـم " روضة مهنا " .

٢ — كأن القيامه قامت وكأن الله بعث من في القبور وجاء يوم الحشر . وذلك عندما اشتعلت النيران من أفواه بنادقنا وأفواه بنادق عدونا .

٣ — عندما هجمنا على " السناعيس " يقصد قوم ابن رشيد صدوا صمود الابطال . وهم بصمودهم هذا يخيل اليهم انهم سوف يصدون هجومنا ومن ثم ننكص نحن على الاعقـاب

٤ — ولكننا ثبتنا ثبوتا يشبه البحر المتلاطم الافواج — ثم بعد ثباتنا هذا هجمنا هجومـــا ماكنا به اسرع من صوت بنادقنا .

٥ - يصف صوت بنادقهم كأنها الرعد الذى يصحبه البرق ثم بعد ذلك ينهمر المطـــــر - والمطر هو الرصاص - وفي عجز البيت يقول كانت المعركة في الظلام الليل وفي آخر ليالي الشهر العربي الذى عادة يغيب فيها القمر .

٦ - " لابتى " أى رجالنا - عندما حثهم " ابوتركي " أحد الامام عبد العزيز على الهجوم استبسلوا وهجموا دون أن يثني عزيمتهم النفر الذين تأنوا في المشاركة بالهجوم .

٧ - لقد سقط - ابو متعب - قتيلا في تلك المعركة التي وقعت في آخر الليل من شهر " سقط وراح عن الدنيا وكأنه لم يهتن فيها .

٨ - وقد قتله أهل الرياض الذين اطلقوا عليه الرصاص حتى سقط من جواده - فأصبح عشاء للذئاب وللطيور التي سوف تصدح مسرورة في غداها بما من جسد الامير القتيل .

٩ - لما كان أهل نجد في تلك الفترة غذاهم الرئيسي التمر . فاننا نجد العوني في صـــدر هذا البيت يخاطب النخل قائلا عليك ابتها الشتائل ان تطمئنين وتشربين حتى تروى بعد ان قتلنا عدونا اللدود - ثم يأتي بمصراع هذا البيت نفسه مخاطبا وطنه قائـــلا لعلك رحبت هنا الآن ايها الوطن .

١٠ - ان ماقمنا به في قتلها لعدونا ليس الا لنأخذ ثأر الفتيات اللواتي قتل عدونا ابائهـــن فيكن عبرات محزنه . فانتقمنا لهن . فيحق لهن الآن ان يتعطرن ويتمتعن في كفوفهـــن وراحاتهن الحنا تجملا مسرورات بعد الحزن .

الفصل الثامن

" محاولة العوني تنفيذ مخططه "

سبق أن قلت أن الاماني المعسولة التي تداعب خيال العوني وتشغل ذهنه وتقلق أفكاره ، محصورة بأن يرى بلاده مركزا لزعامة والقيادة لنجد . وان تعذر ذلك فعلى الاقل يود أن يرى بلاده مستقلة بقيادة آل مهنا بشرط أن يكون هو الحاكم الفعلي . وواحد من سلالة عبد الله آل مهنا الحاكم الاسمي .

اما وقد انكسرت شوكة آل رشيد بعد مصرع اميرهم عبد العزيز بعد ذلك لم يكن امام العوني الا السعي في تنفيذ مخططه الرهيب خاصة بعد ان هيأ له القدر احسن فرصة مواتية ألا وهي اسناد الامام عبد العزيز ابن سعود امارة بلاده بريده الى محمد العبد الله ابا الخيل - بعد ان اسندها لابن عمه صالح الحسن ، وبعد ان ثبت لدى الامام عبد العزيز ان لدى صالح الحسن نية سيئة ترمي الى ربط معاهدة بينه وبين ابن رشيد ليقفا صفا واحدا ضد الامام عبد العزيز فسجنه الامام اولا ثم فر من السجن بعد أن قتل السجان فظفر به الامام وهو في سبيله هاربا . فنفذ فيه الاعدام . وولى الامام أمارة بريده محمد بن عبد الله آل مهنا .

لقد شعر العوني انه حقق قسما كبيرا من أمنيته التي تدور في خياله . فهذه بلاده بريده تولي امارتها واحدا من ابناء عبد الله آل مهنا " أبا الخيل " وما يضاعف سرور العوني هو ان محمدا هذا من النوع الذي يجد فيه العوني مرتعا خصبا يخوله ويكاد أن يكون هو صاحب الصول والطول - والحاكم الفعلي المنفذ - والدماغ المفكر والعقل المدبر .

حقا لقد وجد العوني بكم بريده محمد المهنا - كل ما يتمنى فهو من ذرية عبدالله ولسي نعمته الذى نشأ العوني في بيته يافعا - وهو بالتالي رجل لين العريكة يستطيع العوني أن يجعله طوع بنانه .

واذا كان يتأمالي العوني والاسرة تدور حول تحقيق هذين الهدفين اى استقلال بلاده ، وهو الهدف الذى لا يرى ما يمنعه من اعلانه لغايته هذه - والهدف الثاني يدور في فلك الباطني بدون ان يبديه أو يتظاهر به لاى من كان .

* هناك من يشارك العوني في بعض أهدافه *

فان هناك من اهالي بريده من يشارك العوني في هدفه الاول . وخاصة الفتيان الشبان وربما قسم أيضا من الشيوخ - وفي مقدمة هؤلاء الشاعر الشاب الشجاع محمد العلي صاحب القصائد الحربية الصميم - الذى وان كان لا يجارى العوني في طول النفس بالشعر - وفي الاسلوب الذى ينتهجه العوني بمعانيه القوية - وفي قوافيه التي ينشدها على عدة أوزان من أوزان الشعر اللوبي المسمى " نبطي " الا أن القصائد الحربية التي ينشدها الصغير عندما تلحن على نغمات الربابة العرضة الحربية . لها وقع في نفوس شبان ذلك الجيل بصورة تلهب العواطف - بشكل يفوق الصغير العوني - خاصة في ميدانه هذا الذى يكاد يلتقي فيه هو والعوني على صعيد واحد . واننا لنجد الصغير يقدم لنا صورة حية في قصائده الحربية تلك القصائد التي تزخر معانيها حول ما يدعو اليه العوني وهو استقلال بريده وان يكون اميرها واحدا من اهل البلاد ومن آل مهنا - وها هو الصغير يعبر اصدق التعبير في قصائده الحربية التي نورد منها قوله :

نحمد الله جميـــــــله ١ شيخنا صار منـــــــا

شيخنا من قبيـــــــلة ٢ من سلاسل مهنـــــــا

القصيدة اكثر من هذين البيتين - وانما اخترناها لدلالتها على المعنى الـــذى نستهدفه - فالشاعر يقول في البيت الاول : اننا نحمد الله منته وجميله علينا الذى جعـــل " شيخنا منا " - وكلمة الشيخ تعني امير البلاد أوالحاكم أوزعيم القبيلة - ثم يمضي ويقول في البيت الثاني ان شيخنا - حاكمنا - من سلالة آل مهنا - الذين كانوا حكام بلادنا منـــذ عهد قريـــب .

واليك بيتين من احدى قصائده الحربية التي فيها جاء في البيت الثاني معنى أكثـــر وضوحا من البيتين السابقين خاصة فيما له صلة بالمعاني التي تستهدف نوايا الشاعر باستقـــلال بلاده أوانفصالها عن سيادة الامام ابن سعود فيما هو يقول :

لاتقولي خزلتي مصحين بهـــا للعدو زاهبينه كحل عـــــين

عافته العارض من طيبهـــا ماتبي كـود طلقـــين اليمـــين

لم يكن في البيت الاول معنى يثير الانتباه في ماله صلة بالموضوع الذى نحن بصدد الحديث عنه أى محاولة الشاعر انفصال بلاده عن حكم آل سعود كما هو المبدأ الذى يسعى اليه العويسي - ولكن المعنى جاء في البيت الثاني بصورة جلية لالبس فيها - اذ يقول ان أهل بلاده " لابته " أى بني قومه أبت نفوسهم ان يحكمهم الا زعيم منهم رحيـــب الذراع يعني آل مهنا - والعجيب في الامر هو ان الشاعر الصغير سبق ان جاء في معنى ولفظ يخالفان المعنى الذى جاء به الآن - لقد سبق ان قال يقصد بلاده :

عافت الشمرى من طيبهـــا ماتبي كود ايام المسلمـــــــــين

قال هذا البيت ضمن قصيدته هذه الطويلة ــ وذلك في بداية الامر الذى انفصلت بلاده عن حكم ابن رشيد ــ فاكد ان بني قومه عزفت نفوسهم عن قبول حكم الشمرى ــ اى ابن رشيد . ولا يفرقهون الا حكم ايام المسلمين ، اى عبد العزيز ابن سعود . وها هو الآن عكس المعـــنى بقوله ، عافت العارض من طيبها .. الخ ويقصد بالعارض الامام عبد العزيز .

فاذا كان هذا الصغير الذى يعتبر ظلا للعوني وصدى لصوته فماذا يكون موقف العونـي الذى هو العقل المدبر والجهاز المحـرك في قضية انفصال القصيم عن الرياض ؟؟ طبعا سوف يكون العوني اعنف وافضع في أساليبه الرهيبة التي يسلكها عندما ينوى تنفيذ مخطط من مخططاته ــ التي يجود الفه مبرر ومبرر يستطيع ان يقنع الجماهير في صواب هدفه ــ كما يقنعهم بل ويحرضهـــم عندما يتصدى لمحاربته حاكم ما ــ وان كان هذا الحاكم الذى يحرض عليه الرأى العام الآن ــ كان يشيد فيه القصائد الرنانة المليئة بالمديح والاطراء كما هي الحاله في موقفه المتناقض ضد الامـــام عبد العزيز الذى مجرد مارأى العوني ان الامام اسند امارة بريده الى محمد العبد الله أبا الخيل ــ حالا قلب للامام ظهر المجن وراح يحرض قومه ضد عبد العزيز بن سعود محذرا لهم بان هذا الاسد المفترس ــ يقصد عبد العزيز بن سعود سوف يفترسهم فيما اذا لم يأخذوا الحيطة والحذر منه . وخذ معاني التحريض والتهييج اللذين اوردهما العوني في قصيدته .

" العوني يحرض بني قومه على الانفصـــــال "

التي فيها من المعاني مايدعو بني قومه الى التحريض ضد الامام عبد العزيز بصـــورة سافرة لامواربة فيها ، والأسوأ من ذلك هو ان العوني ذهب يحيد المعاهدة التي قامت بين

أمير بلاده محمد ابا الخيل وبين امير حائل سلطان الحمود الرشيد الذى اغتصب الامارة بعد أن قتل امير حائل متعها ابن اخته . واليك ما أنشده العوني في قصيدته الآتية :

هل الهلال . وكلن العلوم	١	وتضلحت باقي جميع الحكايا
وقول آه مايجلي كثير الهموم	٢	البعاد مانروى وساع الهوايا
أحسوا حسيتم كل ابوكم رحوم	٣	وش علمكم ماتهبجون الضحايا
ماينثبر بالريق كود الهموم	٤	ردوا العوج كنهن الحنايا
يلسعكم بيض تدق الرقوم	٥	بيغن فرحهن من خمار الشرايا
انتم ذراهن عن الرهيب السموم	٦	وانتم حماهن لايخلين عرايا
اخاف من سبع عليكم يحوم	٧	متعود يفرس كبار الربايا
ماناش وأدمى مخلبه مايقوم	٨	ومناش بالكفين ماله بقايا
ابن سعود اقبل علينا يزوم	٩	يبغي بلدنا يعردونه صبايا
دونه منا غير تشج الدموم	١٠	من دون بيض كنهن المهايا
يلزم جرى ليته علينا يعدوم	١١	بين الدخل محلى تطايح عدايا
خلوهم الصبيان مثل الرجوم	١٢	بايمان ربع ماتهاب المنايا
من فوقنا طير المنايا يحوم	١٣	ومن بيننا ضرب الهوايا هدايا
دون الفرائس زاهيات الجروم	١٤	لودنها حماض المنايا ملايا
مع سير عصي الخده صروم	١٥	حامي ° بريده ° مع جميع النحايا
محمد اباخيل عطيب السهوم	١٦	حر مخاليه يخده روايا

بظلال من كسم القبائل صـــوم ١٧ الضيغمي سلطان نمرذى الســـــابا

سـلم على العاديك زعول فشـوم ١٨ مخيف العدا فيث لكل الرعايـــــا

للوذ به دام السماء فيه حـــوم ١٩ زيزوم ظلها المعـربين الطنابـــــا

مطلع القصيدة لم يكن فيه سوى انه جاء به تمهيدا لما بعده الذى يقول :

٢ — ان التأوه لا يزيح الهموم وانما يزيحها السيوف الفعالة .

٣ — تبا لكم يا قومي على سلبيتكم ما لكم ايها القوم لا يرتوى الظمأ منكم .

٤ — لا يقبل الذى والقيد الا — البهم — ابناء الغنم — هبا هبوا واحملوا السيوف .

٥ — ٦ في البيت الخامس والسادس معنى واحد فيقول : معرفا ان نساءكم الناصعات البياض يشد بنكم ويستثرن نخوتكم لتحموهن من ان يسلب العدو وهو سهنا ويظللن عاريات .

٧ — الم اذركم يا قومي من أسد يدور حولكم أسد اعتاد على افتراس الاغيـــا .

٨ — وهذا الاسد من يقع منكم بين براثنه لن تقوم له قائمة — وهو يقصد الامام عبدالعزيز ابن سعود — وها هو العوني يأتي باسمه بصورة علانية .

٩ — فيقول : ان ابن سعود (يقصد الامام عبدالعزيز " جاء الينا مندفعا قاصدا أن يحتل بلدنا — ولكن هناك دون بلدنا فتيان قتال .

١٠ — وفي هذا البيت يؤكد ان بلاده يقف فتيان يواصل ليقاتلوا في سبيل حماية بلادهم وحماية نساءهم الناصعات البياض اللواتي يشبههن بجمالهن النوع من الظباء الذي يسمى — مها

١١ — يشير الشاعر الى يوم وقع فيه معركة بين وقعد قومه وبين قوم عدوه " وهـــذا اليوم يتمنى العوني ان يعود يوم من امثاله لانه يرى اجمل ما فيه تساقط قتلى العدو .

١٢ — لقد تركنا جثث اعدائنا ذلك اليوم مكدسات كأنها " زجوم " أى كالحجارة المصفوف بعضها فوق بعض .

١٣ — لقد كانت الطيور تحلق في ذلك اليوم فوق رؤوسنا لتأكل من لحوم الاعداء الذين قتلوا من ايدى ابطالنا الذين اذا ضربوا اوجعوا في ضربهم .

١٤ — ان فتياننا الابطال استقتلوا واستماتوا في دفاعهم دون النخل الباسقات . وسوف يستميتون في قتالهم حتى ولو طفح الكيل من قتلانا .

١٥ — وبني قومي عندما يقاتلون فانهم يقاتلون تحت قيادة — الشجاع القوى الباسل الصارم على الاعداء — والبطل الذى حمى مدينة بريده وجميع ضواحيها !!! — من هو هذا البطل هـــو .

١٦ — محمد " أبا الخيل " الفارس الذى يقطر سيفه دما في رقاب اعداه !!!

١٧ — والفارس محمد ابا الخيل هو محمي من قبل الامير سلطان الحمود العبيد الرشـــيد ويصير أمير بريده محمد — تحت ظلال الامير سلطان الذى يسيطر على كل القبائل !!! والفارس المرهوب الجانب !!! المتصود البيت الثامن عشر والتاسع عشر كلاهما اطـراء ومدح لسلطان الحمود الرشيد — امير حائل الذى عقد [illegible] حلفا مع محمد " ابا الخيل " ضد الامام عبدالعزيز .

ولما كنت انقل الاحداث ذات الصلة بتاريخ حياة العوني وأقف عند هذا الحد — فانني أترك التعليق على هذين الامرين للعوني نفسه الذى ينقل عنه الرواة قوله ؛ انني عندما رأيت سلطان الحمود ومحمد العبدالله حاملين سيوفهما صفا واحدا في المعركة الشعبيـــة — ونظرت الى ضخامة بطن كل واحد منهما بصورة كأنها " قربة مملوءة ماء هماجا — عنـــد

ذلك وثقت ان النصر لن يكن حليفا لقوم يتزعمهم هذا ن الشخصان اللذان لم يكن في واحد منهما أية اشارة تدل على ادنى علامة من علامات النبوغ والعبقرية والفطنة التي عادة مايتصف فيها القائد الفذ الذى يبني عليه قومه الآمال(١) .

" العوني يكشف الغطاء عن نواياه المستترة "

يحرص العوني حرصا شديدا أن يخفي نواياه التي تدور في مخيلته - كما يحرص بان لايعرف احد عن طموحه الذى يداعب خياله . ولكن مهماكان الانسان حذرا في جحوده لخلق من اخلاقه فانه لابد الا أن يعرف الناس عنه سجيته التي يواريها اما بفلتة لسانه في بعض الاندية التي يتحدث فيها ويكون فيها مجال للاحتكاك بالحديث ، واما بسبقة قلمه ان كان كاتبا ، واما في قصيدة ينشدها اذا كان شاعرا معبرا بها عن شعوره وعما يختلج في عقله الباطني من آمال وامان تسرح وتمرح في افكاره - ولذلك نجد الشاعر العربي " زهير بن أبي سلمى " أصاب كبد الحقيقة عندما قال :

ومهما يكن عند امرىء من خليقة

فان خالها تخفى على الناس .. تعلم

واذا كان المعنى الذى قصده هذا الشاعر شاملا بمفهومه اى انسان ، فان معناه يكون اكثر انطباقا على الانسان الشاعر ، وذلك لان الشاعر بطبيعته رقيق الاحساس غزير العاطفة دافق الشعور . فهذه المعاني المتوفرة في كيان الشاعر تخلق بين جوانحه طاقة مهما حاول صاحبها أن يسيطر على زمامها أو يقبض على الزبرة بيديه الاثنتين لئلا ينفلت الامر وتنفجر " الاعيبه " فانه لا يستطيع ولن يستطيع.

وهذا هو العوني يكشف القناع عما تنطوي عليه نفسيته من طموح لا حدود له — فيقول في قصيدة حربية لم يتوفر لنا منها الا بيتان ، ولكن هذين البيتين يعبران أوضح تعبير عن نفسية الشاعر بصورة جلية لا تحتاج كلك الى تفسير . فخذ قوله :

كل ماشب نار ولعتــه منـــــا الحرايب نولعها ونطفيهـــــا

دام ماصار راس زماتهـا هنـــا لو بغت نجد تركد ما نخليهـــا

المعاني التي بهذين البيتين يعطيانا دليلا لا يقبل التأويل عن نفسية العوني وميوله وطموحه ، فهو يقول في صدر البيت الاول أن أية فتنة تؤدي الى الحرب بين فريقين من سكان نجد فان المشعل للهيب نار هذه الفتنة لم يكن الا قوم " منا " اى — انا — ويقول في عجز هذا البيت أن جميع الفتن التي وقعت في هذه المنطقة اى " نجد " بين ابن صباح وابن رشيد من جانب ، وبين ابن سعود وابن رشيد من الجانب الثاني ، وبين ابن سعود وابالخيل ومعه ابن رشيد من الجانب الثالث ، كلها انا الذى اشعل لهيبها اذا شئت واخمد نارها متى ما شئت ايضا — ومن ثم يأتي بالبيت الثاني فيفضح العوني نفسه بنواياه الانانية الفظيعة عندما صرح بلانية بأنه اذا لم يكن ازمة القيادة وادارة السلطة في قبضتنا نحن ، فاننا سوف لا نترك البلاد — نهدأ او تنعم بالسلم . وهو عندما يقول (نحن) من قبيل التغطية والتمويه كأنه يقصد بتعبيره — (نحن) امراء بلاده وبريده — على اعتبار أن كلمة (نحن) تشير الى الجمع ، بينما يقصد في حقيقة امره هو شخصيا . وهو يعني نفسه (انا) .

والواقع الذى لا نستطيع أن نتجاهله هو ان تاريخ الامة العربية مشحون الى القمة بالانانية الفظيعة التي عبر عنها العوني بهذا البيت . ولماذا نأخذ على العوني ونعتبره ونلتمس أو نتناسى ماقاله أحد قادة العرب الطامح الى قمة السلطة

خلقه وسعة عقله ومع ذلك نجده يقول في بيت من قصيدته الحربية :

والله انا الغال الروح جلابـــه لين تصفي لنا ولا نخربهـــا

فهذا الشاعر الفارس يقسم على نفسه بالله أنه سوف يغامر بحياته حتى يحقق النصـــر ، والا فانه سوف يسعى بالخراب وفقا للمثل القائل (علي وعلى اعدائي واصدقائي) .. تلك النفسية التي لم يصقلها ويهذبها الا الاسلام الذى حارب الطبقية كما حارب الانانية .

وعلى هذا الاعتبار لم يكن العوني الا واحدا من هذه الامة التي كانت الانانية آفـــة زمانها السابقين والمعاصرين ـ فكل فرد يحاول أن ينفرد بزعامة بلاده أو قريته ، ولن يقبل بأية حال من الاحوال انطواءه تحت قائد يضم جميع هذه الزعامات المصطنعة ـ ولو لم يقيض الله الملك عبد العزيز آل سعود الذى فتت هذه الزعامات وذوبها بوحدة كاملة ـ لكانت بلادنا مصابـــة بسرطان التفرقة التي يعيشها الآن عدد من الاقاليم العربية المعاصرة ، لماذا الآن عقلية حكامنا وان زعم الزاعمون من حكامنا في القرن العشرين أنهم دعاة وحدة شاملة فانه قد يكون هناك من هو صادق في دعوته هذه ولكن الاغلبية الكثيرة من هؤلاء الحكام لا زالوا يعيشون العقلية نفسها التي يعيشها العوني ـ وان تبدل الزمان والمكان فان العقلية المليئة بالانانية لم تتغير ولـــو قدر لهذه العقلية أن تتبدل لما بقيت اسرائيل في وطننا العربي يوما واحدا .

فكك هذا وقد باءت بالفشل الذريع مساعي العوني الانفصالية وذلك انه تم للامام عبـــد العزيز السيطرة على مدينة بريده بمساعدة عدد من وجهاء البلاد ، وذلك بعد أن أخذ عهـــده من الامام لمحمد ابالخيل . ومن تبعه وفي مقدمة اتباع ابالخيل العوني الذى شمله العهد .

ماذا فعل العوني بعد فشل مؤامراته الانفصاليـــة

عندما رأى العوني أن مؤامرته الانفصالية فشلت لم يكن أمامه الا

يذهب الى الامام عبد العزيز وينشد قصيدة مليئة بالمعاني التي تحمل ،

الاعتذار عما سبق — واما ان يذهب الى ابن رشيد وينشد فيه قصيدة اعتذار عما بدر منه في هجائه له وبين وقوفه حائرا في اختياره لهذين الامرين وأهون الشرين . فراح الى الامام عبد الرحمن الفصل والد عبد العزيز ينشد به قصيدة تبلغ تسعا وعشرين بيتا . وقد جاء مطلعها على الوجه الآتي :

لا بأس باعين بدت تتكرا النوم ... عافت مواهج اكرد بابن هشام

والقلب به سحات وهموم يحسبه ... والحال بنت حالها ما يقتضي حالي

[illegible]

[illegible] في قصيدته هذه [illegible] الى [illegible] الجانب ليحملوا رسالته ويسلموها للامام عبد الرحمن الفصل . وفي طي رسالته الزاخرة بمعان كلها اعتذار وتذلل وخضوع العوني يطلبه العفو من الامام كقوله :

اعذار ملكم يا بن فيصل من اليوم ... والامس ذنبي شاغلة الف رجال

يا العقائل وما تسكون من اللوم ... ماكان صار العفو له سائل سال

يا مانع لا تسمح بنا هرج مشؤوم ... اعذر وسامح وانت للخير فعال

يا واهدك وخلون مذموم ... ذبون بالجفرة وهم نطو الجال

يا نار والسام جرت بي كما النوم ... والا فنا منكم على كل الاحوال

على ان أسرف باعتذاره بل في خنوعه وتذلله عندما قال :

يا لكم عبد ملبك وما سوم ... ايها ولا قلبي نواكم بالابدال

انه طبع العبد لو جاد ما شوم ... العبد به بوقه ولو كان رجال

يا شير مروية كل مسموم ... حماية الساقه عزيزمن الانزال

اني ما علمت وقلت ما فات مهدوم ... فالني بخاطر فرز الابطال وطلعه

عبد العزيز حجاب نجد عن الروم ... ابنك نجيبك هدم صولات من صال

عيستني من ضربته رحت منجوم ... امشي كشيبة تايه باشهب اللال

امشي وافض الطرف والطرف مثلوم ... امشي وحيد خايف خاضع ذال

لولا ابو تركي كان صاحت به الهوم ... صاحوا علي الناس رجلي وخيال

بعمل عصرفات يرجع لنا اليوم ... افوز بسعوده وايام بقبال

لم يكن في مطلع القصيدة ولا في البيتين اللذين بعد الاول من المعاني التي تسترعي الانتباه الا انه يشكو مايعانيه من السهر والقلق - قاصدا أن يجعل هذين البيتين وما بعدهما من الابيات التي تتجاوز خمسة عشر بيتا - مقدمة لطلبه العفو من الامام الاب كما هي مقدمة لطلبه ايضا بأن يقبل الامام معذرته . لان الذى طلبت به من الرواة ان الذى غاضب على العوني كثيرا الامام الاب عبد الرحمن الفيصل . ولذلك نجد العوني في البيت الرابع يخاطبه قائلا :

٤) دعنا عما وقع مني من ذنب وزلل في الامس الماضي فذاك أمر اجدني معترفا به يا ابن لعمل - اى الامام عبد الرحمن وذنبي الماضي لو قسم على الف رجل لما وسعهم احتماله .

٥) وفي هذا البيت معنى يندر ان غاص عليه شاعر كالعوني لانه يقول لولا وجود الذنب والخطأ لما عرف مقدار الغفر - بل كأنه يقول انني عندما ارتكبت ذنبي هذا فانني اردت أن يعرف الناس أنك حليم تتجاوز عن زلات مواطنيك بعبارة اوضح كأن العوني يقول للامام - انني بعملي الذى اخطأت به - فعلت فيك معروفا ووضعت بعنقك منة عندما تعفو عني لان مقدار العفو لا يعرف الا اذا عظم الخطأ وتجسدت جريمة المذنب . والواقع ان معنى هذا البيت من ابلغ وأروع المعاني التي أنشدها الشعراء بالعفو .(١)

---

(١) انظر فهد بن سعد ومعرفة ثلاثين عاما - صفحة (٣٣٠) للمؤلف .

٦) ايها الزعيم لا أريد منك أن تسمع حديث الوشاة عني ، ثم يقول في عجز هذا البيت ، عليك أن تقبل معذرتي وتعفو لأنك اهل للعفو ولافعال الخير .

٧) لقد تقرب هؤلاء الوشاة عندكم وشوهوا سمعتي ودفعوني الى الهاوية السحيقة ، ونجوا بأنفسهم من عقابكم .

٨) كل ماصدر مني من زلل فانما هو نتيجة لقضاء الله وقدره . ذلك القضاء الذى حكم علي بدون اختيارى — حتى انني عندما عدت الى عقلي شعرت انني عندما قمت بتلك الافعال ، لا اتصور نفسي الا كأني في حلم غارق في سبات عميق لا في اليقظة — اجل انني لا اعتبر نفسي الا انني واحد منكم . ولكن هذا حكم على القدر .

٩) لقد تدانا العوني بطلبه العفو وتذلل تذللا لا مزيد عليه عندما قال انا لا ارى نفسي الا عبدا مملوكا (وماسوما) الوسم — هو عبارة عن كي نار تكوى به الابل والغنم حتى تكون عبارة عن العلامة الفارقة التي تميز الحيوان المكوى من سواه .

١٠) وفي هذا البيت اسراف من العوني بالتذلل فهو يعترف على نفسه بان خلقه خلق العبد الذى نفسه وطباعه نفس عبد وخلقه خلق عبد حتى ولو كان ينحدر بنسبه وحسبه الى سلالة محمد بن عبد الله (ص) — لا ذلك الانسان الذى فرضت عليه الظروف القاسية بأن يختلس من اهل ويطلق عليه اسم عبد بينما خلقه وجبلته جعلاه ان يتمرد على واقع أمره التعيس ويعيش بين مجتمعه عيشة الاحرار الكرام — كما وقع مع نبي الله يوسف — عليه السلام — ومع كافور — ومع مئات الوف الرجال الذين اختلسوا عبيدا وفرضوا انفسهم زعماء وحكاما وفرسانا . وعكسه بعض الناس الذين خلقوا عبيدا وعاشوا باخلاق العبيد خونه لا اخلاق لهم ، وهذا ماقصده العوني بقوله :

(لا شك طبع العبد لو جاد ماشوم العبد به بوقه ولو صار رجال)

فيقول هذا الشاعر البليغ انه معترف على نفسه بأن خلقه وسجيته سجية العبد الذى من ذلك النمط . ومن يكن في هذا الخلق فانه لابد الا أن تصدر منه خيانة وغدر ، وعلى هذا الاساس ينبغي أن لا يحكم على المرء الذى اخلاقه من هذا النمط .

١١) يحاول الشاعر ان يتلافى ما هدره من كرامته في البيتين اللذين قبل هذا البيت ، فيقول : انا الرجل الشهم صديق الصناديد الابطال حماة الموخرة وحماة الذمار — وكأنه في هذا البيت يخاطب الامام بصورة غير مباشرة قائلا : لا يظن احد انكم اذا لم تقبلوا معذرتي وتعفوا عني ، بأني لا أجد رجالا ابطالا يحترمونني كما احترمتموني . بل سوف اجد زعماء اعاشرهم لانني محبوب ومحترم عند الرجال ذوى الشأن والشهامة .

١٢) فاذا لم تعفوا أيها الامام الأب . وتقول كل الذى مضى تجاوزنا عنه وقبلناه — فان الذى ينفسي ابنك قائد الابطال لا زال باقيا لم يغيره نحوى شيء .

١٣) في هذا البيت معنى يقول فيه العوني ان الامام الابن اى عبد العزيز اشبه ما يكون بالحصن المنيع في حماية بلاده نجد — من سيطرة المستعمرين .

١٤) الا ترني من شدة غضبة الامام الابن علي امشي فاضا طرفي ذليلا خائفا منفردا — لا جليس لي ، فكأنني انسان مستهلك من الظمأ في قلب الصحراء وفي عنفوان الصيف .

١٥) معنى هذا البيت مطابقا لمعنى البيت الذى قبله .

١٦) لا شك ان لو لم يكن ابو تركي حارسا لي (يقصد الامام الابن) لوجدت الطيور الحقيرة — اليوم — يفترسني لان الناس كلها غضبت علي وعندما يقول (اليوم) فانه يقصد جبناء الرجال

١٧) ارجو أن تعفوا عني وأعود الى المنزلة التي كنت أحض بها رافلا سعيدا — والايام الكفيلة سوف ترى مني أيها الامام ما يرضيك عني .

قبل الامام معذرة العوني من ناحية ورفضها من ناحية

عندما أنشد العوني قصيدته هذه التي تحتوى على ابلغ معاني الاعتذار، لم يكن هدفه محصورا على طلبه العفو عما بدر منه فحسب — بل كان هدفه قائما على ان يسترد مكانته المرموقة التي نالها عند الامام الاب والابن — تلك المكانة التي قل ان يشاركه فيها الا القلة الافذاذ من زعماء البلاد ، اما الذين من بني طبقته فانه لم ولن يشاركه فيها احد قط .

وقد سبق أن ذكرت مانقله لنا الرواة انه اذا قدم للامام عبد العزيز هدية من الخيل الاصائل او من الابل النجائب امر الامام ان تعرض هذه الهدية على العوني اولا فيما اذا كان له فيها نظر، اكثر من ذلك يقول الرواة الثقاة انه مامن مواطن يشرب الدخان في تلك الفترة ، الا وتجده يخفي شربه له ويتستر بشربه ويجحده ، من اقرب المقربين اليه — ماعدا العوني ، فانه كان يشربه علانية . وباسلوب يعتمد به ان يتحدى ويستفز ويستهتر بالقوم الذين يعيبون عليه شرب الدخان ، والاسلوب الذى يتحدى به العوني عائبيه هو انه اذا مشى ركب الامام اشعل غليونه وهو فوق راحلته ومن ثم يرفع الغليون فوق رأسه عاليا ويذهب يلوح به واضعا له بين ابهامه وسبابته ، ومن لا يعرف عظمة جريمة شارب الدخان عند اهالي نجد بصورة عامة وعند اهل الرياض بنوع خاص . فانه لا يستطيع أن يقدر ضخامة هذا العمل الذى يتحدى به العوني المجتمع بأسره . واكاد أشك بصحة هذا العمل الاستفزازى الذى يقوم به العوني لولا أني سمعته من سليمان بن[1] حضر الرجل الصادق ، والذى عاصر العوني وجالسه . ومما لا شك فيه ان العوني عندما يفعل ذلك فان غايته ان يورى عدائه واصدقائه مقدار الحصانة التي يتمتع بها عند الامام عبد العزيز ...

---

(١) انظر كتاب المؤلف فهد بن سعد ومعرفة ثلاثين عاما ، صفحة ٢٠٥ ، وانظر كتاب المؤلف من شيم العرب جـ د ص ٧١ .

وقد بات مفهوما والحالة هذه ان شاعرنا عندما أنشد قصيدته الطافحة باكثر من معنى من معاني الاعتذار ـ بل والتذلل والخنوع ، لم يقصد من وراء عمله هذا مجرد طلب العفو وعدم العقاب ، فذلك أمران لم يكن بحاجة أن ينشد قصيدة كهذه من اجلهما ، والسبب انه هو وامير بلاده ، محمد ابالخيل ومن معهما لم يستسلموا ـ حتى أخذ لهم زعماء بلادهم عهدا من الامام بألا يمسوا بسوء كما سلف ذكره آنفا . وعلى هذا الاساس يكون هدف العوني من قصيدته مبنيا على محاولته اليائسة في رغبته باعادة مكانته.. واذا عدنا الى معنى البيت الذى انشده في آخر قصيدته هذه يبدو لنا الامر واضحا ان قصد الشاعر مبني على رغبته باستعادة مكانته الاولى . ولكن الامام الابن ، عرف نفسية العوني ودرس خلقه . وانتهت دراسته هو والده الامام الابن بنتيجة جعلتهما يؤمنان ايمانا قاطعا أن العوني مستحيلا على سجيته التي مزجت بدمه ولحمه ان يعيش سليما سالما ـ اذا لم يحقق هدفه الذى يطمح بأن يكون هو الحاكم الفعلي المتوارى . ولذلك ، كان جواب الامام عبد العزيز للعوني على قصيدته تلك محصورا بالعبارة الموجزة الآتية :

اهلا بك يالعوني مواطنا كبقية المواطنين . وقد عفونا عما سلف ، ولكن العودة الى منزلتك السابقة مستحيلة . ادرك العوني بذكائه المعهود ، وببديهته أن الامام عبد العزيز قبل عذره من الناحية الشكلية ـ اما من الناحية الاساسية ، فقد ثبت لدى الشاعر ان الامام الاب والابن عرفا بمعرفة عميقة الجذور ، عرفا العوني من اخمص قدميه الى هامته وبات لدى الشاعر الداهية من الايمان العميق أن أية محاولة يقوم بها بغية اعادة مكانته الاولى عند الامامين فانها محكوم عليها بالفشل الذريع والجفاء السريع .

عندما اوصدت الابواب في وجه العوني استطاع فتحهـــا

عندما رفض الامام قبول معذرة العوني التي يستهدف بها اعادة منزلته الاولى ـ كـــان متأكدا ان العوني اذا لم يسترد منزلته السابقة عندهم فانه سوف يغادر البلاد . وهذا منتهـــى مايريده الامام الاب والابن .

لم يخطئ الامام الهدف في ظنه في العوني . وذلك انه عندما نظر الرجل ان اعادة ـ منزلته السابقة اصبحت مستحيلة ـ هناك ذهب على مايقال يردد بيت الأمير الشاعر الفارس عبيد بن رشيد .

عار على مثلي يتخفى الى بـــان يرضى بطعن النفس بعد ارتفاعـــه

وواضح معنى هذا البيت الذى يقول الرواة انه ذهب يردده العوني ـ فمعناه يشير علانية، أن للنفس الطموح عندما تحقق همته بلوغ منزلة سامية فانه من العار عليه ان يعود الى الخلف قانعا بمنزلة متحفظة بعد المكاسب التي حققها في كفاحه المرير .

حينما نظر العوني الى أن الابواب امامه من استرداد منزلته السابقة أصبحت مغلقـــة ، عند ذلك تدبر امره واشغل ذهنه وشحذ فكره ملتمسا السبيل الذى يسلكه ، والباب الذى يلجـــه ، لم يتعذر عليه وجود السبيل المعبد ـ أو وجود الباب المفتوح ـ وحتى لو تعذر هذا وذاك . فان ماهب الترجمة يعهد ان بين جنبيه قلبا لايجد اليأس سبيلا يتخلل اليه منه كما يجد بين جوانحه طاقة عارمة . وارادة فولاذية وفكرا ثاقبا قادرا على فتح الابواب اذا اغلقت في وجه غيره من اصدقائه لكنه لايفتح هذه الابواب لنفسه مهما عصا فتحها ـ اليس هو القائل :

أقدم ببيض وانا مـــنى بدبوجـــه وأسف العلم كاني ما اتمعلى بـــه

والمقابل بصدرى تقـــل منســـوجه افتح الراى الى منه غلق بـــابـــه

ألم يكن في البيت الاول معنى يشير به الشاعر الى أنه يجعل نفسه في بعض الاحيان فيما . وهو في منتهى الذكاء ـ كما ان في البيت الثاني يقول ان الحكم مطبوعة في صدره ومسجلة فـــي لوح ده . وانه قادر على فتح الاراء المغلقة مهما تعذر فتحها ؟ ..

فالرجل الذى لديه في ذاته هذه الثقة الوطيدة ـ لم يدب الى نفسه اليأس في شقه للطريق الذى وان استعصى على غيره فانه لم يستعص عليه .

عندما كرس العوني فكره في اختيار السبيل الذى يسلكه والبلاد التي يذهب اليهـــا ـ ارالزعيم العربي الذى يقصده . فلم يرله بدا من ان يذهب الى العراق ، قاصدا الشيخ سعـدون ان سعدون . وابنه عجمي اللذين يرأسان قبيلة المنتفق التي من اكبر قبائل العراق . كمـا أن لسعدون وابنه عجمي نفوذا وسلطة قبل أن يضارعهما في العراق اى رئيس قبيلة ، يضاف الى ذلك ، أن الشيخ سعدون يعرف العوني جيدا ، منذ أن التقى به في الكويت ـ قبل معركة الطوفه ـ وأثنالها وبعدها . بل ويعرف عنه ان الرجل المحرض والمهيج الذى لا يستغنى عن وجوده الحاكم المحارب . كما ان العوني يعرف الشيخ سعدون ويذكر انه انشد فيه ابياتا طافحات بالاطـــراء والمدح ـ وهذه الابيات جاءت ضمن قصيدته المسماة " الخلوج " السالف ذكرها ـ والتي فيها من معاني الاطراء لشخص الشيخ سعدون بالذات ـ الشيء الذى يفوق ما انشده العوني من الاطـراء والمدح بالشيخ مبارك آل صباح ، الذى يعتبر هو القائد الاعلى لتلك المعركة ، وان كان الشيخ سعدون ارسخ من مبارك زعامة في العراق .

كل من سعدون والعوني بأمس الحاجة لصاحبه

وهكذا نفذ العوني قراره الرامي الى ذهابه تجاه الشيخ سعدون المقيم في العـــراق . إذا كان العوني بأمس الحاجة الى زعيم يلتجيء اليه بعد أن ضاقت به الارض بما رحبت . ووجد في

سعدون منتهى أمنيته . فان الشيخ سعدون هو الآخر كان باس الحاجة الى جهاز اعلام متحرك كالعوني .

أجل ، لقد وجد العوني عند الامير سعدون ، المرتع الخصب والمجال الفسيح الـــذى يرسل هذا الشاعر خياله فيه ، كما ان الامير سعدون وجد في مجيء العوني مايثلج صدره ويشـد لك ازره ــ لا بصفته شاعرا مهيجا لا يبارى ومحرضا لامثيل له . ومصدر اعلام لايضارعه احد في وقته وفي محيطه ــ بل علاوة على ذلك ، هو ما يعرفه سعدون عن العوني بأنه جليس حكام لا يستغـــنى الحاكم عن مشورته والاخذ برأيه الحكيم السديد ، وذو بصيرة نافذة وعقل راجح . كان مجـــيء العوني الى سعدون احرج الظروف القاسية التي واجهها الشيخ سعدون وابنه مجبي ، واذا كان أسوأ ظرف تواجهه الامة والقبيلة هو عندما يدب الخلاف بين هذه الامة او تلك القبيلة فـان هوة الشقاق بين الامير سعدون وبين قسم من افراد قبيلته الذين تمردوا عليه قد اتسعت اتساعا يدعو الى الرثاء ، ~~كما اتسعت اتساعا يدعو الى الرثاء~~ ، كما اتسعت هوة الشقاق بين الشيخ ــ سعدون وبين حمود بن صويط رئيس قبيلة الظفير اتساعا عنيفا .

واذا كان السمك لا يعيش الا في الماء . فان العوني لا تكمل سعادته ، ولا تتفجر قريحته ولا تنمو مواهبه الا في المحيط الذى فيه مجال النقع حوافر الخيل ــ ومكان يسمع فيه دوى الرصاص أينما يرى فيه ، وصليل السيوف ، وارضا يسمع فيها صوت اسنة الرماح .

وهكذا وجد العوني مايشبع هوايته عند الشيخ سعدون ، ولكنه من ناحية أخرى يشعر بحسرة تحز في نفسه لماذا ؟ لانه وان وجد عند آل سعدون شيئا من الاحترام والعناية والاكرام الذى يعزيه الى حد ما عندما فارق حكام بلاده في نجد ، فقد عاملا اساسيا من اهم العوامـــل التي اذا تعذر وجودها عنده ، فانه يكون اشبه بتاجر المجوهرات التي جاء بها عند اناس ــ لايفرقون بينها وبين خرزة القزاز .

اجل ، فقد العوني رجال محيطه النجديين الذين اذا انشد قصيدة حماسية ، ثم لحنت على نغمات الطبول في العرضة الحماسية اعترى ملحنوها هوس من الحماس يجعلهم يتمايلون جماعة وأفرادا — كأنهم سكارى — وما هم بسكارى . ولكن نشوة المنفوان والبطولة كانا شديدين بصورة ترى الدمع ينهمر من مقلتي المواطن النجدي عندما يسمع بيت حماس انشده العوني — بدون ان يملك السيطرة على عواطفه .

فقد العوني هؤلاء الرجال الذين يتذوقون كل معنى من معاني ابيات قصائده الحماسية المهيجة للحواس والمثيرة للشجون .

وجاء الى رجال محيط كهذا ومجتمع في العراق — جاء الى قبيلة آل سعدون — المنتفق — الذين كانوا حربا قحاحا . ولكنهم لا يفهمون ولا يتذوقون المعاني التي ينشدها العوني بلهجته النجدية الا اذا كان التركي يفهم المعاني التي انشدها المتنبي ؛

وضع العوني الحكمة عند من لا يفهمها ولا يقدرها

واذا كان المثل العربي يقول : كل يرى الناس بعين طبعه .. فقد أملى طبع العوني عليه الشيء الذي جعله يتصور ان رجال قبيلة آل سعدون يفهمون كل معنى من معاني الابيات التي ينشدها — كما يفهمها ويتذوقها ابناء وطنه النجديون .

وكان خطاء العوني الكبير هو أنه لم يعمل بالقاعدة الخالدة بالحكمة والبيان تلك التي أوصى بها عبد الله بن العباس رضي الله عنه عندما قال : لا تؤتوا الحكمة غير اهلها فتظلموها . ولا تمنعوها اهلها فتظلموهم .

والقصيدة الحماسية المهيجة التي انشدها العوني قاصدا اثارة الائفة في نفوس قبيلة آل سعدون بلغ ستين بيتا ، ابتدأ مطلعها بوصف الرواحل النجيبة التي تحمل رسله الذين طلب اليهم أنه أحدهم ان يبلغوا رسالته لقبيلة آل سعدون . ولم يترك الشاعر في تلك القصيدة — فيما اعلم — اى معنى من المعاني التي يعتقد أنه سوف يكون له أثرا ايجابي في جمع شمل رجال آل السعدون " وتوحيد قلوبهم وصفوفهم " .

لقد بدأ اولا أورد بيتا أوضح فيه أنه متفان بالاخلاص لهذه القبيلة ولرؤسائها ، آلـه سعدون وأنه عندما انشد هذه القصيدة لم يكن له أية امنية الا امنيته الوحيدة التي يرى فيها آل سعدون منتصرين على العدو ومنعمي الجانب .

ثم بعد ذلك ذهب الشاعر يلومهم قائلا ما هو السبب الذى جعل الهوان يبلغ بكم الى هذا الحد ؟ يتساءل هذا السؤال — ثم يجيب على سؤاله هذا فيقول : ان السبب فيما لحق بكم هو تخاذلكم الذى جعل لاعدائكم مجالا ينفذون عليكم من قبله .

ولنترك مطلع القصيدة كما سنترك الابيات التي تبعد بنا عما نستهدفه من اختصار البحث فلان آتي بالابيات التي تصل بها مباشرة الى المعاني التي كرس الشاعر افكاره في صوغها واداء هدفه المنشود كقوله :

قولوا يحميكم بالسلام مولـــع	في حب عليائكم ورفعة نشورهـــا
عدين معاليكم بسني جمع شملكم	عسى ترثه الاجداد تبعث قبورها
وعس مقامات .. ينتهبا جدودكم	تهنى وتعمر ما تهدم قصورهـــا

الشرح :

١) يقول : يا أيها الرسل بلغوا سلامي لرجال عشيرة السعدون واكدوا لهم بأنني متفان بالمحبة لهم والغيرة عليهم .

٢) واني لصديق مخلص لكم وكل مايهمني هو جمع شملكم ولا اتمنى الا ان تكونوا خير خلف لخير سلف .

٣) وأود مخلصا بأن المجد الذى ورثتموه من اجدادكم بأن يظل شامخا كالطود ولا يعتريه مايحطم بنيانه ويهدم كيانه .

ثم ينتقل ويقول : اني لأعجب من امركم أيها القوم : ما الذى جعلكم ترجعون القهقرى الوراء . وما هو سبب هذا التخاذل والفتور والذل الذى دب بكيانكم ومثل هذه المعاني يقول :

الى طاد عدتكم كثيرة ومالكم ... على اى ذنب يعتريكم فتورها

تقولون صكتنا الحروب وأعطبت ... وايامنا جارت علينا دهورها

نقول : كذب بل تحاربون من بغى ... يشمل رايتكم ويسعد سفورها

تقولون قل صابنا عقب خبركم ... نشوفكم كثر الدبا من نشورها

تقولون دنيانا علينا تغيرت ... تغيرتم انتم ما عرفتم فحورها

الايام هي الايام مازاد عدها ... هذى لياليها وهذى شهورها

٤) يقول : اني ارى عددكم كثيرا واموالكم كثيرة . اذن ما هو السبب الذى جعل الهوان يعتريكم ؟

٥) أتدعون ان الحروب اهلكتكم حتى انهكت قواكم ؟

٦) نقول لكم انكم تكذبون بادعائكم هذا ، بل تستطيعون أن تحاربوا أية قوة تعتدى عليكم فيما لو صدقت مزاعمكم .

٧) تقولون اننا اصبنا بمجاعة من جوائح الدهر فهلك كثير من عدد رجالنا وانشلت قوانا الحربية . فان كنتم تدعون هذه الدعوى فاننا نقول : انكم تكذبون بادعائكم هذا لاننا نراكم كثيرين كثرة تشبه كثرة الجراد .

٨) اتقولون ان الدنيا تغيرت عما كانت عليه سابقا ؟ فنقول ان التغير جاء منكم لا من الدنيا .

٩) الايام لم تتغير اليوم هو اليوم بعدد ساعاته . والاسبوع هو الاسبوع والشهر هو الشهر .. اذن ؟ لم يكن بالايام اى تغير ثم يأتي بعد ذلك العوني ويلوم عشيرة ابن سعدون فيقول :

لكن مفرقكم احاسيد وبغض ... وذل فشى قلوبكم مع اصدورها

ما تأنفون العار والذل والردى ... ونفوسكم طاحت وضاعت قدورها

شهيات بان العيب فيكم وبانت ... بالاقصى والادنى بان فيكم قصورها

شهيات انا انحاكم ثمانين نحوة ... يوم لعل النفس تلحق سرورها

وش خانت الاتعاب الجياد وربطها ... الى عاد ما زارت عسى من يزورها

١٠) ولكن الذى جعلكم متفككين بهذه العورة هو كيد الحاسدين والمبغضين لكم مع الجبن الذى دب في قلوبكم وتمركز في صدوركم . وهو الفقد

١١) لقد بلغ الجبن حدا جعلكم تفقدون الانفة من وصمة العار والجبن و " الردى " اى الدعسة لا الردى الذى هو باللغة العربية الموت .

١٢) قوله " شهبات " كنية حسنة للمنتفق قبيلة ابن سعدون الادنين يقول : يا أيها الرجال لقد بان العيب بالقريب منكم والبعيد .

١٣) أيها الرجال اني استغيث بشهامتكم واستنجد بحروءتكم وانخاكم لا نخوة واحدة بل ثنائين نخوة راجيا منكم أن تقوموا وتتحدوا لعل نفسي تسعد وتسر فيما اذا رأيتكم يوما بهذه العورة .

١٤) اذن ماهي الفائدة من أن تشتروا الخيل الاصائل طالما ان هذه الجياد لا تغير على حدود العدو الذي ينتهك حرمتكم ويذكرني ببيت للشاعر احمد الصافي النجفي القائل :

واعجب من شعب يبيت على الطوى ومن رجل بالناس يرمي ولا يرمى

وأخيرا يختم الشاعر قصيدته قائلا :

فان ما حصل قصدي وضاعت مدائحي بكم خاب ظني ليس ينفخ بصورها

قلته وانا منكم على اللسين والقسي صديق شفيق وانفسي في صورها

١٥) فان لم تلبوا ندائي هذا الذي من صالحكم فقد خاب ظني بكم للأبد .

١٦) اني حينما الح عليكم بهذه الابيات التي قد يكون فيها شيء من القسوة يجب أن تعلموا بأن الدافع لذلك هو اني مخلص ومود لكم وصديق ولي لكم في حالات الشدائد والعسر .

سبق أن قلت أن هذه القصيدة ذهبت أدراج الرياح ولم يبق لها اى تأثير في نفوس رجال تلك القبيلة . ولكن العوني كعادته لم تفتر همته ولم يدب في نفسه اليأس رغم ان هذه القبيلة ارادت تفكيكه ، استطاع بدهائه وحنكته بأن يبدي رأيا سديدا لعجمي السعدون . يتلخص هذا الرأي بأن يذهب لسعود بن رشيد ويستنجد به على عشيرة الظفير ومن تمرد على ابن السعدون ولقد نجحت هذه الفكرة نجاحا باهرا حيث جاء العجمي ابن سعدون وصحبته العوني ، جاء

الانسان لسعود الرشيد ،

اذا فشل العوني في شعره فانه لم يفشل في رأيـــه

كان المفروض أن تخور قوى العوني وتخمد همته . وذلك عندما فشل في اثارة نخوة المنتفق ، في قصيدته هذه ، كما انه فشل في قصيدته تلك التي طلب فيها قبول معذرته عند الامام ابن سعود وهكذا توالت الصدمات على العوني ، ولكنه رجل قوى المراس لا طين له قناة . ولا يؤمن بالهزيمة . يقدر ماعرف بأنه شاعر ذائع الصيت لا يضارعه بقوة بيانه اى شاعر شعبي خاصة في ميدان الحماسة والتحريض ، يقدر ماهو معروف ايضا بأنه ذو ارادة فولاذية ، وعزيمة صارمة ، وفكر ثاقب ، ورأى صائب بل الحديد ، وبديهة سريعة لا تنمو ولا تزدهر الا اذا تفاقمت الاحداث واستفحلت الكوارث وتوالت النكبات .

● ولما كان الشيخ سعدون يعرف عن العوني هذه المزايا ، فقد هرع اليه مستنجدا في رأيه طالبا مشورته في حله لمشاكل . واذا كان الشاعر العربي بشارة الخوري يقول في عجز بيت مـــن قصيدته الهائية : (لا يؤخذ الشيء الا من مصادره) فاني شعرت بحيرة عندما أخذت احـــداث تلك الحقبة التي قضاها العوني عند آل سعدون من اوثق وأصدق مصادرها الا وهو الشيخ هجمي السعدون الذي سنحت لي الفرصة بالاجتماع به في ١١/٢٨/١٣٧٤هـ ، وكان ذلك الاجتماع في دمشق خاصة أمية . وكان هجمي وقتها قادما من تركيا وقاصدا تأدية فريضة الحج .

كنت من أشد المعجبين بهذا الامير ومصدر اعجابي به جاء من طريق القصائد الـــتي انشدها فيه العوني ـ كما جاء من طريق الروايات المتواترة عما يقال عنه من شجاعة فذة وعن وفـــاء مطلع النظير .

وما أكثر الرجال الذين يعجب بهم المرء ساعة ، ولكنه عندما يدنو منهم ويعرفهم عن كثب يعود بذاكرته الى المثل الدارج ـ سمعك بالمعيدي خير من أن تراه ـ وما أقل الرجال الذين اذا عرفتهم عن قرب وجدت فيهم من المثل وصفات النبل والرجولة ـ أعظم مما نقله الرواة عنهم .

وهكذا كان ـ أبو مطمشر ـ الشيخ عجمي من هذا النمط(١) .

قضى الشيخ عجمي في دمشق بضعة ايام وعندما رجع مؤديا فريضة الحج قضى ايضا اياما ـ أقل من الاولى كنت ملازما له ، في أكثر الاوقات . وقد الفيته يمثل الخلق العربي الصريح باصالته بكل ما تشير اليه هذه الكلمة من المعاني السامية ـ لا يتحدث الا اذا سئل ، واذا تحدث أوجز وصدق ـ متواضع في لباسه وفي جلوسه وفي جميع حركاته ـ ليّن العريكة سلس المعشر ـ الى درجة انني عندما أطلت الجلوس عنده والاحتكاك به والحديث معه ، ذهبت أتساءل ونفسي أهذا عجمي الذي نسمع عن شجاعته ووفائه الاساطير .

ومن غرائب الصدف انني اجتمعت بالشيخ عجمي بالظرف الذي كنت أفكر بأن أذهب به اليه في تركيا لآخذ منه خلاصة الاحداث التي كان العوني محورا لها ـ وعاملا رئيسيا فيها ـ أما وقد شاء القدر أن يأتي عجمي بنفسه الى دمشق مقر عملي واقامتي فقد وجدتها فرصة موفقة لاقتباس عندي بثمن ـ الامر الذي جعلني شديد الحرص على أن لا تفلت من يدي هذه الفرصة بدون أن أكثر الاتصال المباشر بالشيخ عجمي لازداد علما عما قام به العوني من نشاط أدبي وعسكري وسياسي ـ على اعتبار ان الشاعر حينما كان عند آل سعدون ساهم في جميع هذه الميادين .

---

(١) انظر كتاب المؤلف " من شيم العرب " جزء ١/ ص ٩٨ ـ الطبعة ١

وكان الذى يهمني أكثر هو معرفة الدور السياسي الذى قام به العوني — بعد فشله في قصيدته السالف ذكرها — وقد فهمت من الشيخ عجمي أن والده في تلك الفترة بالذات كان يلجأ الى الاخذ برأى العوني — وفي تلك الجلسات المتعددة التي قضيتها مع الشيخ عجمي — استفدت منه فائدة لا أستطيع الفوز بها لولم تكن هذه الفائدة جاءت من مصدرها الاساسي الذى كان له الماما عميقا بالحوار الذى دار بين والده الشيخ سعدون وبين العوني ذلك الحوار الذى جاء على الوجه التالي :

قال سعدون للعوني — ماذا بقي عندك " يا ابو عبد العزيز " من الآراء التي تستعين بها على حل مشكلتنا .

العوني — أرى أن لا محيص لنا من أن نستنجد بأحد زعماء العرب ليساعدنا على الانتقام من هذه القبائل التي اساءت اليك وخاصة قبيلة الظفير .

سعدون — أصبت في رأيك ولكن من هو ذلك الزعيم الذى يفرط في قوته ورجاله ويغامر بحرب مجهولة المصير من أجلنا .

العوني — أريد منك ان تحاول ما استطعت بأن تبذل كل ما لديك من الجهد بالاستعانة بالاصدقاء فان افادك الاصدقاء فيها — وان لم تنجح محاولتك هذه فاننا سوف نحاول ما استطعنا بأن نستنجد بعدونا اللدود الذى هو ابن رشيد .

سعدون — هل من العقل أن ينجدنا ابن رشيد العدو القديم فيما اذا رفض اصدقاؤنا مناصرتنا وتنجدتنا لا سيما وابن رشيد طول حياته ، وهو صديق لابن سويط المخلوع ، فكيف به يهاجم اصدقاءه الاقدمين ويناصر اعداءه السابقين ؟؟

العوني — لا شك ان ابن رشيد عدو لنا كما ذكرت . وصديق حميم لابن سويط ملك عهد

قديم وتاريخ عدواته لكم لم اجهله كما لم أجهل تاريخ صداقته لابن صويط ، ولكني أعتقد رغم ذلك أنه سوف يناصرنا على أعدائه .. والسبب في ذلك ، أن الامير طفل صغير لا يملك من الامر شيئا ويجهل تاريخ وحقائق العداوة الراسخة بينكم وبين أهله الغابرين . كما انه يجهل تاريخ وحقيقة صداقة ابن صويط مع اهله الاسبقين . والذى له الحل والربط في شؤون الامارة والوصي عليها أو الامير المنفذ هو زامل بن سبهان . وهذا رجل لا تجهله الحقائق وذو نظر بعيد . وقد يفكر في نفسه أنه اذا ناصركم على ابن صويط فيكون قد ربحكم لنفسه لانه يعتقد بأنه في يوم من الايام سوف يكبر هذا الامير ويتولى الامر هو بنفسه أوسوف يأتي وزير ينافسه على وزارته ويلحيه عليها . ولذلك أعتقد انكم اذا جئتم لابن رشيد وأنجدتم رواحلكم عنده مستنجدين به ، فانه سوف يلبي نجدتكم .

بل سيلبيها هذا الوصي الذى أعتقد بانه يحرص أن يفعل معكم هذا الجميل مقدرا أن يتخذكم ذخرا له شخصيا في الحالات الفجائية الطارئة[1] .

سعدون — انه لرأى صواب وجدير به أن يتحقق ماأشرت اليه يا أبا عبد العزيز .

العوني — اذن فلنذهب اليه ونستنجد به .

سعدون — اتكلنا على الله .

وفي أواخر عام ١٣٣٠ هـ جاء عجمي ابن سعدون الى حائل مستنجدا بابن رشيد على ابن الشيخ حمود بن صويط رئيس عشيرة الظفير ومن دار بفلكه من عشائر العراق المتمردة على ابن سعدون كالمدور والزياد .... الخ .

---

(١) في ٢٨/١١ عام ١٣٧٤ هـ جاء الشيخ عجمي بن سعدون لدمشق في طريقه لتأدية فريضة الحج فسنحت لي فرصة الاتصال به كثيرا ، ودار بيني وبينه حديث كبير عن الماضي في تلك الجلد

وقد انقسم الرأى عند ابن رشيد قسمان : قسم — يرى ألا بد من تلبية هذا المستصرخ ونجدته بأى شكل يكون ، وقسم آخر يرى أن الأوفق بأن يكرم هذا الضيف المستنجد ، بكل معنى من معاني الاكرام والحفاوة ، وان يسعى ابن رشيد بالتوسط والتوفيق بينه وبين ابن صهيط ، ومن تبعه من عشائر العراق ، فان نجحت فكرة الوساطة فذلك ، والا فانه ليس من الرأى أن يخسر ابن رشيد اصدقاء له قديمي العهد بصداقتهم وولائهم من أجل خاطر عدو قديم لم يكن صديقا للرشيد يوما من الزمن . ولا لعشيرة شمر سواء من كان منهم في العراق أو من كان في نجد — . فابن سعدون عدو أصيل لابن رشيد وقبيلته . ومن عهد قريب وقريب جدا ، حدث من ابن سعدون هذا حادث قتل به رجال من قبيلة شمر ودمهم لم يجف بعد . والقتلة كانت قاسية ومثيرة للنفوس والاحقاد ويرى اصحاب هذا الرأى انه ليس من العقل ولا من المصلحة لابن رشيد وقبيلته بأن يناصروا رجلا سيفه لا زال يقطر دما من رقاب اخوانهم وبني عمهم .

ويؤكد أصحاب هذا الرأى قولهم كيف يناصروا عدوهم ويجمعوا شمل المتمردين عليه ومن يضمن ان هذا العدو اذا قويت شوكته لا يعود ويضربنا بها . . . لا . . لا . . ليس من الرأى مناصرة العدو على الصديق ، فمعناه اننا خسرنا صديقنا القديم وقوينا عدونا الحريص على عداوته لنا .

هذا هو رأى الفريق الثاني .

. . . المستمرة التي قضيتها مع الشيخ عجمي نقلت عنه الرواية الآتية : يقول ان زامل السمهان [illegible] قال له : انني الآن الوزير عند ابن رشيد وانت عند والدك ، الشيخ سعدون بمنزلة الوزير ، بل ولي عهد فدعنا نجتمع لنتصادق سويا وكل منا يحفظ الود والاخلاص لصاحبه وليكن فيما بعد كل منا سندا لصاحبه في الحالات الطارئة فيما لو عضه الدهر بنابه واحد منا فيكون الثاني اخا وفيا وركنا منيعا لصاحبه " . قلت وما يؤيد صحة رواية الشيخ عجمي هذه هو ان زامل ابن سمهان عندما تحي عن وزارته وشعر بالخطر الذى يهدد حياته كان قد قرر بأن يذهب الى الشيخ عجمي الذى حل اميرا للمنطقة بعد وفاة والده . ولكن الرجل الذى [illegible] لحاه عن الوزارة وهو ابن عمه سعود ابن صالح السمهان ادرك نية زامل وعزيمته على الذهاب لعجمي فاجهز عليه وقتله غدرا وذلك في عام ١٣٢٣ هـ . والمفهوم من المصادر الثقات بان عجميا كان وليا لعائلة القتيل زامل التي كانت

ولكن هذا الرأى رغم مافيه من المنطق والحكمة والبعد عن الاهواء الخاصة ، فانه لـــم ينل نجاحا ملحوظا ، لماذا ؟ . . لان القوة بجانب اصحاب الرأى الاول ، أى بجانب الوزيـــر ، زامل الذى له ماله من مآرب خاصة من وراء هذه المغامرة . وهي مغامرة خطرة .

لقد كنت وكان الكثير غيرى يجهل كنهها لولا اني اجتمعت بعجمي السعدون ، وأفضى لي بذلك الحديث الذى جاء به عجمي[1] عفوا بدون قصد ، وجئت به كشاهد لصحة مانحـــن بصدده من بحث وكعبرة من عبر التاريخ الذى قد يعيد نفسه في كل زمان ومكان . وكم من وزيـــر سار على النهج الذى سار عليه المرحوم زامل السبهان ناظرا نظرة بعيدة المدى لمصلحته الذاتية بصرف النظر عما سيحدث من نتيجة قد تكون غير محمودة العاقبة للمصلحة العامة . وهذا مايجعل الحاكم اللوذعي الذكي يكون شديد الحذر من أن يطلق العنان لأى وزير مهما عرف عنه ســـداد الرأى ، ومهما عرف عنه ايضا الاخلاص — فمن يضمن ان لايطغى عليه هوى النفس الذى غالبـــا مايكون الانسان ضعيفا تجاه أهوائه الخاصة فيغامر بمصلحة قومه ، في سبيل اهوائه ومصلحتـــه الخاصة .

واذا كان في قراءة التاريخ عبرة يستفيد الخلف من غلطات السلف ، فان أهم الفوائـــد من علم التاريخ ليس الا أخذ الدرس والعبرة من صواب وخطأ القوم الغابرين .

وأخيرا رجحت كفة الوزير على كفة معارضيه . وتجهز ابن رشيد غازيا لنجدة ابن سعدون . وفي بداية الامر لم يلتف حول الامير ابن رشيد جميع رجال القبيلة لما في نفوسهم من حقـــد دفين وعداوة لابن سعدون ، ولكن اخيرا دفعتهم الحمية القبلية جميعا حول اميرهم ابن رشيد . والجدير بالذكر ان رئيس عشيرة بني مطير الشيخ فيصل الدويش انضم تحت راية ابن رشيد وكانـــت

. . . بعد قتله بأمس الحاجة لمن يفي لهذه العوائل التي قتل رجالها وسجن من لم يقتل . ولئن أخطأ الوزير بحسابه بحياته فانه لم يخطأ بعد مماته .

(١) اى الحديث الذى جاء على الهامش سالف الذكر .

النتيجة ان صب ابن رشيد غارته على حمود بن صويط رئيس قبيلة الظفير . ومن التف بجانبه من عشائر العراق ، وقتلهم قتلة شنعاء ، انتصارا لابن سعدون وتنفيذا لآراء صاحبنا العوني الذى سنصغي لبعض ما جاء بقصيدته البائية وهي مائة وستة عشر بيتا ابتدأ بمطلعها يمتدح سعود ابن رشيد مع العلم ان سعودا حديث سن كما ذكرنا . وهو لم يبلغ من العمر الحد الذى يجعله يدرك معاني المدح أوالذم ، فسنه آنذاك أربعة عشر عاما لاأكثر كما أوضح لنا ذلك العوني ببيت من قصيدته بقوله يقصد سعود الرشيد :

ابو ثمان وستة ماكمل ســـــــنه وكبّار التيجان والاسنان كابرهـــــا

فمن أين لصبي بالرابعة عشرة من عمره يستطيع ان يفقه معاني المدح أوالذم ؟ أوماكان صالحا لسياسة أمارته أوماهو مخالفا لصالحه وصالح قومه .

وعلى كل فان العوني لايهمه هذا كله ، وانما الذى يهمه هواله قد نجح بفكـــرته ، وبعد نجاحه هذا ذهب العوني يمتدح الامير ابن رشيد بالقصيدة التي أوردنا منها هذا البيت ، وسنورد بعضا من ابياتها على سبيل ماهو شاهد لهذه الحادثة التاريخية ، وما هو مؤيـــــد لصحة الروايـــــة .

* عندما نجح العوني في فكرته قدم لابن رشيد هدية له فيها مآرب أخـــرى *

عندما رأى العوني ان فكرته أتت أكلها شهيا ـ فما عليه الآن الا أن يقدم الامير حاصل الطفل هدية من هداياه التي لايتكلف بالحصول عليها ـ وهذه الهدية ـ عبارة عن قصيـــــدة

تبلغ مائة وستة عشر بيتا . ولقد بالغ العوني في اطرائه لسعود بن رشيد مبالغة أراد من ورائها أن يحقق مآربه الآتية :

أولا : العوني يدرك العوني انه سبق له هجا عبد العزيز الرشيد والد الفتى الامير سعود هجاء مرا بل هجا أسرة آل رشيد هجاء قذعا من الموسس الاول الامير عبدالله العلي الرشيد الى كل فرد يشمله اسم آل رشيد وخاصة ممن تبوأ على أريكة الحكم من سلالة علي الرشيد . فأراد العوني في قصيدته هذه ان يكفر عما مضى — كما أراد أن يلهي ويلهي آل رشيد عما يدر منه من ذلك الهجاء الشنيع الذى لم يهجو أى زعيم عربي ممن تذكر له العوني كهجائه آل رشيد بصورة عامة ولعبد العزيز الشعب بنوع خاص .

ثانيا : وهذا الهدف متصل بما قبله وهو ان العوني اراد أن يجعل قصيدته هذه مقدمة له عند آل الرشيد — القوم النجديين الذين يفهمون معاني قصيدته ويتذوقون كل معنى ينشده العوني بصورة تختلف كثيرا — عن قبيلة المتنفق أولئك القوم الذين أنشد العوني فيهم قصيدة فيها من معاني الحماسة والتهيج الشيء الذى لوكان موجها للنجديين لماذهبت قصيدته تلك كذهاب الماء الزلال بالارض السبخة .

ثالثا : أراد العوني ان يجعل من قصيدته هذه عبارة عن هدية يكافيء بها ابن رشيد ووصيه امل السميهان لان فيها معاني مدح واطراء يخص الشاعر بها رُسلا بالذات وهذا الهدف الاخير لم يكن عند العوني غاية بحد ذاته وانما هو مجرد وسيلة لتحقيق مآربه التي أوردناها بالهدفين السابقين وخاصة الاول منهما .

هذا وقد كانت القصيدة تحتوى اولا على مدح عظيم لسعود الرشيد . وكان المدح في مطلع القصيدة مباشرة . — ثم انتقل — الى وصف النجائب التي ارسلها لابن رشيد ، وحدد

المدة التي سيعمل بها هؤلاء الرسل لابن رشيد . كما انه هنا هؤلاء الرسل الذين سوف تتاح لهم الفرصة بالسلام على هذا الامير والذين على رأيه سوف يكمل لهم الشرف بمعاصرتهم لذلك الأمير الذى تهابه على ماوصف جميع أعدائه من البشر . ثم انتقل الى أن وصف وضع ابن سعدون الراهن وأشار الى أنه تمرد عليه القوم الذين كان له نعمة ويد بيضاء عليهم ، وانه أى ابن سعدون استنجد بكثير من زعماء العرب الذين كان بينه وبينهم صلة وطيدة وله عليهم اسبقية الفضل . ولكن هؤلاء الزعماء على رأى العموني ، تركوا مايجب أن يقوموا به من نجدة المستصرخ كما هي شيمة العربي بحالة كهذه الحالة .

ويستطرد الشاعر بقصيدته قائلا : بأن الشيخ ابن سعدون قال لي - ماهي الحيلة ، وماذا نفعل ؟ فيقول : اني أبديت له الرأى السديد . قلت له : عليك أن تستنجد ببحر الندى وتترك البقية التي أشبه ما تكون بالأبحار التي لايوجد فيها من الماء الا مكانا هزيلا وقليلا ويقصد ببحر الندى هو ابن رشيد . وأخيرا يمضي بقصيدته هذه ويؤكد بها أن ابن رشيد جاء وفق ماكان يظن ويعتقد به وانه طالب نجدة مستنجده ابن سعدون تلبية تعبر عما يتمتع به الرشيد من نفس عربية لاتحيد عن عادات العرب الأولى .

وأخيرا يصف المعركة التي خاضها ابن رشيد والغارة التي شنها على ابن صويط ، كاستجابته لنجدة مستنجده ابن سعدون .

واضع معي للشاعر بمايقوله من الأبيات التي جاءت في قصيدته المطولة التي لاأرى داعيا لسردها كلها ولا لكثير منها وانما نأتي بمقتطفات من الأبيات التي فيها من المعاني ماهو مؤيد لصحة الرواية وللحادثة .

هذا وكان مطلع القصيدة مدحا مباشرا ولم يسبق للعوني بأن جعل مطلع قصيدته مدحا بصورة مباشرة كهذه القصيدة التي تعتبر من نوادر قصائده البارزات ، واليك مطلع القصيدة :

كابر وجاهر اهل الدنيا وفاخرها	١	مطفي لظا يطفي الهيجا مفاخرها
تراك الى اطريت ذكره تشهد الملا	٢	جميع فهام باديها وحاضرها

١ - يقول : عليك يا مسعود ابن رشيد ان تكابر وتفاخر كل من بهذه الدنيا .

٢ - واذا شئت ان اشيد بذكرك تشهد بذلك جميع العقلاء الفاهمين من البادية والحاضرة .

ويمضي بعد ذلك بمقدار سبعة أبيات تكلمها بمتدح بها الامير وأسرته . وبعد ذلك ينتقل الى رسله اصحاب النجائب طالبا منهم اولا ان يصغوا لحديثه الذى يلقنه اياهم الى الامير الذى يبلغهم سلامه وشكواه ، ثم يحدد لهم المدة التى مقدار خمسة ايام يلبالييها . ومن بعد يصف هذه النجائب ويسير على هذا المنوال بمقدار عشرة أبيات بعد السبعة الابيات الاولى بعد ذلك يتصور ان رسله هؤلاء وصلوا قصر الامارة فيقول :

حلوا بدار السخاء والهيبة التي	٣	منها جميع الملا ترجف ضمائرها
باركب بعد السلام ابدا رسالتي	٤	وهو عليم بخافيها وحاضرها
قولوله الراجي الشاكي يبلغك	٥	عناك والناس عن شكواه عاذرها
معناه مايقدره غيرك وبفهمه	٦	انت الذى بالجهد والجد قادرها
فانام شتت الرحمن شملها	٧	معالمه فارقت وأبقت خسائرها
وابغي الخلف والعوض بالحازم الفاهم	٨	ببضاعة منك ماتكسد تجايرها

الشـــــرح :

- يقول : يا أيها الرسل لقد حللتم بقصر صاحب السخا والهيبة التي يخشى منها قلـوب جميع من عاده من الملأ . يقصد سعود الرشيد .
- يا أيها الركب بعد أن تبلغوه سلامي ، قدموا له رسالتي هـ وهو الرجل الفاهم بمـــا تحتوى عليه هذه الرسالة من بيّنة وخفيّة .
- وقولوا له أيها الركب انني جئته راجيا وشاكيا وقاصدا له وتاركا ماسواه من الناس الذيـن اعذرهم من قلبية شكواى .
- لان معنى شكواى لايقدره ويفهمه سواك .
- وأمرنا واضح كما تفهمه ايها الامير . هو انا كنا اصحاب مجد ظاهر . وكان للناس عندنا غنائم ومصالح يستثمروها منا . وأخيرا شتت الله شملنا وفقدنا تلك الغنائم وهذه المصالح وبقيت تجارة مجدنا القديم كاسدة عند البشر ولم يبق الاّ الخسائر الفادحة .
- وقد جئت اليك راجيا كرمك وملتمسا فيض مروءتك الجمة قاصدا بأن تعيضني عن هذه البضاعة ببضاعة ملك ثمينة لايعتريها الكساد .

يجب أن نعلم بأن العوني بهذه المعاني يشير بأنه يتحدث عن لسان حجي السعدون ، خاصة لان والده تولى في تلك الفترة .

ثم بعد ذلك ذهب الشاعر يمتدح ابن رشيد بأبيات بعد هذه الابيات تبلغ اثني وعشرين كلها مجد وثناء على ابن رشيد . ولست بصدد سرد هذا الاطراء ، لانه يبعد بنا عـــن البحث ، ولننتقل من اثني وعشرين بيتا حتى نصل الى صميم الموضوع وذلك لان الشاعـــر

د هذه الابيات تدرج من المدح الى أن وصف قوة وجيش ابن رشيد حتى انتقل بعد ذلك ن أن وصل الى ثنائه الى الوزير زامل السبهان بعدما قدم على اسم زامل الامير من قبيل مجاملة أوالدبلوماسية كما يقال بعصرنا الحديث . ومن هنا قال :

مر على الشام ابن فيصم يضرب بها	٩	ومر سهيل تحطه في نواظرها
وسعود اميره ويأمر سير الهدى	١٠	زامل مدبر فحى الهيجا عساكرها
مثل امس يوم ابن سعدون عانيه	١١	من ريب الايام دارت به دوايرها
لحا بني عمه الادنين والتنوا	١٢	لحا العرب والعرب خلت موايرها
ولا أفاد فعله الماضي ولا نفع	١٣	صناع عند كل الناس داخرها

- ان جيش الامير العرمرم هذا دائما في حروب مستمرة فتارة يغزو شمالا وطورا جنوبا .

١- وهذا الجيش اميره الرسمي سعود الرشيد هو بأمر وزيره وزير الخير والهدى زامل السبهان الذى اسند اليه تدابير الجيوش في الهيجا والمعارك الطاحنة التي ينجح دائما وأبدا بخطته الحربية كما نجح بخطته هذه التي سيشير اليها بيته الآتي :

١١- ومن الأمثلة التي نستدل بها على نجاح الامير ووزيره زامل من امثال ذلك نجاحه - أمس الماضي القريب عندما جاء اليه الشيخ عجمي ابن سعدون وقصده ، بعد أن عضه الدهر بنابه وتبدلت ليالية الزاهرة البيض بليال سود ودارت عليه الدوائر وضاقت به الارض بما رحبت

١٢- فذهب (يلحا) ويستنجد ببني عمه الاقربين . ولكنهم خيبوا ظنه فلما لم يجب دعوته منهم مجيب ، ذهب اخيرا يستنجد برجال العرب الذين كان بينه وبينهم صلة وطيدة . ولكن هؤلاء العرب تخلوا عن شيمهم القديمة التي تقضي بتلبية نجدة المستصرخ .

١٣ — ولم يشفع جميل ومعروف ابن سعدون الماضي الذى بذله مع الكثير من الناس ، كل ذلك ذهب عند الحاجة هباءً منثورا .

ويقر بالتالي يذهب الشاعر ويوضح لنا بأنه هو صاحب الرأى القائل لابن سعدون عليك ان تترك الجميع وتستنجد بمروءة ابن رشيد .

ولكنه يزيد وضوحا بانه لم يبد رأيه هذا حتى تعذر على ابن سعدون جميع مسالك الفرج وطرق النجاح ، وازداد حيرة في أمره واسودت الدنيا بوجهه بعد ذلك يقول الشاعر ان ابن سعدون قد قال له : هل تعرف لنا سبيل نجاة من هذا المأزق الحرج ، فيقول : اني أكدت له بأن سبيل النجاة هو ان تقصد ابن رشيد كما اشار بقوله :

وحارت وجارت وقال الرشيد وبنه	١٤	يشيروا عليّ الركائب وين صادرها
قلت اركبه واستعن بالله واعتمد	١٥	وافرق مغيب الكواكب عن ملاحرها
وانحر الى الذروة العليا وسكنها	١٦	اقصد بحور الندى وشلك بقاطرها
اقصد سعود الرشيد وسنده زامل	١٧	صيارم جانب السرا مواكرها
عينيك يا ناخ جانا يحثها	١٨	عينيك يا طالب النجدة يحاضرها
ليله نهاره نجوم الليل سامرها	١٩	عينيك يا ناخ جانا يحثها

١٤ — لقد ازدادت حيرة ابن سعدون . ولم يجد له منفذا يسير منه فرارا الى النجاة والفوز . وأخيرا قال لي الشيخ سعدون دلني على سبيل الرشد وارني اياه لاني في حيرة من امري ، فوافني برأيك ان نذهب الآن ؟ وبمن نستنجد ؟ فيقول : بعد ذلك :

١٥ — فقلت له عليك ان تشد رحالك وتستعين بالله وتعتمد عليه وتذهب (الى مغيب الكواكب) اى الى جنوب العراق — يقصد الموقع الذى تكون به بلدة ابن رشيد حائل .

١٦ - (انحر) بمعنى اقصد يقول : اني أشرت طيه بأن يقصد ذروة العلاء . وفي المصراع الاخير معنى قريب جدا من المعنى الذى جاء به ابو الطيب المتنبي بقصيدته التي يمتدح بها كافورا اذ يقول :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

وهذا العوني يقول اني قلت اقصد لسعدون بحر الندى ودع السواقي ذات القطر القليل ((هذا من تبادل الخواطر)) وقد أكدت طيه بأن يقصد سعود الرشيد ووزيره زاملا ، وقد حرف الرواة اصحاب الاهواء مصراع هذا البيت خاصة بعد وفاة زامل وقالوا ان العوني يقول : اقصد سعود الرشيد ومسنده شمر . ولا شك ان هذا ابلغ - واجمل من ناحية ابن رشيد وقبيلته ، ذلك انه عندما يقول وسنده وعضده شمر أى القبيلة بكاملها يكون اكمل معنى من أن يكون سنده وعضده رجل بمفرده . ولكن العوني يعرف بأن هذا الفرد بزمانه اذا امتدحه وجاء بجانبه خير له من ان يمتدح القبيلة بكاملها ، ذلك ان الحكم وازمة الامور كلها بيد هذا الفرد ، .

ولذلك نجد العوني كان ملما بعقلية رجال زمانه ومحيطه . فذهب يقول :

١٧ - " ومسنده زامل " ومال شمر " وهؤلاء رجال شمر الكثير منهم كان غير راض عن مناصرة ابن رشيد لابن سعدون طى ابن صويط . ولكن هل أفاد عدم رضاء أولئك الجماعة عندما أصر هذا الفرد أى زامل السمهان وهذا ما أراد العوني بقصده .

١٨ - يقول من حين ان وصلنا لابن رشيد ماتردد عن نجدتنا بل لبى طلبنا فورا .

١٩ - " لاصليك " أى ابشر بتلبية طلبك . فيقول ساعة شرحنا لابن رشيد امرنا قال ابشر أيها المستنجد الذى جاء الى بلادنا ساريا الليل وماشيا بالنهار لاقصد له الا أن يستغيث بنا .

ثم مضى الشاعر بعد ذلك يؤكد بأن ابن رشيد قد أخذته النخوة وأمر على جنوده بأن يتأهبوا لقتال ابن صويط ارضاء لنا واصغاء لنجدتنا .

لقد استرسل في هذا النمط بمقدار ثلاث وعشرين بيتا عدا البيوت الاول ، ذهب يصف كثرة جنود ابن رشيد ثم ذهب يذكر قبيلة مطير أيضا التي جاءت ملبية لدعوة ابن رشيد ، بقيادة فيصل الدويش ، وسار في سبيله هذا حتى جاء الى معان اشار بها في هذه الابيات اشارة أوضح بها بأن ابن رشيد كان حريصا على أن يصلح الامر بين ابن صويط وبين ابن سعدون رئيسه القديم . ولكن ابن صويط رفض ومن ثم ينتقل بنا العوني الى وصف الخطة الحربية التي كما يزعم رسمها ابن رشيد وتم بفضل هذه الخطة النصر له على ابن صويط . فيقول ابن رشيد حينما رأى ان ابن صويط رفض قبول التوسط منه ، فعند ذلك تظاهر بالهزيمة والفرار عن ابن صويط فتبعه بن صويط طامعا بأن يقتل جنوده ويهزمه فيعود الشاعر ويوضح بان فرار ابن رشيد هذا كان القصد منه هو ان يستدرج ابن صويط لأن ابن صويط كان في موضع حربي محكم لا يستطيع ابن رشيد ان ينتصر عليه فيما لو ظل في موقعه هذا معسكرا كمكافح لا مهاجم . ولكنه يقول الشاعر من جهل ابن صويط بالخطط الحربية هو ان خرج من هذا الموقع الحصين وجاء مهاجما .

ثم ينتقل بنا الشاعر الى وصفه للمعركة ونوع الانتصار وعدد القتلى من العدو ويتمنى بأن سعدونا كان حيا يرى هذه الكارثة التي حلت بالقوم الذين تمردوا وعصوا عليه فيقول :

بين المغيرا وشقرا ساعة توجب	٢٠	باليت سعدون قبل الموت حاضرها
خمسين جمع ولد نايف مشى بهم	٢١	وسعى سعود الرشيد يقطع دابرها
وأومس عليهم بخيل ما ثنت لجمه	٢٢	الا بها ماتم تاطس حوافرها
ألف وسبعمائة صرعى مطرحه	٢٣	راحت دماهم على البيداء صوابرها

٢٠ — المغيرا وشقرا مواقع في حدود العراق . وبين هذين الموقعين حدثت المعركة العنيفة ولهذا يتمنى الشاعر أن سعدونا كان حيا وشاهدا لهذه المعركة لتقر عينه .

٢١ — يقدر الشاعر قوة ابن صويط انها مقدار خمسين جمعا والجمع لا يقل عدده عن خمسة الفو بالتكتيك العسكري . والفوج اربع سرايا والسرية لا تقل عن مائة وعشرين . واذا حسبنا هذا العدد على تقدير الشاعر يكون عدد جنود ابن صويط ثلاثا وعشرين الف مقاتل . ولكن الشاعر يقول بأن عدد هذا الجيش العرمرم كله على رأى الشاعر بانه هزم وقطع دابره .

٢٢ — وقد هزمهم ابن رشيد بخيل ماتراجع فرسانها الا بعد أن مشت حوافر هذه الخيل على رؤوس القتلى من العدو .

٢٣ — وقد بلغ عدد القتلى الفا وسبعمائة قتيل كلهم سالت دماؤهم على البيداء كما اكد ذلك .

ان هذه النجدة التي جاءت من ابن رشيد لابن سعدون وكانت النتيجة ان خسر ابن رشيد صداقة ابن صويط صديقه القديم ولم يربح صداقة ابن سعدون الا مدة قصيرة . تلك المدة التي لا تتجاوز سنة أوسنتين . اذ انه بعد عام من هذه الحادثة ، ابعد زامل السبهان عن الوزارة وحل محله — ابن عمه سعود بن صالح السبهان — لتغيرت السياسة . أقول : كانت تلك النجدة ناشئة عن بعد تفكير ودهاء العوني .

جئنا بنوع من نشاطه السياسي حينما كان ابن سعدون . وهذا الشيء الظاهر الملحوظ وبعد فقد انتهت معلوماتي عن نشاط العوني السياسي حينما كان عند ابن سعدون .

ولنعد للتلي به عندما جاء الى ابن رشيد .

* العوني بين عوامل توءذيه وأخرى تغريبه *

مر على العوني فترة في آخر ايامه التي قضاها عند آل سعدون كان يعاني خلالها عاملين متضادين احدهما يؤذيه - والثاني يغريه ، فالذى يؤذيه هو انه وان وجد عند آل سعدون منتهى الحفاوة والاكرام - فانه يواجه في كيانه وحشة توءلمه وتوءذيه - يواجه العوامل الآتية :

١ - منها أو أهمها أنه بدأ يشعر بقلق في بقائه بين رجال مجتمع وجد نفسه غريبا بين ظهرانيهم ان ناداهم لا يأنس بهم وان أنشد قصيدة مهما كانت ملهمة بالمعاني فانهم لا يفهمون ولا يتذوقون شيئا منها - واذا كانت الأساطير التي تروى عن نبي الله سليمان بن داوود تقول : ان سليمان اذا أراد أن يحبس طيرا أوحيوانا وضعه مع جنس غير جنسه . فان العوني يشعر عندما كان في العراق في وحشة تشبه وحشة السجين ، ولعل البيت الذى أنشده ضمن قصيدة له يعبر اصدق التعبير عن وحشته وذلك عندما ذهب يشكو الوحشة التي يعانيها يشكوها الى صديقه حمود عندما قال :

السوج بدراهم يحمود وكانـي خلوج وابنها خلي خلاف

الى انه يصف نفسه من شدة وحشته وولهه كانه ناقة فقدت ابنها وظلت تحن عليه حنينا مفجعا .

٢ - ومنها ان قبيلة آل سعدون لعبت التفرقة بين رجالها الدور الخطير وظلوا متفككين والجلوس عندهم ممل .

٣ - ومنها ان رئيس القبيلة الشيخ سعدون توفي . وان كان ابنه عجمي ملأ الفراغ في الرئاسة كما ان له في قلب العوني منزلة احترام قل أن يضارعه فيها أحد الى درجة يقول الروات ان العوني لم ينشد قصيدة من قلبه الا بعجمي السعدون وهذا العامل الاخير لا أهمية له بجانب العاملين الاولين .

واذا انتهينا من ذكر العوامل التي تؤ ذيه عدنا الى ذكر العوامل التي تغريه في ذهابه الى امير حائل ابن رشيد وهي العوامل الآتية :

أولا - انه عندما جاء العوني الى حائل بصحبة عجمي السعدون كما سلف ذكره - توثقت أواصر الصداقة بينه وبين الوصي زامل السبهان - الذى وان كان اسمه وصيا فانه هو الحاكم الفعلي المنفذ .

ثانيا - شجع العوني الى ذهابه لامير حائل تلك القصيدة العصماء التي امتدح فيها الامير والوصي معا - كما امتدح فيها قبيلة شمر بكاملها التي هي قبيلة ابن رشيد الى درجة أصبحت تلك القصيدة كأنها أنجيل تتلى في الاندية عند سكان حائل جميعا وما من شخص من أهل البلاد الا وتجده في ذلك الوقت اذا لم يحفظ القسم الكثير منها فانه يحفظ بعض أبياتها . اما الروات المختصون بحفظ القصائد وتلحينها فانهم يحفظون تلك القصيدة عن ظهر قلب - بل ويحفظون قصائد العوني بكاملها كما يحفظ هؤلاء قصائد لشعراء غير العوني لان المواطن الذى يعتني بحفظ مثل هذه القصائد يعتبر في ذلك الوقت مثقفا .

رابعا - من العوامل التي تغرى العوني في ذهابه الى حائل وجود أمراء بلاده فيها وهما

محمد العبد الله أبا الخيل وأخيه فهد الذى ظل في حائل حتى انتهى حكم آل رشيد .

خامساً — شعور العوني الذى يغريه ويدفعه في ذهابه الى حائل ليس الا ثقته بانه سوف يجد رجال مجتمع في حائل يتجاوب معهم بالعادات والتقاليد — وبالتالي يفهم أهل ذلك رجالا ونساء معاني قصائد العوني ، ويأنسون به على اعتبار أن سكان حائل نجديون وينحدرون هم والشاعر من فصيلة واحدة — وتربية واحدة وترتبطهم به عقيدة روحية واحدة . ومذهب واحد وهو مذهب الامام احمد بن حنبل — ورواسب كهذه اذا تجمعت في أمة ما — فان الالفة والانسجام سوف يكونان بين أفراده لا محالة وان افترى هذه الالفة أوذلك الانسجام خلاف سياسي مصدره الطموح الشخصي بين الحكام المتصارعين على الزعامة — كما هو الامر الواقع في كل زمان ومكان .

وهكذا أوجد العوني نفسه مدفوعا من الخلف بسبب وجود العوامل التي تؤديه — كما وجد حاله مسحوبا بعنف من الامام تجاه العوامل التي تغريه — فماكان منه تجاه العوامل المؤذية والمغرية الا أن ذهب يطلب من الشيخ عجمي صديقه الحميم بأن يسمح له بالذهاب الى امير حائل .

ولما كان الشيخ عجمي يدرك أن وجود العوني عند امير حائل يفيده اكثر من جلوسه عنده بين رجال الذين لم يأنس بهم ولم يتجاوب معهم فقد سمح له بالموافقة على طلبه .

الفصل التاسع

" العوني في حائل محفوفا بالعناية "

ذهب العوني من عجمي السعدون وشخص نحو حائل . وهناك أناخ راحلته أمام قصر الامارة يرافقه " حويماء " أرى رجاله كما هو الاسلوب المتبع الذى يستلزم كل شخص أمير أوشخص بارز أن يكون في معيته مرافقون - ويسمون " حويما "(١) ومرافقا العوني عندما جاء لابن رشيد هما من قبيلة مطير اسم احدهما رقدان - كما سلف ذكرهما .

لقد وجد العوني من العناية والرعاية عند امير حائل بل عند الوصي زامل السبهان الشيء الذى لم يخطر له ببال .

أ - ان توسط نادي الامير أونادي الوصي وطلب منه ان يتحدث بحديث أدبي ، أوسياسي لايستجيب العوني لهذا الطلب حتى يملي شرطيه الآتيين :

أولا - أن لايقاطع بحديثه .

ثانيا - أن لاتدار كؤوس القهوة مادام انه مسترسل في حديثه .

ب - اذا أراد حاجة مهما كانت ثمينة عند امير البلاد فان العوني باستطاعته أن يستحوذ على حاجته هذه بدون أن يكلف نفسه ذل السؤال وانما يكتفي باشارة بسيطة تخرج منه فان كان يريد في هذه الاشارة جوادا اصيلا أو " ذلولا " نجيبه . فان أقصى مايفعله هو ان يمتدح هذا الجواد أوتلك الراحلة - فيفهم الحاكم انه يريد ذلك فيرسل اليه ما اشار به .

---

(١) انظر المصدر الاول - صفحة ( )

ج — وان أراد لباسا ثمينا من الحلل القشيبة التي تنسج بالاستانه موشحة بالحرير والقصب التي قل أن يلبسها الا الأمير وأسرته وخواص الامير آل سمهان . فان أقصى مايكلف العوني بالحصول على هذا اللباس النادر في وقته هو ان يلمسه بطرفي اصابعه متبعا لمسته هذه العبارة الآتية : — ما أجمل هذا اللباس ؟ ؟ فلا يسع الأمير الا أن يتجرد فورا من لباسه هذا ويبعثه مع أحد رجاله ليسلمه للعوني — وعلينا أن ندرك مفهوم رجال ذلك الزمان لمثل هذه الهبه وهو ان الامير اذا وهب لباسه النادر لأحد رجاله ، ومن ثم توشح به الموهوب اليه فان ذلك يعادل — وشاح النيل — في مصر أووشاح أسمه في سورية أووشاح الارز في لبنان ... الخ .

د — وان أراد العوني مالا " فانه وان كان قنوعا ولم يكن يوما من الدهر ماديا " فانه يحدد مايحتاجه من المال ثم اذا توسط النادى الذى فيه الامير أو الوصي لمح باشارة وجيزة — كقوله حلمت الليلة الماضية انه سقط بيدى " صرة " وعندما فتحتها وجدت فيها عدد كذا من الريالات أومن الجنيهات — فما تغيب شمس ذلك اليوم ان كان نهار أو يمضي مساؤه ان كان ليلا الا والمبلغ الذى حدده بحلمه المزعوم . واصل اليه .

هـ — وعندما أراد الزواج — ذهب يسأل عن أجمل فتاة من طبقته بحائل فقيل له أن الفتاة التي قل أن يضارعها بحائل فتاة بجمالها ورشاقتها وعفتها — هي ابنة عثمان بن لبلس وحينما طلب العوني يد الفتاة رفض والدها مصاهرة العوني — وما ان علم الوصي بذلك حتى جعل نفسه الوسيط الخاطب للفتاة من والدها — فلم يسع والد الفتاة الا أن استجاب لطلب الوصي الذى أغدق عليه المال ارضاء للعوني الذى تم عقد قرانه من تلك الفتاة — التي تعتبر على مايقال في هذه الايام — ملكة — جمال .

ز - وان غضب الامير أو الوصي على مواطن ما وجاء الى العوني طالبا جاهه - ومن ثم بذل الشاعر الوجيه وساطته وجاهه . فان ما يبذله لن يذهب سدى عند ولاة الأمر .

ح - واذا ذهب العوني الى أكبر نادى من أندية أعيان جبيلي طيء - فانه سوف يجد عند صاحب النادى من الاجلال والاكرام الشيء الذى لا يحظى به الا العدد القليل النادر من ضيوف الامير الوجهاء .

" كيف قبل المسؤولون بحائل العوني ؟ ؟ "

هناك سؤال يطرح نفسه بنفسه وهو الآتي :

كيف قبل حكام حائل العوني بعد القصائد الشنيعة التي قالها بأميرهم عبد العزيز المتعب الرشيد بصورة خاصة ، وبحكام أسرة آل رشيد بوجه عام ؟

الجواب مايلي :

من المعلوم ان العوني جاء الى حائل في الحين الذى كان أميرها المسؤول لا زال يافعا - ويجهل ما أنشده العوني بوالده . ومما لا شك فيه أن لو كان الامير المهجو على قيد الحياة فان العوني لم ولن يفكر بأن يأتي لحائل بعد أن سجل على نفسه تلك الابيات القذعة التي هجا بها الامير وأسرته - بل لوكان الامير سعود ابن عبد العزيز كبير السن ويعي ويحس بثقل وطأة المعاني التي هجا بها العوني والده لما قبل أن يرى العوني بعينيه ،أو لوكان الوصي على الامارة يغار على كرامة وسمعة والد الامير أوعلى كرامة اسرة الفتى ، تلك الكرامة التي مرغها العوني بالوحل - كما يغار عليها ابنه الذى من صلب الاسرة لما قبل أن يضع العوني

قدمه بحائل ـ أو على الاقل كان على الوصي زامل اذا أراد أن يتساهل مع العوني فانه لـــن يسمح له في رؤية جبـــلي طـــي" حتى يشترط على العوني الشرطين الآتيين :

أولا ـ ان يطلب من العوني نظم قصيدة طافحة بالمدح والاطراء للمهجو أي الامير عبد العزيز المتعب ، وزاخرة بالمعاني التي تحمل طابع توبة الشاعر وندمه على مابدر منه ـ بل وتحمل معانيا يهجو فيها العوني نفسه ـ بنفس الأسلوب الذى هجأ به نفسه عندما جاء يعتذر من الامام عبد الرحمن الفيصل وابنه الامام عبد العزيز ، حينما انشد تلـــك القصيدة التي هجاء العوني نفسه هجاء نتنا لايرضى ان يسجله على نفسه الحر الأبـــي الشريف ، وذلك عندما قال في تلك القصيدة التي مرت بنا ابيات :

انا لكم عبد مليك وما ســـــــوم ... أبخا ولا تلبي نواكم بالابـــــــدال
لا شك طبع العبد لو جاد ماشـــوم ... العبد به " خونه " ولو صار رجـــال

وعلى الرغم من ان هذا الاعتذار من العوني يحمل منتهى الخنوع والذل وهدر الكرامة رغم ذلك رفض الامامان قبول عذر العوني علما بانه لم يهجهما كما هجاء آل الرشيد ـ بل ولـم ينشد فيهما بيت هجاء ـ كما لم يناصبهما العداء ويحرض عليهما الاعداء ـ ولا واحدا بالمائـــة مما حرض به الجماهير على ابن رشيد .

ثانيا ـ كان على الوصي لو كان يغار حقيقة على كرامة والد الفتى الامير وعلى اسرة الحكـــــم أن لا يقبل ولا يوجه من الوجوه ان ترى عيناه العوني الا على الصورة التي رآه فيهـــــا محمد العبد الله بن رشيد عندما دخل عليه العوني ذليلا مهدور الكرامة يحبو حبـــوا ماشيا على يديه ورجليه خائر القوى كالثعلب امام الاسد . ملكيا على وجهه خافضا رأسه راقما عجزه .

أجل كان على الوصي أن يرفض رفضا باتا قبول العوني مالم تقبل صاحب الترجمة تنفيذ هذين الشرطين ـ ولكن الوصي لم يفعل ذلك ، بل راح يستقبل العوني استقبال الفاتحين كما سلف ذكره .

" هل تأثلم العوني بحائل "

عندما يعود القارىء الى ذاكرته ـ يجد في الفصول السابقة أن العوني لم يدخر وسعا في مساعيه التي يستهدف فيها تحطيم أمارة آل رشيد . كما ان القارىء يرى ان العوني لم يبرز طابع العداء والحقد في جميع قصائده السابقة واللاحقة كما ابرزها بصورة جلية وواضحة في قصائده التي هجاء فيها آل رشيد . وبالأخص الامير عبد العزيز المتعب ، كما لم يوجد شاعر بل أو أي مواطن نجدي الب الرأي العام النجدي ضد ابن رشيد كما ألبه العوني . ولا يوجد في نجد من أثار الفتن وملأ قلوب المواطنين حقدا وكرها بأسلوب قاس عنيف طافح بالضغينة وملىء بالاحقاد وضد ابن رشيد كالعوني . ولذلك لا نرى ما يدعو الى الغرابة فيما اذا جاءنا من يوجه لنا السؤال الآتي : ـ هل زال ما في نفس العوني من الضغائن المزمنة والاحقاد الدفينة التي مزجت بدمه ولحمه ضد ابن رشيد منذ كان طفلا ويافعا وشابا وها هو الآن رجلا ناضج المواهب عندما جاء الى حائل هل امحى ذلك كله من نفسه . نهائيا وتأثلم في حائل ؟ أم أن الرواسب ظلت في خبايا نفسه ـ دون أن تؤثر عليه البيئة ؟ ؟ الجواب لا ونعم ؟ ؟

كيف الجمع بين هذا النفي وذلك الاثبات ؟ ؟ الجواب على ذلك مايلي :

اجل كلا ثم كلا ولا ثم لا لم ينقاد العوني بقلبه وجوارحه بجانب ابن رشيد بين عشية

وضحاها ـ كما هو شأن بعض الصحفيين والمذيعين في عصرنا الراهن الذى نعيشه الآن عصر النفاق والرياء ـ هذا العصر الذى رأينا وسمعنا نفرا ممن يزعمون بأنهم حملة الفكر والقلم والتوجيه ـ رأينا أشباه رجال من هذا النمط مجدوا حاكما الى درجة قال : أحدهم من ريادة التالية : لولم اعبد الله لعبدتك أيها القائد الملهم ، علما بأنه لا يؤمن بالله ويركن اليه ـ بدليل ان ذلك المسرف بالنفاق قال هذه الجملة في الليلة التي سبقت الانقلاب الذى سقط فيه ذلك الحاكم معبود المتزلف بالامس ـ وفي طرفة عين انقلب ذلك المذيع ـ هو وقلم من هم على شاكلته من المذيعين والشعراء والصحفيين انقلب ذلك الدجال وأولئك المضللين الذين كانوا يمجدون ذلك الحاكم ويهللون ويسبحون بحمده الى درجة التأليه . انقلبوا يمقتونه ناعتينه طاغيا مستبدا فاجرا . . . الخ من أسفل النعوت التي لم توجد باللغة العربية حتى بحق الشيطان .

لا . . لم يكن العوني من هذا النمط ، بل ظل العوني بجانب آل رشيد مايزيد عن ثلاث سنوات لم ينشد قصيدة واحدة مادحا بها انتصاراتهم . وهاجيا بها أعداءهم .

وجوابنا على من يزعم ان العوني امتدح امير حائل سعود آل رشيد في أول مجيئه اليه عندما كان بجانب الشيخ عجمي السعدون ، عندما امتدحه بقصيدته الرائعة السالف ذكرها ـ جوابنا على ذلك هو ان غاية العوني بتلك القصيدة الوفاء لعجمي السعدون والاخلاص له لكسب مؤازره ابن رشيد على أعدائه ، اكثر ولا شك من غايته بمدحه لابن رشيد ، ومن معاني القصيدة يبدو الامر واضحا ان امتداح العوني لسعود الرشيد ليس الا وسيلة فقط . اما الغاية الاساسية ، فهي مايقصده العوني من اثارة حماس ابن رشيد ليأخذ بيد عجمي السعدون .

ولعل أوضح الأدلة المادية التي نستدل بها دلالة قاطعة على أن العوني ، قضى بجانب ابن رشيد مدة لا تقل عن ثلاث سنوات بدون أن يميل كليا بشعوره وعواطفه بجانب ابن لاشيد ، وبدون ان ينطق لسانه بقصيدة واحدة تعبر عن ثنائه عليه في بعض انتصاراته الحربية .

أقول . . لعل الدليل القاطع على ذلك هو ان العوني حضر وشاهد بجانب ابن رشيد طيلة مدة ١٣٣١ الى سنة ١٣٤٠ ، اثنين وعشرين غزوة ، وأهم تلك الغزوات غزوة " جراب " التي لم نجد العوني قال عنها بيتا واحدا اللهم الا سبعة ابيات انشدها في مناسبة طارئة بعد مضي خمس سنوات من تلك الغزوة كما سنوضح ذلك في هذا الفصل ، وهذا عدد واسم كل غزوة من الغزوات التي حضرها العوني بجانب ابن رشيد موضحة كما يلي :

رقم العدد	اسم الغزوة	تاريخ الغزوة أو المعركة	
١	غزوة ابو غار	١٣٣١ هـ	السالف ذكرها
٢	غزوة عقله الصقور	١٣٣١ هـ	" "
٣	غزوة الشرارات بالطوال	١٣٣٢	" "
٤	غزوة ابن محي احدروساء قبيلة عتيبة	١٣٣٢ هـ	
٥	غزوة الدويحره على قبيلة مطير	١٣٣٢	
٦	غزوة الجوف الاولى	١٣٣٣	
٧	غزوة شويا الى العراق في موقع يحس جهمه	١٣٣٣	
٨	غزوة جراب السالف ذكرها	١٣٣٣	
٩	غزوة ابن مصيص	١٣٣٤	
١٠	غزوة ابن شقير	١٣٣٤	

١١	غزوة ابن عشوان	١٣٣٤

وكل من ابن بصيص والشقير والعشوان كلهم من قبيلة مطير .

١٢	غزوة شقراء على احد بوادى العراق	١٣٣٤
١٣	غزوة قبيلة حرب في موقع قريب من الرس	١٣٣٥
١٤	غزوة قبيلة حرب أيضا في موقع يسمى صار	
١٥	غزوة المطابره في موقع يسمى أبهان	١٣٣٦
١٦	غزوة قبيلة هيثم في موقع يسمى الطوله	١٣٣٦
١٧	غزوة الحجر اى مدائن صالح	١٣٣٧
١٨	غزوة قبيلة حرب في موقع يسمى بالصوفيه	١٣٣٨
١٩	غزوة الجوف الثانيـة	١٣٣٩
٢٠	غزوة قليب الصـــليبي	١٣٣٩
٢١	غزوة أم غراميـــــــل	١٣٣٩
٢٢	غزوة الروغـــــــــه	١٣٣٩
	حصار حائل ثم سقوط امارة الرشيد	١٣٤٠

كل هذه الغزوات كانت بأمارة سعود بن عبد العزيز الرشيد ماعدا الثلاث غزواتالاخيرة منها اثنتان في عهد عبد الله المتعب الرشيد وهما رقم ٢٠و٢١ اما الاخيرة رقم ٢٢ فانها كانت بعهد امارة محمد بن طلال بن رشيد .

* ظل العوني صامتا حتى في معركة جـراب *

سبق أن ذكرت أن أهم تلك الغزوات هي غزوة جراب واليك تفاصيلها :

غزوة جـــراب :

حضر العوني معركة (جراب) في سنة ١٣٣٣ هـ الواقعة بين الامام عبد العزيـــز ابن سعود وبين الامير سعود بن رشيد ، وقد ابتدأت بانتصار الاول ، وانتهت بانتصار الاخير ، أو بالاصح بانتصار جنود الاخير ، لان القائد نفسه أي الامير سعود بن رشيد لم يكن حاضـــرا انتصار قومه ، ولما كان انتصار المعركة في بداية الامر كان لابن سعود ، وكانت الهزيمة علـــى الجناح الايسر لابن رشيد ، وهذا الجناح هو جناح مايسمى (اهل لبده) ، الذين هـــم اكثر وأقوى قوة محاربة عند ابن رشيد ، ولما كان الافلبية الساحقة لقوة الامام ابن سعود كلهـــا انقضت على أهل لبده أصحاب الجناح الايسر الذين اخطر قوة عند ابن رشيد ، فقد دارت المعركة على أشد مايمكن ان توصف به أعنف المعارك هولا وضراوة ، وكما ذكرنا وصفا لمعركـــة الطرفيه السالفة الذكر جدير ان تعبر به عن معركة جراب حيث يطل صوت البارود ، ولم يكن هناك صوت يسمع الا صوت صليل السيوف ، وحديث الخناجر ، وهدير دم القتلى وانين الجرحـــى ، وأصوات (المنتخين) من الجانبين ، كل من هؤلاء وأولاء يحاول أن ينتزع الراية من خصمـــه ، بحكم أن الراية هي رمز القوة .

ولا يفوتنا الانتباه الى انتزاع الراية من يد العدو وخاصة في معركة كمعركة (جـراب) التي تكافأت فيها القوتان من أبطال اهالي نجد ، امر يستحيل تحقيقه ولا يمكن بأي وجـــه من الوجوه ان يستولي احد الخصمين على راية احدهما الا بعد قتال يكاد يكون الابادة النهائيـــة للجمع من صفوة الشجعان المواصل من اولئك الفتية الذين ينتخبون عادة من أبرز فتيان الجانبين

شجاعة وفتوة ليتولوا حماية هذه الراية ، وليقاتل كل فرد من هؤلاء النخبة الى آخر نقطة من دمه .

يضاف الى انتخاب هؤلاء الفتية الحارسين للراية ، يضاف الى ذلك انه يؤتى في معركة كهذه بأجمل فتيات القبيلة (١) ، وتوضع في جانب الراية راكبة جملها ، لابسة اجمل حللها لكأنها عروسة ، وهي في هذه الحالة تزغرد وتندب الفتيان حماة الراية كلا باسمه وقد روى لي شاهد عيان في تلك المعركة وهو المرحوم الشيخ صالح آل الشيخ الذى كان من جنود ابن سعود في معركة جراب ، يقول انه شاهد بعينيه راية ابن سعود وراية ابن رشيد يطرق الهواء كلا منهما فيلتف طرف بعضهما على بعض .

تصور ايها القارىء الكريم كيف كان هول هذه المعركة ، عندما تصل الحرب بين الفريقين الى الدرجة التي وصفها ابن الشيخ ، وقد تكرر سماعي لهذا الوصف من ابن الشيخ مرة ثانية وذلك في سنة ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢ م . عندما اجتمعت به في مكتب الاستاذ الاخ عبد الله بن خميس في الرياض ، وقد سألت ابن الشيخ مذكرا اياه هذه الرواية ، وكان قصدى من هذا السؤال أن أتأكد من صحة الرواية هذا من ناحية ومن ناحية ثانية أردت أن يكون الاخ ابن خميس شاهدا على ذلك ، وقد أعاد ابن الشيخ الرواية على النهج الذى اوردته بالسياق .

بعد هذه المعركة العاتية استطاع جيش ابن سعود ان ينتزع الراية من جيش ابن رشيد ، ولكن لم يتم ذلك الا بعد ان قتل جميع النخبة من الفتيان الذين اختيروا لحماية هذه الراية ، بعد ان قتل ايضا تحت جمل احدى فتيان عشيرة سند جاره من قبيلة شمر المسماة (رقيه الحراى) مايقارب من خمسة وعشرين فارس من صفوة ابناء عم الفتاة الاقربين .

وهكذا التهبت بداية المعركة بانتزاع قوم ابن سعود لراية اهالي لبده ، وما أن بلغ

الخير الامير سعود ابن رشيد ان راية أهل لبده الذين هم القوة الضاربة انتزعها العدو حتى ولّى هاربا بائسا من النصر ، ولكن الذى حصل هو انه بالرغم من انتزاع راية اكبر قوة من قوات ورايات ابن رشيد الثلاث . وبالرغم من هزيمة الامير ابن رشيد الذى يعتبر القائد العام لهذه القوات جميعا ، بالرغم من ذلك كان النصر في نهاية هذه المعركة المزدوجة لجيش ابن رشيد .

والشيء الذى نحن بصدد الاشارة اليه هو ان جميع المعارك الكبار التي وقعت في نجد وفي ذلك النصر بالذات كمعركة الصريف والمكيريه ، ووضه مهنا الخ . . كل تلك المعارك كان العوني حاضرا لها بجانب ابن صباح تارة وبجانب ابن سعود تارة أخرى ، وكم قدم لنا في تلك المعارك أصدق الوثائق التاريخية ، أما معركة (جراب) التي حضرها العوني بجانب ابن رشيد ، وهي معركة لا تقل شأنا وهولا وعنفا عن تلك المعارك ، ومع ذلك فاننا لم نجد الشاعر أنشد قصيدة كما جرت به العادة — التي ينشد بها القصائد ، معبرا بها عن سروره وغبطته في حالة الانتصار في بعض المعاني ، كما يعبر عن شماته بخصمه المهزوم في معان أخرى عندما يهزم الخصم ، اى في الحين الذى كان العوني يحارب بجانب ابن سعود ، ضد ابن رشيد .

ولئن دل ذلك على شيء فانما يدل على ان العوني وان كان بجانب ابن رشيد بجسمه فان قلبه بجانب ابن سعود اوبالاصح بجانب ابناء بلاده اهالي القصيم الذين كانوا يقاتلون وقتذاك في جانب ابن سعود ، هذا اقوى الاحتمالات التي جعلت العوني يتوقف عن انشاد قصيدة يعبر بها عن شعوره في معركة جراب كما كان يفعل من قبل . اما الاحتمال الارجح الذى يراه الرجال العلمين باخلاق الشاعر والذين عاصروا تلك الايام هو ان العوني كان لا زال ولفها جديد عهد الاقامة في حائل ، ولم يألف أهل البلاد بعد ، بل لم يتأقلم بنفسيته

باقليم اهالي حائل ، كما تأثلت فيما بعد بصورة ظل ينشد بها القصيدة تلو القصيدة كأنه واحد من أهل البلاد أنفسهم ، كما يبدو هذا الطابع بارزا بصورة جلية في اشعار المولى التي أنشدها في حائل في مناسبات متعددة ، علما بأن جميع تلك المناسبات لم تكن ذات أهمية كأهمية معركة (جراب) التي أستطيرها الشاعر من حسابه ولم ينهض بهذه شفته بيت واحد اللهم الا سبعة أبيات أنشدها بمناسبة طارئة مرتجلة ، وبعد أن مضى خمس سنوات على الحادثة يضاف الى ذلك ايضا انه لم يكن في تلك الابيات أي معنى يدل على أنه مغتبط في انتصار ابن رشيد هذا ، كما لم يكن فيها ايضا أية اشارة تدل على شماته بالمغلوب كما كان شأنه ذلك في جميع قصائده السالفة الذكر ، واجمل مافي تلك الابيات الوجيزة هي انها على مافيها من الاختصار ، فانها تحمل طابعا تاريخيا يعطينا صورة نابلغة عن معركة (جراب) واصفا اياها وصفا تاريخيا عاريا عن عاطفة الشاعر وغبطته بالنصر ، كما كان عاريا عن شماته بالمغلوب .

وقد فاضت قريحته بمناسبة بطول شرحها ، وغاية ماهنالك أنه يمتدح فرسان عشيرة عبده الذين من قبيلة شمر ثم انتقل من مدحه لهم الى وصفه لمعركة (جراب) ، بهذه القصيدة التي جاءت كمايلي :

وبجيرة الله كان هو مد وادى	١	أيضا وسا جن المرسل بعقاب
ربع لهم عند المتلى تنادى	٢	الى كلحت حمر المنايا بالانياب
تشهد خشوم جراب هي والمعادى	٣	ان قيل من حاطت جموعه بالاجناب
ان قيل من هلك الضحى به ينادى	٤	قدام ربعه خلصوا عقد الانشاب
عبده مقابيس البلا والطرادى	٥	خيالة الضيق عربين الانساب
عبده الى عدتم علوم الهوادى	٦	لهم ضحى الهيجا على كل حراب

شوقي يحمي يوم ضرب الهنادى ٧ ماهي خرايط تمتس بالاكـــذاب

لقد ذكرت ان القصيدة كانت مرتجلة ، ولذلك قد لا يكون فيها معان ذات أهميـــة ، اللهم الا المعاني التي جدير أن يستشهد بها من الناحية التاريخية بالنسبة لمعركة (جراب) التي جاء بها العوني هنا بصورة لم تكن تلك المعركة مقصودة بحد ذاتها اذ لو كان العونـــي قاصدا ذلك لجاء بمعان تستوفي الموضوع ، وانما أراد الشاعر أن يورد هذه الابيات بمناسبة عارضة جاء شرحها كالآتي :

الشـــــرح :

١ — يودع الشاعر فارسين من فرسان عشيرة عبده التي كنا قلنا ان هذين الفارسين مـــن أبرز فرسان العشيرة وهما وادى بن علي رئيس فخذ آل جعفر من عشيرة عبده ، وعقاب بن هجل ، رئيس فخذ آل فضيل من العشيرة نفسها ، وكان هذان الفارســـان قد رحلا عن بلادهما نجد ، واستوطنا العراق في السنين الاخيرة حتى توفاهمـــا الله ، وكان الشاعر العوني — نادما على هجرتهما . فهو في أول مطلع قصيدته هذه يقـــول انني استودعكما الله ايها الفارسين اللذين رحلتما عنا

٢ — ان هذين الفارسين وعشيرتهما يحملان مؤخرة الجيش في المعارك الضاحية التي يكون بها الموت من رتاب المحاربين قاب قوسين أو أدنى .

٣ — يأتي العوني في الشطر الاول من هذا البيت الى ذكر معركة (جراب) التي نحن بأمس الحاجة الى وثيقة تاريخيـــة مفصلة من صميم أدبنا الشعبي الذي يصف لنا الاحداث بكل صدق وأمانة

وبراءة تشبه براءة الطفل ، وهكذا نجد العوني في صدر هذا البيت الثاني يقول ان الشاهد لي بثنائي على هذين الفارسين وعلى رجال عشيرتهما ، الشاهد بذلك (خشوم جراب) أي تلول وجبال أودية جراب يعني الموقع الذي حدثت فيه المعركة ، ويذهب في عجز هذا البيت نفسه فيقول : اذا كنت جاهلا في تفاصيل معركة (جراب) فسل عمن استطاع أن يطوق العدو ويحيط به من الخلف ويقلب تلك المعركة من هزيمة الى نصر .

٤ — فانت عندما تسأل عن الفرسان الذين تقدموا رجالهم وأخذوا كأس السباق في رابعة النهار من ضحى تلك المعركة والذين انقذوا الموقف المتأزم الحرج .

٥ — اذا سألت عن ذلك فسوف تجد من يجيبك قائلا : ان الذي فعل ذلك هم عشيرة عبده الذين عرفوا بأنهم فرسان الشدائد والمحن .

٦ — وسوف تجد من يؤكد للثان فرسان عشيرة عبده هم السباقون الاولون الغالبون لكل من يتصدى لحربهم .

٧ — انني عندما أتحدث عن بطولة هؤلاء الفرسان ، فانما أتحدث حديث الرجل الذي نظر لمواقفهم في الظرف الذي أصبحت به الحرب بين المتخاصمين (بالهنادي) — أي بالسيوف — (أو يقال عنه بعصرنا الحديث بالسلاح الابيض) .. أجل ، انما أتحدث حديث من رأى وشاهد لا حديث أولئك النفر الذين يلفقون الكذب ويصوغونه بقوالب ملمعة ملمقة .

هذا كل ماذكره العوني عن معركة جراب ، وكما أشرت لم يأت بهذه القصيدة بعد حدوث المعركة ، بصورة مباشرة من حدوثها ، بل قالها بعد وقوع المعركة المذكورة بخمس

منوات ، وبمناسبة طارقة .

* صورة من سرور الغويه وعن صمت العوني *

وهناك شاعر آخر يدعى (فهد الغويه) من أهالي حائل ، فهذا الشاعر قال قصيدة لم أحفظ منها الا القليل ، فهو يتفق والعوني من حيث وصف المعركة من الناحية التاريخية ومن حيث تفاصيل المعركة ، ولكنه يختلف عن العوني من ناحية أخرى ، ففي الحين الذى نجد في قصيدة الغويه بيتا معلنا فيه سروره بنشوة النصر بصورة واضحة ، بينما كان ذلك السرور مفقودا عند العوني ، وبينما نجد الغويه انشد قصيدته بعد حدوث المعركة بصورة مباشرة ، بينما نرى العوني تجاهل وقوع المعركة مرة واحدة ، وكل مافي الامر انه أشاد بشجاعة على فرسان عشيرة عبده بدون أن يبدى أى معنى يشير به لا الى سروره بالنصر ، ولا الى شماته بالمغلوب ، كما كان يشمت بقصائده عندما كان بجانب ابن سعود ضد بن رشيد ، أى عندما ينتصر الأول على الثاني في مثل تلك المعارك السالف ذكرها ، بينما نجد الغويه وان لم يكن في قصيدته بيتا يشمت به على المغلوب ، ولكن فيها بيتا بارزا فيه سرور الشاعر وابتهاجه بالنصر ، وهذه قصيدة فهد الغويه المختصرة .

يوم رد البراء حنا تهينا	١	ساع رد البراء والنار مشبوبة
ماتهاون وحنا ماتهاونا	٢	حقه اللي وجب نعطيه ماجوبه
جن بناة العرب لسعود ينخنا	٣	اركبو بالحنايا كل خرعوبه
هو تقدم اوحنا له تقدمنا	٤	بكل قرم يهبس القاع بكعوبه

واندلق جمعهم علنا على ايسرنا	٥	والجنايز تسعد به حد محســـــوبة
قال وادى ندى مطفى تهامنـــا	٦	دوك عقاب ركض بالخيل من صوبـــه
والتخى جسمنا الأيمن وأسلنـــا	٧	وارتكى الغد يحسب انه قضت نوبـــه
كن رمي الجماجم منهم أومنـــا	٨	مثل رمي البرد والقاع مشبوبـــــه
اديحوا عقب ماحسنا تمكنـــا	٩	والطنايا تشب النار بجنوبـــــه

هذه الابيات التي انشدها فهد الغويه هي ضمن قصيدة يزيد عدد بيوتها عما اوردته ، والذى يهمنا هنا هو أن أورد الأدلة والشواهد التاريخية التي التقى بها العوني والغويه على صعيد واحد في وصفهما لمعركة (جراب) ، ولئن كان كل من العوني والغويه حضرا معركة جراب ، وتحدثا عنها كشاهدى عيان ، فان نشيدة الغوية نرى فيها من المعاني ماهو أقرب الى مفهوم القارئ من حيث التصوير الواقعي للحادثة ، من نشيدة العوني ، والسبب في ذلك لالكون الغوية اقدر من العوني في تصوير الاحداث ، لايس الامر كذلك ، وانما يعود الامر الى ان الغوية انشد قصيدته هذه بعد وقوع المعركة بصورة مباشرة — بينما العوني لم ينشد قصيدته الا بعد مضي خمس سنوات . وعلى هذا الاساس يكون الغويه انشد قصيدته قبل أن يغيب عن ذهنه تفاصيل تلك المعركة وخفاياها ومجرى احداثها الملتبسة ، لان معركة جراب لعلا فيها شيء من الازدواجية والالتباس والسبب الرئيسي هو ان العوني لم يتأثر بعد ، بل لم يشارك الغوية بسروره . ولم يحضر معركة جراب مع ابن رشيد الا في جسمه فقط — اما شعوره وعواطفه فانها ولا شك كانت بجانب ابناء بلاده اهل القصيم الذين تحت قيادة الامام عبد العزيز .

واليك شرح قصيدة الغوية .

١ — يقول الشاعر في البيت الاول : عندما أطن عدونا علينا الحرب ، لم نجبن عن ملاقاته بل تبينا أمامه وجها لوجه . وعلى الفور اعلنا نحن الحرب من جانبنا .

٢ — كما أن عدونا لم يتقاعس عن مواجهتنا بل جاء الينا زاحفا ومهاجما ايانا ، كذلك نحن لم نتقاعس عن الزحف لمواجهته . ومقابلته بهجوم معاكس . وكما انه يرى أن من حقه ومن واجبه أن يكون شجاعا لذلك نرى نحن من حقنا أن نكون شجعانا ونقوم بما يفرضه علينا الواجب كما يقوم عدونا بواجبه هنا بعين .

٣ — جاءت فتيات قبيلتنا الى قائدنا سعود الرشيد يشرن نخوته ، تلك الفتيات الحسان الناعسات الطرف اللواتي اركبن(١) الهوادج ليشرن حماس الفتيان المحاربين .

٤ — لقد زحف العدو بجيشه مهاجما لنا ، كما أننا أيضا زحفنا بجيشنا مهاجمين له بكل فتى يطحن الأرض بأقدامه .

٥ — وقد وثب جيش العدو على ميسرة جيشنا ، وهناك حمي الوطيس بين الجانبين المتقاتلين وعند ذلك كثر عدد القتلى من الجانبين الى الدرجة التي تجعلنا لا نستطيع أن نحصر عددهم .

الواجهل

---

(١) يقصد الشاعر فتيات قبيلة شمر اللواتي ينتخبن من أجمل فتيات القبيلة ويؤتى بهن ليوم كهذا اليوم ليشرن حماس أبناء قبيلتهن ليقاتلوا قتال المستميت بقصد الحماية لهن . يؤكد الرواة : أن من بين تلك الفتيات فتاة كانت فيما لا سهوع الاول من ولادتها لابنها البكر ، ولما كانت ، هذه الفتاة من أجمل فتيات القبيلة فقد وقع عليها الاختيار من قبل رجال قبيلتها على أن تركب جملها ، وتتولى القيام باثارة حماس المقاتلين ، وقد رفض بعلها أن تساهم بهذه المغامرة مدعيا بأنه يخشى أن يصاب ابنه الرضيع برصاصة طائشة ولكن الفتاة أصرت على الذهاب ، واكدت انها على استعداد لان تترك ابنها يحيا أو يموت لا يهمها ذلك كما يهمها أن تشارك أبناء عمها في المعركة . وقد ذهبت وحضرت المعركة وكانت تزغرد وتنخي ابناء عمها ، واحدا واحدا كلا باسمه ، وكان

٦ — وفي هذه اللحظة التي كانت بها المعركة دائرة على أشدها على جناحنا الايسر ، هناك صاح الفارس : وأدى بن علي للفارسين ندى بن نهير ومطني ابن شريم صاح بهما قائلا فلنهجم بفرساننا على ميسرة قومنا فها هو عقاب بن عجل هجم من عنده بفرسان فخذه ، لينقذ الموقف فما علينا الآن نهجم من جانبنا بفرساننا معاضدين عقاب لانقاذ الجناح الايسر لجبهتنا .

عندما هجم عقاب ورفاقه كان هنالك حماس انبعث بجيشنا الذى في الميمنة ، ومن ثم هجم هذا الجيش الايمن من عنده متجها نحو العدو ، ولكن العدو ثبت وقاوم ولم ينهزم اعتقادا منه بأنه حاز النصر النهائي .

٨ — كانت ساعة حرجة حمى بها الوطيس واشتدت بها الهيجاء ، وكانت رؤوس القتلى عندما التحم جمعهم بجمعنا أشبه ما تكون بوابل البرد المنهمر ، كما أن الارض اشتعلت كالسعيرة من ملح البارود .

وكان من نتيجة هجوم الفارس عقاب أن هجم بهجومه فرسان عشيرته بكاملهم وعلى رأسهم الفرسان الذين ذكرهم الشاعر الغويه وادى — ندى امطني — كما هجم ايضا في الوقت نفسه الجيش الذى في القلب والجيش الذى في الميمنه ، ومن هناك حصل الالتفاف على جيش المنتصر في بداية المعركة وساعتذاك تبدل موقف جيش ابن سعود من هجوم وانتصار الى دفاع ضعيف ، بل دفاع المستميت ، بعدما شعر انه مطوق من جميع الجهات ، وقد

... أولئك الفتيان يتساقطون تحت هوديجها كما يتساقط ورق الشجر في فصل الخريف ، وهذه الفتية هي (رقية) السراى الزوجل التي مر بنا اسمها من قليل ، لقد جئت بذكر هذه القصة تأكيدا لشرح بيت الشاعر الغويه .

أوشك أن ينفصم هذا الجيش الباسل طوق الحصار بقوة نضاله ، لولا أن الفارس عقاب بن عجل انقذ الموقف مرة ثانية ، عندما صاح بقومه بتلك الكلمة التي من المفيد أن أورد هـــا بلفظها الشعبي كما أجمع على نقلها عنه الرواة الصادقون عندما قال : « خلوا درب للذلان »

هذه الجملة الوجيزة التي قالها ذلك البدوي الأمي ، صالحة ان يؤخذ بها في كـــل زمان ومكـــــان .

فهو يقول لا تضيقوا الخناق على العدو من جميع الجهات بل افسحوا مجالا للجبناء كي ينهزموا ، لقد قال عقاب ابن عجل هذه العبارة ، وذلك عندما شعر أن جيش عدوه المطـوق لا مفر لرجاله الشجعان والجبناء على حد سواء من ان يقاتل كل فرد منهم الى آخر نقطة من دمه ، فالشجاع سوف يقاتل لا حبا بالحياة ولا خوفا من الموت ، وانما يقاتل بحافز يمليه عليه خلقـــــه كانسان خلق بفطرته أن يكون شجاعا ، كما أن الجبان سوف يقاتل ايضا الى آخر عرق ينبض فـي دمه وذلك حبا بالحياة ودفاعا عن الموت .

وعندما أقول ان هذه القاعدة صالحة في كل زمان ومكان انما أعني بذلك أن الحاكـــم المحنك تجده لا يعامل شعبه معاملة يضطهدهم الخناق بالعسف والظلم والاستبداد وحبـــس الحريات ، الى أن يبلغ شعبه درجة ينفجر بها مناضلا مستميتا بكفاحه في سبيل حصوله علـــى الحرية التي هي أثمن شيء بالحياة ، بل هي الحياة بذاتها ، اذ لا قيمة للحياة بـــــدون حرية[1] .. لا .. لا .. لا يفعل الحاكم العاقل الموفق شيئا من ذلك ، بل يأخذ بتطبيـق

---

(١) كل من سألته من الابطال الجزائريين المكافحين عن الاسباب التي مكنتهم من النصر على حكومة فرنسا وجيشها العرمرم كل من سألته هذا السؤال اجابني قائلا : كان السبب لذلك هو ظلم واستبداد وعنف الفرنسيين لنا ذلك العنف الذي جعلنا نستميت في نضالنا مقررين اما الحرية أو الموت .

تلك القاعدة التي أخذ بها ذلك الهدوى منذ نيف وخمسين سنة .

(خلوا درب للذلان)

دعوا سبيلا للانطلاق . . لا تضيقوا الخناق على القوم من جميع الجهات ، فيقاتل المضيق عليه قتال المستميت .

وهكذا افسح المجال من جانب قوم ابن رشيد ، بفتح فرجة للمطوقين ، وقد تسلل من هذه الفرجة أولا الجبناء ثم انتشرت العدوى حتى وصلت الى صفوف الشجعان ، ومن هنـاك حلت الهزيمة . وهذا الشاعر الحُوبة ، يصور لنا نهاية تلك المعركة في بيته الاخير من قصيدته تصويرا واقعيا من ناحية ، ومن ناحية ثانية يعبر عن سروره بنشوة الانتصار تلك النشوة التي لـم يشاركه بها العوني فيقول الحُوبه :

٩ - لقد أدبر العدو وبعد أن أتيحت لنا الفرصة من أن نتمكن من قرب الى آخره من المعانـي التي تعبر عن سرور الشاعر ونشوته بلذة النصر ، تلك النشوة التي كما أسلفنا لم يشاركـه بها العونـي .

" ما أنشده شاعر الامام ابن سعود في معركة جـــراب "

كثير من المؤرخين اذ لم أقل كلهم عندما يأتون الى ذكر معركة جراب — لا يستطيع المؤرخ أن يتحدث عنها بصورة منفصلة بحكم ما اعتراها من الاحداث الواجبة .

واذا كان شعراؤنا الشعبيون هم الحكم العادل في تصويرهم للأحداث ، فانني عندما آتي الى ذكر هذه المعركة فان الغاية من ذلك عندي أن أؤكد بالدليل القاطع على أن العنوني نفس تلك السنين الطويلة دون أن يتألم — مثبتين دليلنا هذا من معركة جراب — التي حضرها بدون أن ينشد فيها بيتا واحدا — كما سلف ذكره ثم أوردت الدليل الثاني في الأبيات التي أنشدها الشاعر فهد الغويه الذي لا تقاس منزلته الاجتماعية والشعرية بمنزلة صاحب الترجمة .

واذا كانت الأبيات التي قالها الغويه فيها من المعاني ما يعطينا صورة ناطقة عن تفاصيل تلك المعركة ، هذا بالنسبة لما يتحدث عنه الشاعر الغويه مما له صلة بتفاصيل هذه المعركة — ولما كان الغويه لم يكن شاعرا من أهالي حائل فحسب — بل من الرجال الذين حاضروا فيها معركة جراب . فانه وان قدم لنا صورة واقعية تحدث فيها الشاعر حديث عدل عن بداية المعركة التي كان النصر فيها في تصوير الغويه لقوم الامام عبد العزيز — ثم انعكست مؤخرا في صالح قوم ابن رشيد ؛ فان الغويه لم يستطع أن يخفي شعوره بالاعتزاز .

ولما كانت هذه المعركة فيها كما ذكرت نوع من الاحداث الواجبة فاننا نجد شاعرا من الجانب الثاني أي من قوم الامام عبد العزيز انشد قصيدة حربية — يصف هو الآخر

تلك المعركة بقصيدة لم يرد لنا منها الا أبيات قليلة . ولكن هذه الأبيات على مافيها من قلة — وان لم يكن فيها من المعاني التي جاء فيها الفويه في تصويره للحادثة تصويرا تاريخيا كأن المرء ينظر الى وطيس تلك الحرب بعينيه — فان فيها معان تعبّر عن اعتزاز الشاعر بالنصر الذى أحرزه قومه أى في بداية المعركة — كما تعبر أيضا عن شماتته بأحد قادة بن رشيد الذى هرب وترك الراية على حدّ قول الشاعر الذى يدعى عالج السكيني .

ولما لم أحظ بقصيدة السكيني كاملة فانه ليطيب لي أن أورد ما ظفرت به منها :

ذيب باللي بدمني بعواه	١	دوك أهل لهده بين جراب
من قهقوى دارنا جهلساه	٢	لجد ما يرعونها الا جلاب
قار بن سبهان ماشلساه	٣	يوم نفس بيرته حلاه
جمع شمر بالقدم نطاه	٤	بالهنادى وم نصف خشاب
وبسر اهل الخيل ماشفساه	٥	والمعقل صار به الاكساب

يبدو والأمر واضحا ان بين البيت الاول والبيت الذى يليه بيوت مفقودة ، ولذلك لعدم ارتباط معنى البيت الاول بالذى يليه . ولكن هذا ما استطعت الحصول عليه . ومما لاشك فيه ان هناك شعراء أنشدوا من كلا الجانبين قصائد كثيرة لان معركة كوقعة جراب لابد الا أن تتغنى فيها قرائح الشعراء لأنهم في تلك الحقبة الزمانية هم صورة ناطقة عما يقال عنه اليوم بوكالات الانباء العالمية . والصحافة — المحلية والخارجية معا واذا كنا لم نجد من قصائد الشعراء من الجانبين سوى الابيات التي انشدها الفويه بجانب ابن رشيد

أو هذه الأبيات التي أنشدها السكيني الذى بجانب الامام ، فان السبب في ذلك يعـــود الى طول المدة التي مضت على تلك الموقعة وهي مدة تبلغ ستين سنة هذا من ناحيـــــة ومن ناحية أخرى يعود الأمر الى أن الشعراء الذين لم يكونوا ذائعي الصيت ، وواسعـــي الشهرة ، فان المجتمع لا يهتم بحفظ قصائدهم ـ كما يهتم بقصائد الشعراء المشهوريـــن ـ كالعوني مثلا الذى مجرد ما ينشد قصيدة نجد الصغير يحرص على حفظها قبل الكبـــــير ، ولذلك لا أستبعد أن هناك شعراء أنشدوا قصائد في هذه المعركة من كلا الجانبـــــين وانما درست قصائدهم كما درس الكثير من أدبنا القومي مع الأسف الشديد .

أما المعاني التي جاءت في قصيدة الشاعر السكيني فانها كمايلي :

١ ـ كأن الشاعر يسمع ذيبا يعوى عواء متقطعا من شدة الجوع ، فيقول مخاطبا الذئـــب لا تقلقني أيها الذئب بعواك هذا ، ولا تشكو الجوع ، فتعالى الى شمال حائـــل ـ أهل لبده ـ ولبده هذه حي رجاله هم أعيان مدينة حائل ـ وفتيان هذا الحـــي هم طليعة فتيان جبلي طـي شجاعة واقداما ـ وقد دارت رحى المعركة في جـــراب بصورة انصبت أعظم جيوش الامام عبد العزيز على أهل " لبده " لان بطـــل الهيجاء الامام عبد العزيز واثق انه عندما يحرز النصر على اهل لبده ، فان النصـر على بقية الرايات سوف يتحقق ـ وفعلا هزم جيش الامام ابن سعود اهل لبده بعـــد معركة عنيفة قتل فيها جميع النخبة الذين يعدون لحماية البيرق وفي مقدمة من قتـــل ذلك اليوم ومن حماة البيرق بالذات من أبطال اهل لبده ـ عبدالله العبد العزيـــز العريفي شقيق علي العريفي الموجود حاليا بالرياض .

والشاعر المكهني يحدد موقع المعركة والمكان الذى فيه قتلى العدو " اهل لبده " بالذات فيقول يعجز البيت انهم أى القتلى في المكان الذى يقع من ابمن " جـــــراب " وجراب هذا مكان في الصحراء يقع بين حائل والقصيم .

٢ — ان الانسان الذى تحدثه نفسه في غزوة لديارنا أولوطننا — سوف نغزوه نحن لان بلادنا نجدا لا يمكن أن يحتلها الاجنبي — يقصد ابن رشيد .

٣ — يشير الشاعر أن ابن سبهان صهر الامير ووزيره انهزم وتخلى عن الراية — والحقيقـــة التاريخية ان الامير سعود ابن رشيد نفسه عندما بلغه خبر أن راية اهل لبدة استولى عليها العدو . وان أهل لبده هزموا عند ذلك رأى الامير وحظاته ان عدم الهزيمـــة يعتبر انتحارا لا شجاعة . فانهزم الامير مسعود ومعه سعود العالج السبهان الـــذى أشار اليه الشاعر . ومعهما من حظاتهما سليمان العنبر وعايد الشريفي وسعيـــــد التوم ودرعـــان وجابر بن شعلان . وتبع اثر المهزومين الفارس المشهور هايس بـــن عشوان وكوكبة من فرسان قبيلة مطير . وتصدى لهم الفارس سعيد التوم الذى كـــــر عدة مرات حتى لكمهم على أعقابهم — كما ان جابر الشعلان كر مرة . وسألت درعـــان عن ذلك . ويقول انني خاشـــرت التوم وكريت مرة واحدة .

٤ — يقول الشاعر انهم هزموا جموع شمرو وطوحوهـــم باقدامهم — واشبعوهم ضربـــــا بالهنادى أى السيوف وبالهنادى التي يقال لها " ام خشاب " .

٥ — اننا لم نر فرسان الميسرة لابن رشيد — واننا كسمنا " المعقل " أى رواحـــــل ابن رشيد .

هذا ولقد استطردت في ذكر ما أنشده الشعراء في معركة جراب ، وذلك للأسباب الآتية :

أولا — ان جميع المؤرخين الذين تصدوا لكتابة تاريخ بلادنا سواء الغرباء عن معرفة معاني أدبنا الشعبي أوالذين من أهالي نجد ولا يجهلونه — كل من هؤلاء وأولئك عندما يصل الكاتب منهم عند معركة جراب لا يفيها شرحها مفصلا ووافيا كما هي الحال في وصف هؤلاء الشعراء الشعبيين لها — بل لن تجد منهم واحدا أورد شاهدا من الابيات الشعبية التي تعتبر اصدق المراجع التاريخية في وصف الاحداث الحربية التي اجتازتها بلادنا كوقعة جراب .

ثانيا — لقد كان استطرادي هذا امتدادا للبحث المتصل بالفترة التي قضاها العوني بحائل دون أن يتأثر بشعوره وعواطفه — بجانب ابن رشيد خاصة في تلك الفترة الى مابعدها بثلاث سنوات .

"لدينا دليل آخر يثبت أن العوني ظل بحائل فترة بجسمه لا بقلبه"

ذكرت من قليل أن وجود العوني عند ابن رشيد أثناء وقعة جراب ، بدون أن ينشد قصيدة يعبر بها عن شعوره كما جرت به عادته في مثل تلك المعركة يعطينا دليلا واضح المعالم يؤيد صحة نظر القائلين ان الشاعر كان بجانب ابن رشيد بجسمه فقط . اما عقله وقلبه وشعوره وعواطفه فانها كانت بجانب — اهل بلاده عند

تحت قيادة ابن سعود .

هذه المعاني أرجو ألا يؤاخذني القارئ فيما اذا وجدني كررتها والسبب ليس تكراري لها يعود الى الأمرين الآتيين :

أولا — ان العوني في جميع مراحل حياته التي درسناها بعمق لم نجده حضر " للقوة " (١) الا رأيناه فيها قصيدة ، فان كان بجانب المنتصر ، وصف بامتزاز وهو تفاصيل المعركة وان كان بجانب المهزوم وصف تفاصيل المعركة ايضا بوضوح ومن ثم جاء بالادلة القاطعة التي تبرر الهزيمة من ناحية — وتثير حماس المهزومين في طلب الثأر والكرة مرة أخرى على العدو من ناحية ثانية كما فعل ، ذلك عندما كان بجانب ابن صباح في معركة الطرفيه ، راجع صفحة ( ) .

أما الامر الثاني الذي دعاني الى تكرار ما سبق أن ذكرته هو تعرض زامل السبهان الذي قتل امام عين العوني — علما بأن زاملا كان للعوني حصنا منيع الجانب ولولا وجوده وصيا بل حاكما منفذا لما نجحت فكرة العوني التي ابداها لسعدون — عندما فاتر زامل مصلحة امارته وفي رجال بلاده وتهيأته لتنفيذ الفكرة ابتكرها العوني كما سلف ذكره — ومع جميع هذه المعاني السياسية والادبية التي اسداها زامل للعوني — عندما قتل زامل

---

(١) يعبر النجديون القدماء عن المعركة التي تقع بين قوتين متكافئتين ، كبين ابن سعود وابن رشيد — يعبر عنها بـ — للقوه — وهذا التعبير معروف عند النجديين وخاصة عند اهالي حائل . ولا أدري هل يشاركه به أحد .

هذا ولقد استطردت في ذكر ما أنشده الشعراء في معركة جراب ، وذلك للأسباب الآتية :

أولا - ان جميع المؤرخين الذين تصدوا لكتابة تاريخ بلادنا سواء الغرباء عن معرفة معاني أدبنا الشعبي أوالذين من أهالي نجد ولا يجيدونه - كل من هؤلاء وأولئك عندما يصل الكاتب منهم عند معركة جراب لا يفيها شرحها مفصلا ووافيا كما هي الحال في وصف هؤلاء الشعراء الشعبيين لها - بل لن تجد منهم واحدا أورد شاهدا من الابيات الشعبية التي تعتبر اصدق المراجع التاريخية في وصف الاحداث الحربية التي اجتازتها بلادنا كوقعة جراب .

ثانيا - لقد كان استطرادي هذا امتدادا للبحث المتصل بالفترة التي قضاها العوني بحائل دون أن يتأثر بشعوره وعواطفه - بجانب ابن رشيد خاصة في تلك الفترة الى مابعدها بثلاث سنوات .

"لدينا دليل آخر يثبت أن العوني ظل بحائل فترة بجسمه لا بقلبه"

ذكرت من قبل أن وجود العوني عند ابن رشيد أثناء وقعة جراب ، بدون أن ينشد قصيدة يعبر بها عن شعوره كما جرت به عادته في مثل تلك المعركة يعطينا دليلا واضح المعالم يؤيد صحة نظر القائلين ان الشاعر كان بجانب ابن رشيد بجسمه فقط . اما عقله وقلبه وشعوره وعواطفه فانها كانت بجانب - اهل بلاده بريده

تحت قيادة ابن سعود .

هذه المعاني أرجو ألا يؤاخذني القارئ فيما اذا وجدني كررتها والسبب في تكراري لها يعود الى الأمرين الآتيين :

أولا — ان العوني في جميع مراحل حياته التي درسناها بعمق لم نجده حضر " لقوه " (١) الا رأيناه فيها قصيدة ، فان كان بجانب المنتصر ، وصف بامتزاز وزهو تفاصيل المعركة وان كان بجانب المهزوم وصف تفاصيل المعركة ايضا بوضوح ومن ثم جاء بالادلة المقنعة التي تبرر الهزيمة من ناحية — وتثير حماس المهزومين في طلب الثأر والكرة مرة أخرى على العدو من ناحية ثانية كما فعل ، ذلك عندما كان بجانب ابن صباح في معركة الطرفيه ،راجع صفحة ( ) .

أما الامر الثاني المهم الذي دعاني الى تكرار ما سبق أن ذكرته هو محرج زامل السبهان الذي قتل امام عين العوني — علما بأن زاملا كان للعوني حصنا منيع الجانب ولولا وجوده وصيا بل حاكما منفذا لما نجحت فكرة العوني التي ابداها لسعدون — عندما قام زامل مصلحة امارته وفي رجال بلاده ، وتبنيه تنفيذا لفكرة ابتكرها العوني كما سلف ذكره — ومع جميع هذه المعاني السياسية والادبية التي اسداها زامل للعوني — عندما قتل زامل

---

(١) يعبر النجديون القدماء عن المعركة التي تقع بين قوتين متكافئتين ، كبين ابن سعود وابن رشيد — يعبر عنها بـ — لقوه — وهذا التعبير معروف عند النجديين وخاصة عند اهالي حائل . ولا أدري هل يشاركه به أحد .

يشهد من العوني ورثاء العوني له نكبا على وجهه كما جرى للقوم الذين حضروا مصرع زامل ولم العوني قائما الرثاء بمثله ومع ذلك لم تتحرك مواطف هذا الشاعر ولم يهب شعوره ولم تجد قريحته بقصيدة يرثاه فيها - بل ولا ببيت يحمل معنى يترحم عليه فيه .

أجل ان مصرع الوصي زامل بدون أن يصدر من العوني بيت يرثاه به لهو دليل قاطع لا يقبل التأويل يثبت أن العوني لم ولن يكن في قلبه لأمير حائل ولا لأهل بلاده ولا لقبيلته بل ولا للوصي ركنه الوحيد مايزن جناح البعوضة من الولاء والمحبة بل ولا من العاطفة التي عرف العوني بها .

قد يقول من لا يدرس شخصية هذا الشاعر بعمق أن امتناعه عن رثاء لزامل مصدره خوفه من عقاب سعود العالج السبهان الذي قتل زاملا . فهذا القول قد يكون فيه شيء من المنطق فيما لو كان العوني من نوع النفر الذين تنقصهم الشجاعة الأدبية .

أما اذا عدنا الى ماهو معروف عن شجاعته الأدبية فاننا نجد الرجل لا يقهره أي شيء اسمه الخوف من العقاب أو من العواقب - فهل تريد دليلا اكبر من أنه ذهب يرثي صديقه عبد الله بن طلال . وهو القاتل لأمير البلاد - والسلطة كلها بيد أولياء المقتول - كما سيأتي توضيحا لذلك - لقد رثى العوني عبد الله الطلال بقصيدتين في كل بيت منها معنى يعبر انه صادر من صهجة الشاعر .

قد يقال ان الذي قتل الوصي شاب مغامر فشوم مطلق السلطة لا يردعه اي رادع من أن يقتل العوني فيما لو رثى المقتول ، وهذا القول فيه كل المنطق فيما لو لم نجد شاعرنا قصيدة بعد مقتل زامل - من النوع الذي يقال له الادب الرمزي . ولكن صارخة في تهكم العوني وازدرائه وسخريته في شخص القاتل الذ

فالشاعر الذى يملك الشجاعة الادبية التي من هذا الوزن كيف نتهمه بالجبن ؟ وهـــو الذى ذهب بسخر من القاتل في قصيدته تلك بأسلوب وان كان رمزى في ظاهره فانه صريح فـي معانيه صراحة مؤلمة الى درجة أراد القاتل للوصي أن يضرب عنق الشخص الذى ألقى تلـــك القصيدة نيابة عن العوني — لولا أن ملقي القصيدة أطلق ساقه للريح — هاربا من البلاد لا يلوى طرفا ولم يعد الى اهله — حتى نزح هذا القاتل — بل حتى لقي القاتل أجله وقتل الشـــيل القاتل — بشر القاتل بالقتل ولو بعد حين .

ومن هنا يصح لنا القول أن الرجل الشجاع الجرىء الذى بلغت به شجاعته درجة مـن التهوّر لا يمكن أن يعرف مقدار شجاعة العوني او يحدد مداها الا من يفهم نوع السلطة والنفوذ اللذين يتمتع بهما القاتل بصورة تجعله بكل سهولة يأمر ادنى شخص من رجاله أن يأتي له برأس العوني — بلحظة لا يكلفه فيها الا اذا كان القصاب البارع يتكلف بقتل الشاة .

أجل ان من تبلغ به شجاعته الانتحارية الى هذا التهور الا يكون قادرا على أن يرثـي فقيده الوفي فيما لو كان في قلب العوني له من المحبة ما يزن جناح البعوضة ؟ قد يقـــال ايضا ان العوني ليس وفيا لاصدقائه ولو كان وفيا لرثى زاملا ؟ وهذا القول ايضا معقولا فيما لـــو لم نجد من تاريخ شاعرنا ما يثبت بالدليل القاطع بأنه متى ما أحب شخصا فانه وفى في ولائه وولاء لا يقف به عند حدولا يحسب بالنتائج لوفائه . فخذ مثلين على ذلك ؛ المثل الاول جاء علـــى الوجه التالي ؛ عندما أحب العوني عبد العزيز المهنا رثاه رثاء حارا ومفجعا يتفطر قلبه معلنا به ولهه ، ووجده على المقتول ، دون أن يحمل حسابا لعقاب القاتل المنتصر الذى كان يعـــاصره يجد كلما وتتذاك بقبضه وطوع بنانه . واعني به الامير محمد

واما الدليل الثاني الذى أهم من الاول من حيث

عبد الله الطلال ، دفعه وفاؤه الى أن يرثاه في قصيدتين :

يعانيه الشاعر من شدة الفاجعة التي أثارت شجونه وهزت كيانه ، وهي معان تفرد العوني الى سيف الجلاد عند أمير حائل عبد الله المتعب ابن أخ الامير الذى قتله عبد الله الطلال . ولكن وفاء الشاعر دفعه الى درجة جعلته لا يقدر نتائج عمله ، ومن خلال هذه الادلة الوافرة نستطيع ان نخرج بالنتيجة الاتية :

اولا) ان رواسب الحقد والضغينة لاسرة آل رشيد ولاهل البلاد تاصلت بدم العوني ولحمه مذ كان يافعا - لم يطرأ عليها اى تبدل في خلال الفترة الاولى التي قضاها بحائل الكائنة من عام ١٣٣٢ الى عام ١٣٣٦ - عندما بدأت تلك الرواسب تتقلص شيئا فشيئا حتى تأثم نهائيا وذهب ينشد القصائد الحماسية . وقصائد الرثاء كما سيأتي شرح ذلك .

ثانيا) نستطيع أن نحكم أيضا ان هذا الشاعر ليس كما يقال لا مبدأ له أو أنه متقلب ، بل الرجل له مبدأه الذى يفسره هو والذى يؤمن به بصرف النظر عن كون مبدأه هذا فيه خطأ في نظر الاخرين أم غير ذلك ، المهم أن هذا الشاعر له عقيدة يؤمن بها وله مبدأ لا يتزحزح عنه ان احب أطلق رأيه بمن يحب . وان كان في اعلانه لرأيه خطر يهدد حياته وان أبغض فانه قد يمتدح من لا يحبه على الاسلوب الذى انتهجه المتنبي مع كافور ولكنه لا يمكن أن يتخصص لمن لا يحبه في انشاده له قصيدة يمهد له رجاله . كما لا يمكن أن يرثاه حيا مالم يكن رثاؤه هذا صادرا من صميم قلبه لا من حنجرته .

يتساءل السائلون : بماذا يملأ العوني فراغه وكيف صنع ذلك ؟

يسأل السائلون بتعجب واستغراب ، بل وفي حيرة تستثير الاستفهام المحصورة بالسؤالين التاليين :

السؤال الاول :

بماذا يملأ العوني فراغه خلال المدة التي كانت فيها قريحته معطلة عن الابتكـــار والابداع .

السؤال الثاني :

كيف يشاعر كالعوني يستطيع أن يكبت قريحته الفياضة خلال مدة بلغت خمس سنوات ، عالم يلشد بهذه المدة شعرا .

الجواب على السؤال الاول مايلي :

[redacted]

اذا كان الشاعر الطغرائي يقول :

أفلل النفس بالامـــال أرقبهـــا ما انقد العيش لولا خدعة الامـــل

فان شاعرا كالعوني واسع الخيال يستطيع بكل سهولة أن يملأ فراغه بالامال والتأملات التي يسبح فيها خياله محلقا في مرتفع من السمو الذى يتجاوز السحاب لكأنه في خياله هذا وفي تأملاتـــه تلك ملك متربع فوق عرشه سادر في لذة سعادته تشوان في موجة من السرور والحبور لا يشاركـــه في ذلك أي من كان .

وهل تريد دليلا مؤيدا لما أشرنا اليه أكثر من القصة التي أنقلها عن الشيخ عبـــد العزيز بن زيد صديق العوني الحميم ـ تلك القصة التي جاءت على الوجه الآتي :

يقول الراوى : كنا في الحجر ـ مدائن صالح معسكرين مع الامير سعود بن رشيد أيام الحرب العالمية الاولى وكان العوني هو مصدر أنسنا وتبديد همومنا . فكأن الرجل دائـــرة معارف متحركة لا تمل أحاديثه الممتعة ، راسخ العلم في التاريخ وفي الادب ، واذا غلب علينـــا هم طمنا الهم والغم . وشعرنا كأننا في غياهب السجن .

ويمضي الراوي قائلا : في أحد الايام غاب عنا العوني — فبعثنا اليه رسولا يطلب منه أن يأتي . وبعد فترة جاء الينا — وعندما أخذ مكانه في الجلوس قال : قال الله محمد) بن شديد — يقصد الرسول الذي جاء اليه يطلبه للمجيء فيقول ابن زيد عندما سألناه مستفسرين عن سبب دعائه على رسولنا قال : لقد كدر رسولكم الخبيث ماكنت أشعر فيه بسعادة من الاحلام والاماني اللتين أسبح في بحرهما — وذلك أنه جاء الي في الفترة التي كنت محلقا في خيالي بالغا فيه القمة . وقد صوّر لي خيالي الوهمي أنني متربع على أريكة السلطنة يحيطني الحراس من كل جانب ، وقد جاءني احد الحراس يقول ان السلطان التركي محمد الخامس واقف عند باب قصري يطلب مني الاذن في دخوله علي فجاءني رسولكم اللعين وطرد عني ذلك الخيال الطافح بالعظمة والسرور ".

عندما سمعت هذه القصة من الشيخ ابن زيد تبادر الى ذهني أول الامر ان دهاء العوني هو الذي جعله يختلق هذه القصة ليوحي الى عارفيه انه يحمل همة الملوك وآمالهم ، هكذا كنت أتصوّر العوني وقصته هذه الى أن ابتلاني الله في خيال ودعني لا أستطيع أن أشرح تفاصيله ، وانما أورد موجزا منه ، لعل القارئ يشاركني الرأي بصحة ماتحدث فيه العوني عن خياله الذي كنا اسلفت في شك من صحته حتى وقعت بقصة الخيال الذي يطيب لي أن اوجزه على الوجه الآتي :

في مدينة دمشق

كان ذلك في عام ١٣٧٠ هـ ١٩٥٠ م . وبينما كنت أنتظر سيارة تقلني من الموقف الذي كنت فيه الكائن في ماسمي شارع النصر بجوار القصر العدلي قاصدا الذهاب الى السفارة — السعودية الواقعة في حي ابي رمانة ، وبدون ارادة مني ذهبت شارد الذهن أسير على قدمي نحو السفارة . ولا زلت أسير الهوينا أسحب خطاي الى أن تجاوزت بناء السفارة لا بل تجاوزت حتى حي " ابو رمانة " وأشرفت في مشيتي هذه الى أول طلعة في المهاجرين في المكان الذي يسمى " باشكاتب " ساعتئذ صحوت من سباتي واستيقظت من ذلك الخيال الوهمي الذي لا أستطيع

أن أصير فيه الا أنه صورة من حلم الليل ـ والا كيف أستطيع بأن اقطع تلك المسافة ماشيا وهي مسافة لا تقل عن (٣) كم. لو لم أكن نشوانا في ذلك الخيال الذي عندما اصطدمت به وجها لوجه بات عندي من اليقين القاطع أن العوني صادق فيما تحدث به عن آماله التي تبدد همومه ويملأ بها فراغه.

هذا ما طاب لي أن أجيب به على السؤال اما الجواب على السؤال الثاني القائل، كيف استطاع شاعر هذا بعده كالعوني الدانق القريحة بأن يظل صامتا عن الشعر وأن يجعل قريحته مجمدة خلال خمس سنوات، الجواب على ذلك ما يلي:

صمت العوني شكلا ـ ولم يصمت قولا وفعلا

لقد صمت العوني عن الشعر الذي يحمل طابع الحماسة والتحريض وصمت ايضا عن الرثاء عما لم يكن له في نفسه مودة ـ حتى ولو كان له عليه يد كزامل السهمان.

نعم صمت العوني عن التحريض الذي لصالح ابن رشيد وضد ابن سعود وذلك قبل معركة جراب. كما صمت بعد المعركة. ومما لا شك فيه انه لو كان العوني بجانب ابن سعود في معركة جراب لوجدناه يقيم الدنيا ويقعدها مهيجا له ومحرضا المواطنين ضد خصمه ـ كما فعل ذلك عندما كان بجانب ابن صباح في معركة الطرفيه كما سبق أن ذكرنا ذلك. الذي

وقد كان صمته محصورا على القصائد ذات الصلة بالحماسة التي هي فنه الذي برز فيه جمع شعراء عصره ـ والواقع ان العوني كان صمته شكليا ـ ولم يصمت قولا وفعلا ـ وبعبارة اوضح لم يصمت هذا الشاعر عن القصائد التي كان ينظمها خفية وسرا ويجعلها باسم غيراسمه، كما فعل ذلك في القصيدتين اللتين انشدهما وجعلهما باسم الوصي زامل السهمان كما سيأتي ذكرهما موضحا كما لم يصمت العوني عن الشعر الذي صاغه بما يسمى الادب الرمزي ـ حيث

أنشد قصيدة تحمل معاني السخرية والتهكم بأسلوب مؤثر، وأود أولا أن أورد القصيدتين اللتين انشدهما باسم الوصي ولكن قبل أن أوردهما أرى من الواجب أن أؤكد بأن هاتين القصيدتين رغم شيوعهما بين الاوساط الشعبية في ذلك الوقت، فانك لن تجد اى شخص يقول ان هاتين القصيدتين للعوني وهذا مما يدل على أن الشاعر كان حازما ومحسنا على الصمت في تلك الفترة، ولا لماذا لا يعلن من نفسه بأنه هو الذى أنشدهما وهو المعروف ان الشجاعة الادبية لا تنقصه، ولماذا يجعل المواطنين في حيرة عن معرفة الشاعر الذى أنشد هاتين القصيدتين. فمن تأمل انه فهد الفويه. ولكن الذين يعرفون اسلوب الفويه يرون ان ماورد من المعاني والاسلوب فيهما بعيد كل البعد عن اسلوب الفويه المعروف بأنه يرتفع تارة الى القمة وينخفض أحيانا الى الحضيض. وتارة يقال أن هاتين القصيدتين قد انشدهما فعلا الوصي زامل السبهان. ولكن الذين يعرفون زاملا جيدا يؤكدون أنه لم يعرف عنه أنه انشد بيتا واحدا فمن لا يعرف عنه بحياته بيتا من الشعر كيف به ينشد هاتين القصيدتين. على الرغم من أنه رجل من عقلاء الرجال ودهاتهم ولكنه لم يكن شاعرا قط والشعر موهبة قبل أن يكون عقلا ودكاء. واذا كان رواة الشعر ونقاده يرون أن هاتين القصيدتين معانيهما فوق مستوى شعر فهد الفويه الذى تعتبر منزلته بالشعر بعد العوني فكيف يعقل أن تكون هاتان القصيدتان من نسج خيال الوصي زامل الذى تكرر القول بأنه لم يقل شعرا لا قبل هاتين القصيدتين ولا بعدهما ؟

وهكذا كنت أنا والجم الغفير من المواطنين في حيرة من معرفة الشاعر الذى أنشدهما، ولكنني لم اكن في حيرة عندما وقفت بالعشور على ديوان خطي - عند الاخ الاديب ....

وذلك في عام ١٣٨٦هـ. ١٩٦٦م. وفي ذلك الديوان وجدت قصيدتين ضمن قصائد العوني كما وجدت غيرهما من قصائد الشاعر التي أخبرني عليها. فسألت صاحب الديوان من أين وجدهما ؟ فقال انه نقلهما وغيرهما من قصائد العوني - من ابن أخت صاحب الترجمة. والواقع انني عندما

تطرت الى المعاني والاسلوب عند ذلك شعرت كأنني أرى العوني يقدمها لنا هو بنفسه . واذا كان العوني في هاتين القصيدتين يحاول أن يخفي اسلوبه ، ولكن اسلوب الشاعر او الكاتب صورة عن وجهه الذي لا يستطيع المرء أن يخفيه قطعيا . ولذلك نجد ادنى انسان تعمق بدارسة أدب اى شاعر او ناثر فانه باستطاعته أن يعرف اسلوب هذا الشاعر او ذلك الناثر بكل سهولة . ولا سيما والاسلوب الذي يسير عليه العوني في شعره اسلوب نادر ان يشاركه فيه احد كما قال ذلك عنه الاديب الشاعر فارس الفهيد الرشيد الذي يقول جار الله العنابي الملقب بالقيس والحافظ الاظيمة شعر العوني يقول : انه عندما القى قصائد العوني أمام فارس الفهيد عندما كان فارس في المدينة المنورة قال فارس : هذا الشاعر - يعني العوني - يسبح في بحر من الشعر محتكرا له لا يشاركه فيه اى شاعر آخر .

هذا وانني عندما أوردت هذا الاستطراد فان غايتي من ذلك تتلخص بالهدفين التاليين :

اولا) اردت أن أثبت أن العوني لم يكن صامتا ولا هو متحجر الشعور والعاطفة في تلك الفترة الا في الصدانين اللذين أشرت اليهما وهما الحماسة والرثاء اللذين كما اسلفت لا يصدران الا من القلب والقناعة والعقيدة .

الامر الثاني هو أن هاتين القصيدتين لم يعرف المواطنون ان الذي انشدهما العوني . ولذلك أوردت الادلة التي استطردت فيها لاثبت أن قائلهما العوني ولا نفي نفيا قاطعا أن قائلهما الوصي زامل أو الفهيه .

والمك أولى القصيدتين اللتين زعم العوني ان الذي انشدهما زامل السهمان وذلك عندما جاء بهذه على النحو التالي :

يا نفس عاد منك على كل الاحوال	١	ونحاك يا نفس الخطا بالملسين
كل شرب قبلي من الغبن فلجال	٢	وانا فقدت حمود جل الكسين
ودلت صوني بالخفي تهمل همال	٣	قيمة ثلاث سنين قلبي حسرين
وعرفت ما غير التجلد والاجمال	٤	وطول الدعاوى به سمع الكنسين
وأيقنت ان العمر ني وطيزال	٥	وصرت ان الله مع الصابرين
ولا وجتها بوصها تنده البال	٦	في شرق نجد والشمال أجمعين
ابن سعود أنهل على الدار رحال	٧	وأرسل لابن شملان جوسا بلسين
تواعد واثم أرسلوا لابن هذال	٨	اللي يبي عز البداوه يجمني
جونا كما وصف الدها يوم بنهال	٩	وشربو حبا وادى لبن مجلسين
هم حابلوا كيد وأنا صرت غرهال	١٠	ولا تنفع الحيلة برجل فطسين
ونطحتهم بالله وقوات ورجال	١١	وضرب يخلي كل قاس بلسين
يا طي العيرات طوحت من عال	١٢	وما عديت بحلة العابلسين
ويما حلفت وقلت فرز الوفا قال	١٣	وحطيت نفسي خادم له ضمسين
هذا هو حق الناح على الخال	١٤	وصبور ما كل المخني بيسين
وصلوا على المختار والصحب والآل	١٥	اعداد ما حنت خلوف القطسين

يقول الشاعر :

١) ايتها النفس ، لقد أبتليت بهذه حياتية وكل ما أريده منك يا أيتها النفس الخاطئة ، الخاطئة من قبيل الذم الذى باطنه مدح ، هو أن تكوني وطيدة الايمان والمطمئن بقضاء الله وقدره . أعتقد أن بين هذا البيت والذى قبله معان متصلة بالاول ولكنها مفقودة حلقة الاتصال .

٢) كل انسان في هذه الحياة تجرع مرارة البؤس وشرب كأس الحزن مترعا . وانني تجرعت اكوابا من البؤس والحزن وذلك عندما فقدت حموداً " حمس الكمين " اي الذي يحتمي في الهيجاء حصنا منيعا للفرسان — وهو يقصد ابن عمه حمود السمهان الذي كان وصيا من قبله وهو فارس مشهور .

٣) وقد ظللت عيوني تسكب الدمع مدرارا سرا وذلك منذ ثلاث سنوات وتلمي يتفطر حزنا على ابن عمي حمود[1] .

٤) وأخيرا آمنت ان المرء اذا ابتلي بالمصائب فان الافضل له ان يكون جلودا متجملا لان الضجر يفقد المرء ما يكنه من خفايا نفسه وأسرارها .

٥) ومادمت مؤمنا أن حياة المرء هي أشبه بالظلال الذي لابد له أن يتحول ويأتي من بعده شمس ثم ليل ، ومادام أن عمر المرء وحياته بهذه الصفة ، فانه من الخير له أن يتحلى بالصبر لان الله سبحانه وتعالى يقف دائما بجانب الصابرين .

٦) وكم عانيت من التعب في سياسة الامارة بصورة مطلقة للنفس — وذلك مما أواجهه سواء ما ألاقيه من الاعداء الذين في شرقي نجد او الاعداء الكثيرين العدد الذين في شمال نجد .

---

(١) والعوني عندما يأتي بهذه المعاني يصورا الحزن والبؤس اللذين يعانيهما الوصي من فقده لابن عمه حمود فانه اي العوني يعبر بذلك عما يختلج في نفس الوصي زامل الذي ينظر الى ابن عمه حمود نظرة اجلال واكبار مؤمنا ان حمودا هو الذي رفع منزلة آل سمهان اسرة زامل من موظفين ووزراء مال ورأى الى رجال شاركوا الرشيد بالسلطة والنفوذ . والزواج من نفس اسرة الامارة . وهذا قبل حمود لم يحصل .

٧) لقد جاء ابن سعود " يعني الامام عبد العزيز " هاجما على بلادنا — كما بعث رسولا من عنده للشيخ الحضوري ابن شعلان بأن يهجم علينا من الشمال لان ابن سعود جاء هاجما من الجنوب .

٨) ثم من ناحية أخرى بعث ابن سعود وابن شعلان رسولا لابن هذال رئيس قبيلة العمارات وتلا له فلنجتمع سويا لنقضي على امارة آل رشيد لان في اجتماعنا هزا لنا ولبلادنا .

٩) ولقد جاءت هذه القوى هاجمة علينا اشبه ما تكون في كثرتها بالجراد المنتشر .

١٠) لقد ابرم هؤلاء كيدا وحيلة خطيرة ولكن الكيد والحيلة لا يعملان بالرجل القطن — يشير الى نفسه .

١١) ولقد قابلت كيد هؤلاء الاعداء بمعونة من الله وارادة تفل الحديد .

١٢) وكم من مرة ومرات استطعت أن أجعل المعتدين طائعا لي منقادا لسطوتي . وكم من مرة هزمت المعتدين .

١٣) وكم اقسمت بالله ان لامير سعود أمرني أن أفعل كذا ونهاني عن كذا على الرغم من أنه لم يبلغ من السن الذي يجعله يدرك الامور على ما هي عليه كما يجب أن يكون . ومع ذلك وضعت نفسي لهذا الامير بمنزلة الخادم الامين .

١٤) وهذا أمر لعمر بالكثير فانا لحال الامير يجب علي أن افعل ذلك . والتاريخ سوف يكشف الحقائق وسوف يعلن بصورة جلية كل أمر خفي مستتر .

١٥) يختم الناظر في هذا البيت الصلاة على النبي كما هو الاسلوب المتبع عند الشعراء المسلمين .

" هذه القصيدة واضح فيها اسلوب العونـــــي "

:

في هذه القصيدة ظاهرة محسوسة . وهي أن أى قارىء لديه أدنى الم في معرفـــة أسلوب الشاعر أو الكاتب فانه عندما يقرأ هذه القصيدة سوف يرى اسلوب العوني بارزا فيهـــا أكثر من الأولى ـ هذا من ناحية ومن ناحية أخرى سوف يرى المرء الذى يقرأ بتدبر وعمق أن العوني لم ينشد هاتين القصيدتين الا بايعاز مباشر أو غير مباشر من الوصي زامل الذى كـــان يعاني قلقا مصدره ما يحس به من الغبن والدسائس المحليه اللتين في آخر المطاف أطاحـــت لا برأسه فحسب ، بل برأس عمه سبهان وبرأس كل من يمت له بصلة القربى والولاء ، ومـــا يؤكد لنا التأكيد الذى لا يقبل التأويل بأن القصيدة من نسج قريحة العوني ومن وحي خيـــاله هو أن القافية التي وردت في صدر البيت ثقيلة . وليس كل شاعر يستطيع أن يستر بانشـــاده لقصيدة على وزن هذه القافية ـ بدليل ان الامير ماجد الحمود الرشيد عندما سمع القصيـــدة التي قالها رئيس قبيلة العجمان الفارس الشاعر " ركان بن حثلين " التي على هذا الـــوزن نفسه . والتي منها قوله :

واخلّي اللي في محاجر عيونـــه خيل مشاهير تطارد بأهلهـــــــا

قال ماجد للشاعر فهد الغويه بصيغة التحدى " أريد منك أن تقول قصيدة بالغويـــه على هذا الوزن ـ فقال الغويه قصيدة من عيون قصائده على نفس هذا الوزن وقد جـــــاء مطلعها كمايلي :

قلبي اللي الي بتصافق ركونـــه نهجت اجيب البيت من محتلهـــــــا

والثقل يأتي بقافية هذه القصيدة من حيث جمع اللام والهاء والألف - لتجمع هذه الحروف - في صدر هذه القصيدة - تجعل القارئ لا يخامره شك بأن القصيدة لا تصدر الا من شاعر غزير القريحة ، كما أن الاسلوب واضح انه اسلوب العتابي - واليك قصيدة الوصي المزعومة :

عيت تتوب أم الجهل عن جهلها	١	نبغي تعقلها وتزداد بهبال
بما عذلناها نسي عن فعلها	٢	نسعى لها بالخير من زين الافعال
والهوم عسي لا يكمل جدلها	٣	نبغي لها عز وهي تلطم الجمال
بالله يوم انه تغرم فعلها	٤	قمنا بواجبنا على كل الاحوال
نمشي على الواجب نطوي مهلها	٥	بامر الأمير سعود حمال الأثقال
شيخ لنا كل المعاني بذلها	٦	ونتبع هواه ونرخص الحال والمال
وصديقنا له زلة نحتملها	٧	والى اعتمد فيه نرصه على الجمال
مثل امس يوم ان الرويلي تكلها	٨	على جهد حيله وحيل بن هذال
كنا عليه وكل عذري ذهلها	٩	قبت عجاج الخيل كاسيها الظلال
قوم على الواضح سهجنا حللها	١٠	بسريع الى جاه ساعة الضيق جهال
رفاقه ما بالطوايف مثلها	١١	عظم رتبه ما هم على قرش وبال
شمر الى زعلت زعلنا زعلها	١٢	ونرضى اذا ترضى على كل منوال
حافوا على ذروات ود نور رحلها	١٣	واستجلبوا مع النظا كل مشوال

وسترد فوا صنعة لبتاد شغلهـا	١٤	عابينها لمصادمه كل عيـــال
نريد نجد اللي هناء حط اهلها	١٥	بتسهيل رب العرش عدال ماســال
ماكل من يشره لدار نزلهـــا	١٦	حنا لمن يشره على الدار غربـــال
قولو لهو تركي نعول فعلهـــا	١٧	في نجد نزهل من للثقال شـــيال
دار سكناها يدور بدلهـــا	١٨	يخطى محل جالنا فيه مدخـــال
ولا يقابل نار شيخ شعلهـــا	١٩	استسعرت ماهي هرابيد جهـــال
يصلح ولا يخفي علينا حيلهـــا	٢٠	حنا نحايل كل من كان حيـــال
حنا بقالتنا نكمل علمـــا	٢١	الله يقدرنا على الـذيـن باسهـال
وصلاة من كل الخلايق كفلهـــا	٢٢	على النبي الهاشمي خير مرســـال

أي قارىء يتدبر أبيات هذه القصيدة ـ بتروى وأناة ويتعمق في المعاني التي جاءت فيها سوف يتجلى له الامر واضحا اننا على صواب فيما ذكرناه ـ بان الوصي زاملا كان يعاني قلقا نفسيا فيما يلاقيه من المعارضين له أوالمتخلفين ، وخاصة اولئك النفر الذين كانوا من وراء مصرعه ـ بصورة تمكنوا أن يوغلوا قلب ابن عمه سعود الصالح الشاب الحديث السن ـ حتى أقدم على قتله لزامل ـ ومن ثم ـ نزح عن البلاد ولقي نفس المصير الذى لقيه الوصي ـ لعلا الجو لأولئك النفر الذين يهمهم ان يبعدوا المقتول اولا عن طريقهم كما يسهل عليهم ابعاد القاتل فيما بعد بشتى الوسائل ومختلف السبل ـ كما حصل ذلك فعلا .

ولذلك نجد معاني القصيدة من البيت الاول الى البيت السابع كلها موجهة

من الشاعر العوني على لسان حال الوصي ـ موجهة الى اعدائه الذين داخل بلاده لا على أعدائه الذين خارج نطاق أمارة حائل ـ اجل ان معاني الابيات الاولى واضحة بان الوصي يشكو ويتألم مما يراه من ظلم ذوى القربى الذين قال عنهم الشاعر العربي :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة
على المرء من ضرب الحسام المهنـــد

أجل ألا ترى أول بيت في مطلع القصيدة يقول :

١ ـ أبى الجهال الا أن يستمروا في جهلهم ، وكل ما حاولت ان أرشدهم لعلهم يعقلون تمادوا بجهلهم وبجنونهم .

٢ ـ كم من مرة نصحنا هؤلاء الجهال غيرة منا على ان لا يقعوا بالخطأ والفشل ـ وهمنا كله منصب على مساعينا لهؤلاء بالخير والافعال الجيده الحسنه .

٣ ـ وانني أرى هؤلاء القوم لا ينتهي جدلهم ففي الحين الذى اجدني ساعيا لهم بالعز أراهم يناطحون الجبال في جهلهم .

٤ ـ وعندما تفاقم شر هؤلاء واستفحل امرهم ـ لم يسعني الا أن قمت بما يمليه عليّ الواجب على اكمل الوجوه .

٥ ـ انني أسير في قيامي بالواجب بخطى وئيدة وذلك بتوجيهات اميرنا سعود بن رشيد الذى يقوم بالنائبات العظام .

٦ — وهو قائدنا الذى بذل لنا جميع المعاني الطيبة . ولذلك تجدنا ننفذ ارادتـــه ، ونبذل في سبيل رضاه جميع طاقتنا المادية والمعنوية .

في البيت الآتي معنى واضح فيها ان العوني يتحدث عن لسان حال الوصي زامل الذى يخاطب بني قومه الادنين الذين يسيئون اليه في تصرفهم ، فهو في هذا البيت ينذرهم بقوله :

٧ — انني سوف أفقر الخطيئة الواحدة لبني قومي وللصديق . ولكن اذا تمادى هـــذا الصديق في ارتكاب الاخطاء فاني سوف اضربه ضربة قاسية الهدف الذى عبر عنـــه العوني عن لسان حال الوصي — الخاص وما يواجهه زامل من خصومه واقاربه ودسائسهم وما يحذرهم به في عقابهم اذا تمادوا في زللهم — كل ذلك جاء في الابيات الاولى التي من البيت السابع وما فوق اما الابيات التي بعد البيت السابع فانها تمويه وتغطيـــة للمعاني التي وردت ولعل القارئ عندما ينظر لمعاني الابيات التي من البيت السابـــع وما دون سوف يتجلى له الامر واضحا انه لم يكن هناك أى ارتباط في المعاني — فبينما نجد الشاعر ينذر ويحذر اصدقاءه الادنين مؤكدا لهم انه سوف يعاقبهم اشد العقاب اذا تمادوا بخطئهم . واذا به ينتقل فجأة يتحدث عن معركة وقعت بينه وبين الشـــيخ النورى ابن شعلان رئيس قبيلة الرولة فكأنه يعرض انتصاراته على اعدائه يعرضها علـــى خصومه من اقاربه ليعترفوا بفضله وجهوده ، فيقول :

٨ — ألا تروني في امس الماضي عندما تصدى لعداوتنا " الرويلي " اى ابن شعـــــلان معتمدا على قوته وقوة ابن هذال رئيس قبيلة العمارات ألا تروني .

٩ — * صبت عليه الغارة حتى اصابه ذهولا جعله لا ينظر الى حماية الفتيات العذارى من بني قومه .

١٠ — وقد هاجمنا اعداءنا بصورة واضحة علانية هاجمناهم بني تميلتون الذين وان كانوا عقلاء ولكنهم في الهجاء يكونون كالمجانين .

١١ — وابناء قبيلتي هؤلاء لا يضارعهم أحد من بني الطوائف الاخرى من حيث الرابطة القومية فكلهم يقاتلون لقتال الاخ دون أخيه تحدوهم رابطة الدم . خلاف جنود الجيش المرتزقة الذين يقاتلون بالاجرة .

١٢ — وقبيلتي هذه هم ابناء عمي شمر الذين اذا غضبوا غضبنا لغضبهم كما انهم ايضا يغضبون لغضبنا .

هذا وقد أوضحت سابقا ان جميع معاني الابيات التي وردت بعد البيت السابع فانما هي تمويه اما الغاية الاساسية من هدف الشاعر المتحدث عن لسان حال الوصي — هي ما جاء في الابيات التي من البيت السابع ومادون . ولذلك لا أرى ما يدعو الى شرح الابيات الباقية — لان معانيها لم تكن غاية بحد ذاتها وانما هي وسيلة لقط . وسيلة لما قبلها من الابيات التي ذكرتها .

أما البيت السابع عشر فان فيه معنى يخاطب به الشاعر الامام عبد العزيز قائلا له وان كنت من الرجال ذوي الوزن الثقيل فانك سوف لا ترى منا الا ما يغضبك علينا فيما اذا حاولت غزونا .

" العوني أول شاعر شعبي استعمل الأدب الرمـــــــزي "

كان جوابي صريحا للذين يقولون كيف صمت العوني خلال الخمس سنوات التي أقامها بحائل قبل أن يتأقلم ؟ لقد أجبت على هذا السؤال بالصفحات السابقة مؤكدا أنه صمت عن انشاد القصائد ذات الطابع الحماسي التي ينشدها باسمه بصورة علانية . ولكنه لم يصمت عن القصائد التي ينشدها باسم غيره وعن لسان حال غيره وقد أوردت القصيدتين اللتين انشدهما العوني عن لسان حال الوصي زامل السبهان .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو الآتي :

بعد أن قتل الوصي هل أنشد العوني قصيدة أو اكثر على لسان حال الذي تولى منصب المقتول كما كان يفعل من قبل في عهد الوصي السابق ؟

واذا كان لم ينشد شعرا في هذا المعنى — كما لم يمل بشعوره وعواطفه تجاه البـــلاد وأميرها خلال تلك الفترة التي حددتها بخمس سنوات — فكيف يشاهد تلك القريحة والذهـــن العوني أن يصمت ويكبت شعوره المتدفق وهو الذي يتعطش رجال ذلك المجتمع على أي بيـــت يصدر منه فيقبلونه بشغف ولهفة كما يتقبل الظمآن الماء الزلال ؟ — الجواب كالتالي :

اذا كان العوني يجد في الوصي مجالا ينشد القصائد باسمه وعن لسان حاله — فـان هذا الشاعر السياسي الفيلسوف — بعد ان قتل الوصي — لم يتعذر عليه وجود من ينشـــــد القصيدة باسمه ولسان حاله . ولكن هذا الذي انشد القصيدة باسمه هذه المرة لم يكـــــن

وصيا ولا أميرا بل ولا هو انسان — اذن من هو الذى أنشد العوني قصيدته الرمزية أوالجهنمية باسمه ؟؟ الجواب مايلي :

يوجد لدى العوني جواد أصيل يعتني فيها عناية العاشق الولهان — كما أن هـذه الجواد تروم العوني كما يروم الرضيع ثدى امه وتجد العوني اذا دخل منزله يخاطبها بالسـلام والتحية كما يخاطب العاشق معشوقته كما أن هذه الفرس — اذا دخل صاحبها منزله تلاحقـه حتى غرفة نومه — وهذه الجواد يسميها العوني " السـنيسـه " وهي التي زعم العوني بانها انشدت قصيدة عصماء — وقبل ان تسمع القصيدة التي انشدتها السيسـه — ذهب العوني يتحدث في نادى الامير ونوادى اعيان البلاد — يتحدث عن القصيدة التي انشدتها السيسـه واصفا ايها انها قصيدة رائعة في معانيها نادرة في مراميها — يستحيل ان تجود قريحة اعظم الشعراء بمثلها أومايقاربها — وهكذا راح العوني يعطي قصيدة " بسيسته " من النعـوت الامر الذى جعل احد الاغبياء يسأل العوني بدهشة وتعجب قائلا : وهل الفرس تستطيـع ان تقصـد ؟ ؟ فأجاب المسؤول — بسخرية " ليس كل الخيل تقول الشعر . ولكـن " البسيسه " علمتها الشعر حتى اصبحت اشعر مني .

فأصبح سؤال هذا الانسان البسيط ، وجواب العوني له هو حديث الاندية — كمـا أصبح رجال ذلك العهد ينتظرون بفارغ الصبر اليوم الذى يسمعون فيه قصيدة بسيسة العوني — فمنهم من هو حريص على ان يسمع قصيدة البسيسه ليتسلى ويضحك ويبدد همومه ظانا ان العوني أنشد قصيدة هزليه مضحكة ليسلي فيها الامير واعوانه — واما الفريق الثاني فانه ينتظر ان يسمع قصيدة البسيسه وهو بغاية الشوق . واثقا أن العوني تعمد ان يأتي بقصيدة فيها من معاني الادب الرمزى الشيء ينتهجه دائما الفلاسفه المفكرون على الاسلوب الذى طرقه الكاتـب

المشهور عبد الله المقفع في كتابه ـ كليله ودمنه .

واذا كان العوني عندما ينشد قصيدة لا يلقيها بنفسه بل يعهد شخصا يدعى عبد الكريم المكادى " لازال على قيد الحياة " يسلمها العوني للمكادى ويذهب هذا بلحنها تلحينا شيقا حافظا لها عن ظهر قلب كالمسجل ـ بدون ان يفقه معانيها ـ فقد سلّم القصيدة البهيمه للمكادى واكد عليه بان لا يسمعها منه اى من كان حتى يأتي اليوم الذى يسمح له في القائها ، وهكذا ظل العوني يشيع ويذيع عن قصيدة البهيمه ـ وكل من سأله عن اليوم الذى تلقى فيه القصيدة جاء الجواب خاليا من تحديد اليوم .

واذا كان القارئ يذكر حرص العالم في اول الحارب العالمية الثانية على استماع خطاب الزعيم الالماني هتلر ـ عندما تتحدث وكالات الانباء عن تحديد اليوم الذى سيلقي فيه خطابه ـ واذا كان المواطن العربي أيضا يذكر تزاحم المواطنين على " الراديو " عندما يحدد صوت العرب أو اذاعة القاهرة ـ في اواخر الخمسينات بان الرئيس عبد الناصر سوف يخطب ـ ان المواطنين في امارة حائل ـ يشبهون بصورة مصغرة ـ انشودة العوني بشوق ولهف ـ واعجاب ـ وحرص شديد ـ بنفس الحرص الذى يبدو من سامعي خطاب هتلر او عبد الناصر ـ لكن مرة اخرى ـ القول : بصورة اقل حجما من حيث العدد ومن حيث الزمان والمكان .

" صنع العوني القنبلة ـ وفجرها المكادى "

حدد العوني الزمان والمكان الذى تلقى فيه قصيدة " البهيمه " كان الزمان في نزهة التي يجلس فيها الامير صباحا في قصر ـ خواله آل سبهان ـ واما المكان فانه في نفس

نادى آل سبها الذى يضم عادة أعيان البلاد - وخوال الامير طبعا - وحتى من لم يكن عادة من يحضر هذا النادى فانه سوف يحضره ليسمع قصيدة البسيسه - بل وحتى النساء المخدرات اللواتي لا ينظر اصبح اية واحدة منهم جئن من وراء شبابيك النادى ليسمعن قصيده البسيسه - " هذا ما اكده لي ملقي القصيدة السيد عبد الكريم المكادى ، وكان في مقدمة الحاضرين في ذلك النادى - الرجل الذى صنع العوني القنبله له - وهو الشاب الملي من اخمص قدميه الى هامته فتوة وحماسا . وسلطة وصولجانا - كما ان لدى هذا الفتى شبانا مغامرين لو يأمر أى واحد منهم بان يأتي اليه برأس العوني لما تأخر عن تنفيذ امر سيده لحظة واحده .

وهكذا أقدم العوني على صنع قنبلته هذه بدون أن يحمل أى حساب أو يخاف أى عقاب من نتائج ماصنعته يداه - وهذه خلاصة - قصيدة بسيسه العوني - بل قنبلته الهزلية الزمانية التي فجرها الراوية عبد الكريم المكادى الذى لا يفقه المعاني التي استهدفها الشاعر الساخر - وكل الذى وسعه علم المكادى وفهمه ووعيه وعقله المتواضع - هو ان يصغى الحاضرون الى صوته العذب النقي الشجي . ويطرب الجالسون الى تلحينه الشجي - وهو يهز رأسه متمايلا نشوانا ثملا - من تأثير قافية القصيدة الذى وجد له وقعا في نفسه - فكأنه مرتوبا من بنت الكرم عندما راح يزهو وهو يلحن قصيدة " البسيسه " التي يطيب لي ان اورد الابيات الجوهرية التي استهدفها العوني فيما يرمي اليه في ادبه الرمزى في تلك القصيدة التي اختصرها على الوجه الآتي :

العين من طيب الكرى وش ذعرها	١	كل العرب نوما وانا تغـل سـاري
سألتها وش طلبها وش . . خبرهـا	٢	كأني بسر العين مالي بـدارى
قالت على كبدى لهيب صهرهـا	٣	لكن بشظاها حديد السـاري
وعذرتها والله بسهره عذرهـا	٤	وقلت اسهرى مابه علينا نكـاري
وتفكرى وش بالدهر من عبرهـا	٥	وتعجبي فيما جرى بالجـواري
وشوفي سهل الرمل تعلو حجرهـا	٦	تستاهظين وتالفين النكـاري
وهك السباع اللي بجنب خطرهـا	٧	دلت تصيدها الحدا والصـاري
وتامت حشاش الارض تعلن شهرها	٨	تهدلت ذيك الثعالب ضـواري
والديك شاش وقام ينفش شعرهـا	٩	شره يهدونه يصيد الحبـاري

لا أرى مايدعو الى سرد القصيدة بكاملها البالغة اكثر من ثلاثين بيتا - والسبب لعدم مواقاتي القارىء بالقصيدة كامله - يعود الى ان الرجال الثقات الذين عاصروا الشاعر في تلك الفترة ، وهم من نفس اهل البلاد - يؤكد هؤلاء انهم سمعوا من العوني رأيه محدثا لهم نفاهيا انه عندما انشد هذه القصيدة كان هدفه محصورا في المعاني التي جاءت في هذه الابيات الرمزية التسعة - اما المعاني التي جاء بها الشاعر بعد هذه الابيات فانها هي

[illegible]

هذا هو ما أورده في هذه الابيات التسعة وماعدا ذلك تحصيل حاصل ليس الا - والذي يجهل معاني الالفاظ الشعبية يحسن بي ان اواصل الاسلوب الذي سرت عليه في شرحي

لا دينا الشعبي — موضحا معاني الشاعر كما يلي :

١ — لست اعلم ما هو السبب الذى جعل عيني لا تقبل النوم في الحين الذى كان الناس كلهم نائمين . فكأني سار على راحلتي بالفلاة .

٢ — لقد سألت عيني عن اسباب هذا السهر . فكأني لا أعلم السر الحقيقي لسهرها .

٣ — فأجابت العين قائلة اشعر كأن نارا تلتهب في مهجتي وكأن اسياخا محماة على النار أكوى بها فقالت

٤ — مادمت ايتها العين بهذه الحالة فاني اعذرك والله يعذرك ايضا بل عليك ان تسهري اكثر فان لا احد يلومك والحالة هذه .

ويجب عليك ايتها العين ان تنظري الدهر بعين الاعتبار حتى ترين العجب في تطور الزمان .

٦ — ألا ترين الارض تعلو وتتطاول على الجبال وهذه الامور اكبر عبرة وموعظة لك . وما يجعلك لا تستنكرين تغير الدهر .

٧ — أولا ترين ايضا تلك الاسود التي تهاب وتخشى صولتها ذهبت فريسة لضعاف الطيور .

٨ — اولا ترين ايضا حشرات الارض تتباها وتتبختر بمشيتها وألا ترين تلك الثعالب انقلبت اسودا مفترسة .

٩ — أولا ترين الديك ظل يمشي بزهو واعتزاز طامعا بان يحتل مكانة الصقر من احرار الطيور

هذه الرواية تلقيتها حرفيا من الراوى — المكاوكي وعندما سمعتها — قلت في نفسي أللهم وفق المسؤولين من أمة العرب الى جلساء خير يدافعون عن الضعيف المظلوم كما دافع ابن عتيق عن المكاوي[1] — الذى كان اسهل عقاب لقيه هو أن جلى عن البلاد — ولم يعد اليها يعد الا بعد أن توفي صاحب النفوذ .

(١) ما اكبر وابعد الهون الشاسع بين سليمان العتيق جليس الخير وبين جليس سواء كان عند احد حكامنا العرب في عصرنا الحديث حينما ارتكب احد المواطنين ذللا ذهب جليس السوء هذا يسكب دموع التماسيح كأن بكاءه المصطنع غيرة على ذلك الحاكم الذى تهاون بعقاب المواطن الخاطئ .